

nesemat.com

نسيمات

للدراستات الاجتماعية والحضارية

مفهوم وراثه الأرض
لدى كولن ووظيفته الحضارية
فريدة زمرد

انتهاكات حقوق المرأة في تركيا
تقرير العدد

الإسلام والديمقراطية
فاروق مرجان

محتويات

المشتلة النوعية / نسمات ١

مفهوم وراثه الأرض
لدى كولن ووظيفته الحضارية / فريده زمرد ٢

"الغرباء" من العمق الإنساني
إلى صياغة عالم جديد / محمد ياسين ٢٠

منهج التوصيل عند كولن
قراءة في معالمية الفسيولوجي والبسكولوجي / سليمان عشراي ٢٨

حكمة الغربية وخطابها
في كتاب الغرباء / محمد جبيب ٤٧

فتح الله كولن وآرؤه الكلامية والفلسفية / نوسة السيد ٦٣

انتهاكات حقوق المرأة في تركيا / نسمات ٨٠

الإسلام والديمقراطية / فاروق مرجان ٩٧

المشكلة النوعية

والناقد الأدبي الجزائري البارز سليمان عشراي. أما الأكاديمي والأديب المغربي محمد جكيب فقد استوقفته عتبات "الغرباء" فراح يجيل النظر فيها متأملاً في حكمة الغربية وخطابها سواء في عتبة العنوان أو من خلال إضاءات المقدمة أو في الرؤية الواحدة التي تتقاسمها عناوين مقالات الكتاب كله وإن تعددت أشكالها.

إن المسيرة الإصلاحية للأستاذ كولن اصطدمت بأشواك كثيرة، سواء في الحقل الدعوي المرتبط بالعميقة والتيارات الفلسفية الوجودية، أو في الحقل السياسي المرتبط بمفاهيم كانت دائماً مثار أزمات ونقاشات بين تيارات المجتمع المختلفة في الداخل والخارج. وقد رصدت الباحثة الأكاديمية نوسة السيد في رسالتها العلمية الجانب الأول من خلال إبراز رؤية الأستاذ كولن التجديدية المعاصرة لعلم الكلام والفلسفة، وكيف عرض مسائل العميقة وشرحها شرحاً سهلاً واضحاً يخاطب العقل والقلب على السواء. كما تصدى للجانب الثاني الكاتب الصحفي فاروق مرجان الذي تتبع حوارات الأستاذ الإعلامية وبين موقفه الثابت من الديمقراطية، وكيف أنها تتفق مع ما جاءت به تعاليم الإسلام، خاصة إذا ما تحقق لها البعد الأخروي وأشبع مطالب الناس الروحية. وفي الملف التركي لهذا العدد يأتي تقرير "انتهاكات حقوق المرأة في تركيا" مكملاً لسلسلة التقارير التي بدأتها نسيمات منذ العدد السابق ليرصد بالبيانات والمعلومات الموثقة طبيعة الممارسات الممنهجة التي تنتهك حقوق المرأة على كافة الأصعدة.

لقد اكتسب مفهوم وراثته الأرض أبعاداً جديدة لدى الأستاذ كولن جعلت الأستاذة فريدة زمرد تحاول رصده في مضامينه ومجالاته وصفاته وتكشف عن وظيفته الحضارية التي عمل الأستاذ كولن على ترسيخها فكرياً وفاعلية. وقد تجلى ذلك في كل كتاباته سواء في "ونحن نقيم صرح الروح" أو "ونحن نبني حضارتنا" وأخيراً وليس آخراً كتاب "الغرباء". فقد تناول الباحث الأكاديمي محمد ياسين -من خلال هذا الكتاب- كيف عانى كولن وهو يشتغل بأناة وحكمة وتدبر في محاولة لإعادة صياغة عالم جديد انطلاقاً من العمق الإنساني بأبعاده القيمة والذاتية. ولم تكن هذه الغاية يسيرة هينة فدونها خرط القنادر، لذا كانت حركته التجديدية التي تستشرف مستقبلاً واعدًا مصحوبةً بأنيته المتواصل على ما آلت إليه أحوال هذه الأمة وأمله الذي لم ينفك عنه لوضعها. ولكن ماذا يجدي البكاء في واقع سريع التحول والتبدل؟ واقع يحتاج إلى قدرات خاصة ومنهج منضبط، لكي يوصل للعالم صوته ويبلغه رسالته، فمع جلال الرسالة وعظم قدرها فإنها تحتاج إلى قدرات تواصلية هائلة لاقتحام قلاع النفوس المحصنة، وتكوين الخميرة من الناس أو المشكلة النوعية وتطويعها لحمل أعباء هذه المسؤولية بأمانة واقتدار. وهذه القدرات التواصلية ببعديها الفسيولوجي والبسكولوجي ومنهجية التواصل التي تمتع بها الأستاذ كولن في مسيرته الإصلاحية هي ما اشتغل على إبرازه وتحديد أهم مرتكزاته الأكاديمي

مفهوم وراثه الأرض لدى كولن ووظيفته الحضارية



فريدة زمرد

كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" للأستاذ فتح الله كولن من الكتب التي لفتت أنظار كثير من الباحثين فهو مع وجازة حجمه يرسم خارطة تفصيلية دقيقة لغاية عظيمة يتوخاها كل مجدد ومصلح، وهي إقامة صرح الروح المتداعي وتشبيده على أسس متينة. ومن ثم فكل مفهوم في هذا الكتاب مركز شديد التركيز، يحمل في تضاعيفه إشارات ورموزا متعددة ومتنوعة.

وقد تصدت باحثة قديرة ورائدة في التفسير المصطلحي لبعض مقالات هذا الكتاب، حيث وقفت وقفة تأمل في النواة المفهومية التي منها تتشعب كل الدروب الاصطلاحية في النص. ووجدت أن هذه النواة المفهومية هي: وراثه الأرض. ثم راحت ترصد هذا المفهوم إحصاء ودلالة، وتسبر غور صفات ورثة الأرض الثمانية التي استعرضها الأستاذ كولن في ما اختارته من مقالات، لتخلص منها إلى جملة من المفاهيم التي تُشكّل امتدادات يصلح كلّ مفهوم منها أن يكون ميداناً لدراسات مفهومية ومصطلحية عميقة في فكر الأستاذ كولن على حد وصف الكاتبة.

أ.د. فريدة زمرد، رائدة التفسير المصطلحي، (فاس، المغرب) حصلت على الإجازة سنة ١٩٨٧ في شعبة الدراسات الإسلامية. وحصلت على الدكتوراه في موضوع "مفهوم التفسير في القرآن والحديث". ترأس هيئة تحرير مجلة "الرؤية"، وشاركت في عديد من الندوات والملتقيات العلمية، محلياً وعالمياً. لها مؤلفات عديدة أهمها: "مفهوم التأويل في القرآن والحديث" و"معجم المصطلحات القرآنية المعرفة في تفسير الطبري" و"أزمة النص في مفهوم النص عند نصر حامد أبو زيد".



ي

مقدمة: فرضية وإشكال

يتميز كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"^(١) للأستاذ فتح الله كولن، بالكثافة العلمية

الشديدة، بسبب حجم الغاية التي يتوخاها، وهي "إقامة صرح الروح"؛ أي إعادة صناعة حضارة راشدة، وصغر المساحة التي خصصها لذلك: وهي ١٤٢ صفحة، نظرت منها إلى مقالتيين أولاهما: (ونحن نقيم صرح الروح)، والثانية هي: (الحركية والفكر)، ثم لما وجدته يجعل الأولى مجرد تفصيل لمقال سابق، فقد أضفته إلى مساحة النظر، وهو مقال (وارثو الأرض)، فكان مجموع الصفحات المدروسة ٢٢ صفحة، وهي مساحة أشد اختزالاً وكثافة. لذلك أفترض -أولاً- أن أفضل مفتاح يمكننا من الدخول إلى هذا الصرح هو المفتاح المصطلحي. ولما كانت تلك الكثافة العلمية

سبباً في تزامم المصطلحات والمفاهيم، فإنني أفترض ثانياً أن ثمة شبكة مفهومية مترابطة، من أي مدخل منها بدأت وجدت نفسك سائراً بين دروبها في تداخل لا تخطئه عين الباحث. ولكن كثرة مسارب هذه الشبكة المفهومية، وتداخل مكوناتها قد يسقط الباحث أحياناً فيما يشبه المتاهة، مما يقتضي منه وقفة تأمل في النواة المفهومية التي منها تتشعب كل الدروب الاصطلاحية في النص. لذلك أفترض أخيراً بالنظر إلى سياق الكتاب كله، وطبيعة الغاية من تأليفه، أن هذه النواة المفهومية هي: وراثة الأرض.

غير أن مفهوم الوراثة ومعه الإرث والميراث اللذان استعملهما الأستاذ فتح الله كولن أيضاً مضافين إلى

الفكر بدون حركة سكونٍ واستسلام وتسليم، والحركة بدون مبادئ وتصورات وقلب حي تكون حركة سلبية، لأنها تعني غياب الإيمان الحقيقي.

www.nesemat.com

الأرض إنما يعني في استعمالاته اللغوية، وحتى في بعض استعمالاته القرآنية: "انتقال فُنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد"، بل "يقال لكل من حصل له شيء من غير تعب قد ورث كذا"، فكيف يستقيم مفهوم الوراثة بهذا المعنى مع مفهوم البناء، بناء صرح الحضارة الذي يشترط بلوغ الغاية من الجهد والتعب والحركية، فكراً وعملاً، عقلاً وروحاً وجسداً، جماعات وأفراداً؟

١- إحصاءات ودلالات

ورد مفهوم الوراثة في هذه النصوص الثلاثة ٢٧ مرة. منها ٢٤ مورداً كلها موصولة بلفظ الأرض صراحة أو ضمناً. وواحدة موصولة بلفظ السماء (الوراثة السماوية)، والاثنتان الأخيرتان ليست لهما إلا دلالة لغوية (أورث / يورث) بمعنى سبب.

٩٢٪ من الاستعمالات الاصطلاحية للمفهوم وردت بصيغ اسمية، منها ٦٥،٢١٪ جاءت اسماً للفاعل في صيغة المفرد (وارث) أو صيغة الجماعة (وارثو الأرض، ورثة، جماعة وارثة) والباقي مصادر، وهي: وراثته ١٧،٣٩٪ وميراثه ٠،٨٦٪ وإرثه ٠،٨٦٪.

إن تركيز النسبة في صيغ اسم الفاعل يؤكد فاعلية المؤمن -فرداً كان أو جماعة- في عملية وراثته الأرض.

يتميز كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" للأستاذ فتح الله كولن، بالكثافة العلمية الشديدة، بسبب حجم الغاية التي يتوخاها، وهي "إقامة صرح الروح"؛ أي إعادة صناعة حضارة راشدة، وصِغَر المساحة التي خصصها لذلك.

www.nesemat.com

فتح الله كولن وصفاً أساسياً من أوصاف وارثي الأرض كما سيأتي، و٨ الأخيرة تتعلق بامتداد الوراثة الإيمانية الصالحة إلى الآخرة. ومن تتبع هذه الموارد يتبين أن شروط الصلاح التي جعلت في القرآن الكريم مناسطاً لبلوغ مرتبة وراثة الأرض كلها دنيا وآخرة هي نفسها التي جعلها الأستاذ صفات لوارثي الأرض، فكيف يتبين ذلك من خلال كل الصيغ والاشتقاقات المستعملة؟ وما الامتدادات المفهومية للوراثة؟

٢- صفات وراثة الأرض

الوراثة عند الأستاذ فتح الله كولن "عودة إلى الفلك الأصل"، وليس المقصود بالأصلية القدم الزماني وإنما التمثيل الحقيقي، فقد يمنح حق لبعض الناس، ثم يؤخذ منهم ويمنح لآخرين أفضل منهم نسبياً، طبقاً لعوامل الصعود والهبوط الحضاريين، وكل هذه أنواع من الوراثة للأرض، ولكنها ليست الوراثة الحقيقية التي يقصدها الأستاذ فتح الله. فالوارث الحقيقي من توفرت فيه خصال الوراثة الممتدة في الزمان والمكان، لهذا يقول الأستاذ فتح الله كولن: "الدنيا تدور، وتدور، وكلما دارت تنسحب إلى فلّكها الأصل. فهل وارثو الأرض الحقيقيون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، فخطفه غيرهم قبل مدة؟ إن الحق الأول شيء، والحق المستلم بالتمثيل شيء آخر. فالحق إن لم يُتمثل حسب مقاييس قيمه الذاتية، يمكن أن يُسترد في كل وقت، وإن مُنح ابتداءً لأمة معينة وجمَع معين... فيسترد منهم، ويُسلّم إلى من يكونون الأسبق والأفضل نسبياً في الخير، إلى أن ينشأ

وهدف الأستاذ كولن أن يبين شروط هذه الفاعلية التي سماها بخصال وارث الأرض، كما سماها صفات في غير ما موضع.

وأما الصيغ الفعلية على قلتها فتؤكد امتداد هذه الفاعلية من الأرض إلى الكون كله، يقول كولن: "مَنْ يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضاً. إذن هي حاكمة في الكون كذلك"، وهذا ما يسميه كولن: "وراثة السماء".

إن آية الأنبياء آية جامعة، فهي كما تؤكد على الثقة المطلقة في وعد الله الذي كتبه في الزبور من بعد الذكر، وهو وراثة الأرض، قد بينت الشرط الجامع أيضاً لتحقيق هذا الوعد: وهو الصلاح (أن الأرض يرثها عبادي الصالحون).

وهذا الشرط الجامع فصلته آيات كثيرة في الكتاب العزيز. فقد ورد مفهوم الوراثة في القرآن الكريم عموماً ٣٥ مرة، ٦٨,٥٧٪ منها تتعلق بوراثة الناس للأرض، أي ٢٣ مرة. ويلاحظ أنها موزعة بالتقارب على مجالات ثلاثة: ٨ منها تتحدث عن وراثة الأرض في الدنيا، و٧ موارد تتحدث عن نوع مخصوص من هذه الوراثة وهي وراثة العلم، كتاباً كان أو نبوة أو حكمة، وهذه الوراثة هي التي سيجعل منها الأستاذ

لبد من "جماعة علمية" تفتح الطريق نحو مجتمع علمي. لذلك فمن خصائص ورثة الأرض أنهم منظمون في حياتهم العلمية كما يقول الأستاذ فتح الله كولن.

www.nesemat.com

الممثلون الحقيقيون... ولما كانت هذه الحاكمة بالنيابة والخلافة، فحيازة خصال التمثيل التي يريدها صاحبُ السماوات والأرض الحق، لازمة وضرورية". إن هذه الوراثه لها -حسب الأستاذ فتح الله كولن- مضامين ومجالات وصفات:

أ- أما مضامينها فمدارها على مفهوم الخلافة: فالتمثيل "حاكمية بالنيابة وخلافة" كما يقول. ولعل المقصود هاهنا استخلاف الإنسان في الأرض لتعميرها على قاعدة الصلاح، لا على قواعد الفساد الذي تخوفت منه الملائكة لما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة:٣٠). فاختيار الأستاذ فتح الله كولن للفظ الخلافة يتناسق مع شرط الصلاح الذي جعلته الآية مناطاً لوراثه الأرض ﴿بِرِثْنِهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ﴾ فلا يستحق التمثيل الحقيقي لهذه الوراثه، وهذه الخلافة، أو الحاكمة بالنيابة إلا من جمع شروط الصلاح وخصاله. ولذلك سماها الأستاذ أيضا بالوراثه السماوية التي تبدأ من اللجوء إلى الله تعالى لا من دعوى ندعيها، أو مصالح دنيوية نصيبها.

ب- وأما مجالاتها فاثنتان: الحركية والفكر: فهما الكلمتان الجامعتان للصفات المطلوبة لوراثه الأرض. يقول الأستاذ فتح الله كولن: "نحن نلخص خط كفاحنا كورثه الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا الحقيقي لا يتم إلا عبر الحركية والفكر". أو هو الإيمان والعمل، والنظر والتطبيق. فالفكر بدون حركة سكون واستسلام وتسليم، والحركة بدون مبادئ وتصورات وقلب حي تكون حركة سلبية، لأنها تعني غياب الإيمان الحقيقي..."

فحركات الأفراد والجماعة لابد أن تتأسس على باطن هذبه الإيمان الحقيقي، بما يصاحبه من علم وعشق ومراجعة ذاتية وحرية وإبداع وفن، وهي صفات وارثي الأرض، التي يجمعها لفظ الدين أو العبادة. وبالمقابل، كما أن الحركية ترتبط بالفكر فلا بد للفكر أيضًا أن يكون حركيًا، يتدخل فيما حوله، ويشارك في التكوينات المحيطة به، فليس من بديل لذلك إلا التسليم والعجز أو التعاجز بلغة الأستاذ كولن. أي إن صفات وارثي الأرض، وهي الإيمان الحقيقي، وما يصاحبه من علم وعشق ومراجعة ذاتية وحرية وجماعة مبدعة ورؤية فنية يجب أن تظهر في حركة تاريخية يستعيد فيها وارثو الأرض أصلهم الضائع منذ قرون، أي التمثيل الحق لشريعة الله في الأرض. ومناطق ذلك كله: "الحفاظ على الكتاب والسنة وصوافي اجتهادات السلف الصالح، وحسب مدارك العصر وأسلوبه".

ج- وأما صفات وراثه الأرض على جهة التفصيل فثمانية، سماها الأستاذ فتح الله كولن بالصفات والخصال، وهي:

الصفة الأولى، الإيمان الكامل: وهي أول صفات وارثي الأرض. وقد ورد لفظ الإيمان ومشتقاته في

الخاص الذي أصاب المنظومة التعليمية والفكر العلمي الذي تنتجه، كما سيأتي.

لذلك فالحل هو: "إثبات أننا وارثو الأرض الحقيقيون بفهم الإسلام، مصدرنا الكافي لانبعاثنا المادي والمعنوي، كما هو في أصله، ثم بالانخراط في جموع عباد الله الصالحين: السالمين المتدينين عاطفة وفكرًا وحسًا وشعورًا وإرادة، الثابتين القائلين على إعلاء كلمة الله، المنظمين في حياتهم العلمية... الموثوقين في سلوكيات العمل، المستقرين في شخصياتهم، القادرين على دحر نوازعهم النفسانية، الموفقين إلى ارتفاق القلب والعقل". فإن شئت تحديداً لمقومات مفهوم الإيمان الذي هو صفة لازمة لورثة الأرض، فإن الأستاذ فتح الله كولن يرى أن هذه المقومات تتمثل في:

المقوم الأول: اشتماله على الأفق العرفاني بما يمثله من روح المحبة وبُعدَي العشق والشوق وألوان لانهائية من الأذواق الروحية، فضلاً عن الجهد الفكري والتفكري. ولكي يبعد الأستاذ كولن عن هذه العبارة أي فهم صوفي فلسفي متطرف يجمع في نفس السياق بين الإيمان والتفكير فالإنسان: "مكلف ببناء عالمه الإيماني والتفكري بحد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود حيناً، وبالتقاط شرائح من الوجود وتقييمها في ذاته حيناً آخر. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه". أي أن شرط معرفة الإنسان لذاته ولحقيقة الوجود من حوله لا يتحقق إلا "في ضياء الإيمان".

لهذا يقول الأستاذ كولن: "لقد أرهق الغرب نفسه لملء فراغ جوهر لم يعرفه أساساً، فحاول سد

صفات وارثي الأرض، وهي الإيمان الحقيقي، وما يصاحبه من علم وعشق ومراجعة ذاتية وحرية وجماعة مبدعة ورؤية فنية يجب أن تظهر في حركة تاريخية يستعيد فيها وارثو الأرض أصلهم الضائع منذ قرون.

www.nesemat.com

هذه المقالات الثلاث ٢٢ مرة، منها ١٦ مرة بصيغة "الإيمان" نفسه. وقد ورد اسم الإيمان تارة موصوفاً بصفات إيجابية أو مضافاً إليها، وهي: الكمال (الإيمان الكامل) والحق والحقيقة (المؤمن الحق، المؤمن الحقيقي، الإيمان بمعناه الحقيقي)، وبالصلاح (المؤمنين الصالحين)، وكذلك: ضياء الإيمان، وإنسان الإيمان، وسائح الإيمان. كما يأتي أحياناً موصوفاً بصفات سلبية أو مضافاً إلى أوصاف سلبية، وهي: الإيمان (مرتين)، غياب الإيمان (مرة واحدة)، ضاع الإيمان (مرتين). فكل من تمثلت فيه خاصية الإيمان بأوصافها الإيجابية كان بحق منتسباً إلى وارثي الأرض حق الانتساب. وأما من ضعف الإيمان في قلبه فغاب وضاع وصار تراثاً، فقد حرم من شرف الانتساب إلى ورثة الأرض، وإن ادعى ذلك.

لذلك يأتي سياق وصف الإيمان بالتراب، في سياقين: **السياق الأول:** سياق عام يتعلق ببيان الخلل الشامل الذي أصاب المسلمين بعد بيعهم الدين بالدنيا، وتخليهم عن ميراثهم المبارك لصالح أفكار إحادية وشكوك مترددة، ومنظومات أيديولوجية متهاوية، وسلوكيات فاسدة.

السياق الثاني: سياق خاص يتعلق بالخلل

إن الدخول إلى عصر العلم يعني أن تستمد الجماعة الوراثية للأرض قوتها البنائية من العلم، بعد أن صار العلم كما يقول الأستاذ فتح الله كولن استناداً على النورسي: يمتلك الحكم والقوة.

www.nesemat.com

الحاجة نسبياً بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism)، أما نحن فلسنا بحاجة إلى التفتيش عن شيء أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعاملنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية".

المقوم الثاني: تفاوت الإيمان وامتداده. فالإيمان

يتفاوت ويتدرج من حالة الترابية والضياع كما تقدم، وهي حالة "الرميم المتخلف من التاريخ"، إلى حالة العمق الراسخ والكمال، التي هي حالة وارث الأرض. ثم هو إيمان ممتد في كل كيان الفرد الفكري والنفسي، وكل جزئيات حياته اليومية، وتتبدى ثماره في كل أنشطة المجتمع المسلم. وجلي أن قول الأستاذ فتح الله كولن في الإيمان هنا يتأسس على عقيدة إسلامية أصيلة: وهي أن الإيمان درجات، وأنه يزيد وينقص، وأن الإيمان الحق تصديق وقول وعمل: ينطلق من القلب فتظهر ثماره يانعة على الجوارح. أو كما يقول الأستاذ فتح الله كولن وهو يبين علاقة الفكر بالحركية، والإيمان بالعمل في حياة المرشدين الممثلين الوارثين: "ينثر احتضان الإيمان والعقل ثماره في كل صوب، وينبت ويزدهي المستقبل في صدر الأماني والآمال والعزم بألوان وأفنان لا يضاهاها خيال "المدن الفاضلة"، وتنشر التلفزيونات والراديوهات والصحف والمجلات في جو الفضاء، الفيوضات والبركة والنور، ويرتشف الكوثر كل قلب سائح في ربيع الجنة هذا، ما خلا الذي كالرميم المتخلف من التاريخ".

"لن تنحصر هذه الوراثية بالأرض وحدها... ذلك بأن من يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضاً، إذن هي حاكمة في الكون كذلك".

المقوم الثالث: القوة وهي صفة تناسب ما يسميه الأستاذ فتح الله كولن "إنسان الإيمان" الذي يستشعر طبيعة أصله ومصيره ووظائفه ومسؤولياته، و"يرى كل شيء نوراً وضياءً، ويطأ قدمه من غير قلق أينما يخطأ، ويسير نحو هدفه بلا خوف وفي ثقة". فيعطيه هذا الشعور قوة تنشطه في المسير، ويكون "سائح الإيمان" الذي تتناسق حركته مع حركة الكون كله. يقول الأستاذ فتح الله كولن:

"يُعد سائح الإيمان مكتشفاً لمصدر مهم للقوة. هذه الخزينة والذخيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بـ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعاً يلغي حس الحاجة إلى مصدر غيره عند من يحوز على هذا المصدر للقوة، وعلى هذا النور. فإنه لا يرى إلا "هو" سبحانه، ولا يعرف إلا "هو"، ولا يفر إلا إليه "هو"، ولا يحيا إلا متوجهاً إليه "هو"؛ فيستطيع تحدي كل القوى الدنيوية بقدر عمق معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف سلبية،

عبر عنها الأستاذ فتح الله كولن بألفاظ متعددة مثل:
المواجد والجذب والانجذاب والذوق.

فهل يهدف الأستاذ فتح الله كولن بهذا الأفق العرفاني للشوق، أن يحمله المعاني الصوفية الفلسفية، التي استهجنها علماء الإسلام قديمًا، والعلماء المجددون في كل عصر؟

صحيح أن الأستاذ فتح الله كولن يحيلنا إلى أعلام كالغزالي والسرهندي والشاه ولي الله الدهلوي وبيديع الزمان النورسي، وجلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، ولكنه لا يطلب من ورثة الأرض إلا الإفادة من إخلاصهم وحماسهم، شريطة التمسك بالمحجّتين البيضاوين: الكتاب والسنة، وأن "يتوجهوا بإيمان وحركية خالد بن الوليد وعقبة بن نافع وصالح الدين ومحمد الفاتح وياووز سليم...". وتلك مجرد خطوة أولى، "وخطوتنا الثانية هي أن نمزج عشقهم وشوقهم العجيب -غير المقيّد بالأزمنة والأمكنة كلها- بأساليب واحدة، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يبلى، وبالتالي إلى ميثاقية كونية. لذلك "يلزم لورثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر وفنونه". لذلك ينكر على الفكر الصوفي كما تمارسه الزوايا والتكايا، لأنهم استبدلوا بذلك العشق الإيماني الأصيل، تسلّيًا بقراءة مناقب الأشخاص.

ج- إن العشق الأصيل -كالإيمان- له امتداد وشمول، حيث يستغرق الوجود كله. ويتضمن ذلك

كل من تمثلت فيه خاصية الإيمان بأوصافها الإيجابية كان بحق منتسبًا إلى وارثي الأرض، وأما من ضعف الإيمان في قلبه فقد حرم من شرف الانتساب إلى ورثة الأرض.

مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء".

الكمال، والتفكير، والقوة: هي إذن: ثلاثية المدخل الإيماني إلى وراثة الأرض.

الصفة الثانية، العشق: وهو أعلى درجة في المحبة.

وقد ورد ذكره في المقالات الثلاث ١٢ مرة. ويلاحظ من سياقات استعماله الخصائص المفهومية التالية:

أ- أنه يشكل بُعدًا من أبعاد الإيمان الحقيقي.

فالإيمان الكامل كما يضعه القرآن العظيم يشتمل

في نظر الأستاذ فتح الله كولن على "الأفق العرفاني

وروح المحبة وبُعدي العشق والشوق وألوان لانهائية

من الأذواق الروحية". كما أن "من يُعمّر ويجهّز قلبه

بالإيمان بالله وبمعرفة، يحس حسب درجته بمحبة

عميقة وعشق أصيل". وأخيرًا يتحدث الأستاذ فتح الله

كولن عن سائح الإيمان فيصفه بأنه "يعيش في شوق،

ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف

سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء".

ب- أن العشق أتى في خمسة مواضع مقترنًا بمفهوم

الشوق أو واردًا في سياقه، كما لم يرد مفهوم الشوق

إلا مقترنًا بالعشق أو مستعملًا في سياقه، باستثناء

موضع واحد، ولكنه ورد فيه مصاحبًا للإيمان الحق.

والخيط الواصل بين المفهومين هو الروحانية التي

إنسانية الإنسان رهينة بتذوقه حس الحرية. ومتى فقدت الحرية ضعفت الشخصية وتراجعت القدرة على التطور والتجديد، وحلت الأنانية محل التفكير الجمعي المبدع والقوة محل الحق والإرادة والفكر الحر.

www.nesemat.com

الفسانية ودوافعها كافة، والانفتاح على الروحانية، والنظر إلى الدنيا والعلم بها كصالة انتظار إلى الأخرى". فالعرفان والشوق والشمول: مداخل العشق الأصيل عند الأستاذ كولن.

الصفة الثالثة، العلم: وهو أكثر المفردات

تكراراً في المتن المدروس، حيث وردت ٤١ مرة بصيغه الاشتقاقية المختلفة، ولم يأت منها ما هو متعلق بالعلم الإلهي إلا واحداً، كما لم يأت منها في صيغة الفعل إلا واحداً. وقد يعلل هذا العدد الكثير من الموارد بأن وراثه العلم كما أشرنا أعلاه قد خصها القرآن الكريم بعناية خاصة، وجعلها أهم ميراث للأنبياء والصالحين. والحقيقة أن هذه الموارد التي استعمل فيها الأستاذ فتح الله كولن لفظ العلم ومشتقاته، تقدّم تصوراً تجديدياً مهما لنظرية العلم والمعرفة العلمية في الإسلام، ولنظرية التعليم وتطبيقاتها في الحضارة الإسلامية، في أفق توضيح الطريق أمام وراثي الأرض، ليملؤها علماً صحيحاً وتعليماً راشداً.

ملاحظات في نظرية العلم والمعرفة العلمية
أولاً: إن "العلم بُعْدٌ من أبعاد الدين" كما يقول الأستاذ فتح الله كولن، ومنه فلا وجود لصراع بين المعرفة العلمية وطبيعة الدين. (وفي كل مكان يسير

بالطبع العشق الإلهي، وبيان ذلك عند الأستاذ فتح الله كولن من زوجية الفكر والحركية:

ففي الجانب الفكري: يرى الأستاذ فتح الله كولن أن التجربة يجب أن تمر من مصفاة العقل، والعقل يجب أن يسلم نفسه للفتنة العظمى، والمنطق ينبغي أن يقع في حال الحب عينه، والحب ينبغي أن ينقلب إلى العشق الإلهي. فبهذا النظر يكون العلم بُعْدًا من أبعاد الدين وخادماً له، والعقل طيف نور يصل به الإلهام أينما يشاء، والمكتسبات التجريبية منشوراً يعكس روح الوجود... ويصدق كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني.

وفي الجانب الحركي: يرى الأستاذ فتح الله كولن أن العشق "يُعد أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد" وأننا "بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق، في فهم جديد وطري، لتحقيق انبعاث عظيم؛ فما من حركة أو حملة باقية باعتبار نتائجها، من غير العشق... وخصوصاً إن كانت الحركة أو الحملة ذات امتداداتٍ إلى العقبى وأبعاد ما وراءها". إذن بهذا السبب اعتبر الأستاذ فتح الله كولن تجديد الحركة التاريخية للمسلمين إقامة لصرح الروح، ووصف الذين يحملون على عاتقهم مسؤولية هذا التجديد بأنهم "أطباء المعنويات القادرين على تشخيص بؤسنا الداخلي والخارجي ومداواته". ومرشدون صادقون مشدودون إلى الأخرويات من غير انقطاع (أنفاسهم). لأن هذا التجديد الحركي الشامل "يرتبط أولاً وقبل كل شيء بالابتعاد عن أثقال

نحن لسنا بحاجة إلى التفتيش عن شيء أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعالمنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية.

الدين مع العلم يداً بيد).

ثانياً: إن وسائل المعرفة العلمية متنوعة ومتعاونة، فلا انفصام بين التجربة والعقل والمنطق والعرفان، بل تتضافر كلها في حياة وارث الأرض على بلوغ الحقائق وتفعيلها.

ولذلك يُصدّر الأستاذ فتح الله كولن هذه الصفة من صفات وارثي الأرض بقوله: "الوصف الثالث لوارث الأرض هو التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والوجدان"، ويعلل الأستاذ فتح الله كولن هذا الشمول والتنوع في مصادر المعرفة ووسائلها بمفهوم القراءة، قراءة الكتاب المنظور (وهو الوجود) وقراءة الكتاب المسطور (وهو القرآن العظيم)، كما سيأتي بيانه بإذن الله.

ثالثاً: الدقة والنسبية: فوارث الأرض حين يمارس سياحته الإيمانية لا يكف عن التدقيق في البحث في كل شيء في الوجود. إنه كما يقول الأستاذ فتح الله كولن: "يُنقَّب خمسين ألف مرة عن الوجود وما وراء ستار الوجود، ويرشَّح الأشياء والحوادث خمسين ألف مرة في الإنبُّيق^(١)، ويصر على طرُق كل باب، ويبحث عن وشائج المناسبة مع كل شيء" فإذا وجد نفسه عاجزاً عن إدراك أمرٍ ما وهو سائر في طريق البحث المدقق

المنقَّب، فإنه لا يكسل ويتراجع، كما لا يتنطع ويدعي ما ليس له، بل "يكتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي استحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير"، وهذه هي الأخلاق العلمية التي تقوم على التواضع والاعتراف بالقصور والنسبية مع الإصرار على الاستمرار في طلب العلم والبحث العلمي.

رابعاً: بناء مجتمع العلم: فالتوجه إلى العلم بهذه الخصائص فيه خلاص للبشرية جمعاء، في الوقت الذي انجرفت فيه وراء فرضيات غامضة مظلمة. إن الدخول إلى عصر العلم يعني أن تستمد الجماعة الوارثة للأرض قوتها البنائية من العلم، بعد أن صار العلم كما يقول الأستاذ فتح الله كولن استناداً على النورسي: يمتلك الحكم والقوة. إن هذا يعني عودة عصر العلم والبيان من جديد. إن بناء مجتمع العلم يتطلب منا:

- إمرار العلم من منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله عملياً والإفادة عنه بشتى الوسائل.
- توقيير رجال العلم.
- توحيد التوجهات والأهداف.
- عدم الخلط بين المعلومة والعلم، فالعلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالم بها رياضي.
- عدم الخلط بين العلم والفلسفة. حيث يشن الأستاذ فتح الله كولن هجوماً قوياً على الفلسفات الغربية التي اكتسحت عقول الشباب وصارت ألعاباً يُتسلَّى بها ويتصارع عليها، مثل الماركسية والدوركهيمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتى، بدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنيتهم.

يقرر الأستاذ فتح الله كولن أن الوسائل الشرعية ضدها الوسائل الشيطانية. وعليه، "لا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية ألبتة". فالغاية لا تبرر الوسيلة أبداً.

www.nesemat.com

من هذا الفراغ فائدة جمّة، فافتتحو المدارس بنشاطٍ في كل زاوية من زوايا الوطن، ولقّحو أجيالنا باللّقاء الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن استعداداً وقابلية، من شغل مقاعد الدراسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. وكانت النتيجة، أن سلمت لهذه المدارس الأدمغة الطرية بلا توجّس أو قلق، لتقدم لها الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنسية والعادات والأعراف الإنكليزية، وألعاب الإيديولوجيات الفلسفية التي شتت الشباب عن العلم والتفكير العلمي الذي يجمعهم على البناء. ثم كان من الأعراض الخطيرة للخلل تلوّخ اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. ومن أعراض الخلل أيضاً: أن مؤسسات التعليم فعلت نفس ما فعلته الأسرة والشارع وأوساط الفنون، حيث نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذة والموازن الفاسدة، فقلبت رأساً على عقب كل شيء، وصارت الأناثية أساس التفكير والتخطيط بدل المبدئية والجماعية. وبالتالي: حلت القوة محل الحق والإرادة والفكر الحر. تلك أعراض مرتبطة بالنظام التعليمي التغريبي،

- ضرورة الانفتاح على العلم والبحث العلمي واستشعار التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. وهذا عمل لا يمكن أن يقوم به إلا "أولو العزم من العباقرة"، وبما أن العلوم اليوم شهدت توسّعاً كبيراً جداً في التفرّيعات بحيث يعجز الفرد الفريد عن حمل العبء فيه مهما كان عبقرياً، فقد حلّت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء العبقري. أي لا بد من "جماعة علمية" تفتح الطريق نحو مجتمع علمي. لذلك فمن خصائص ورثة الأرض أنهم منظمون في حياتهم العلمية كما يقول الأستاذ فتح الله كولن. إذن "لا بد من تحقيق تجددنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقّح عقول شبابنا بالتفكير العلمي، وذلك سيؤدّي إلى تفاعلهم واندماجهم مع الفكر والعلم، كما فعلنا

تشخيص الخلل وطريق إصلاحه في نظرية

التعليم وتطبيقاتها

أما في نظرية التعليم وتطبيقاتها في الحضارة الإسلامية: فإن الأستاذ فتح الله كولن يخصص فقرات مهمة يوجز فيها وضعيّة هذا التعليم وطريق الخروج من أزمتته. ويتضح ذلك من خلال أمرين: الأمر الأول: تشخيص الخلل: فالخلل في تاريخنا القريب يتلخص في فكرنا العلمي ونظامنا التعليمي الذي اقترب رجال التغريب إجراماً حقيقياً في حقّه، حيث وقع تزلزل في توقير رجال العلم، وتشتت في التوجهات والأهداف، واختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة. واستفاد الأجانب المقيمون في بلادنا

كانوا وراء أيام العمران المديدة حتى اليوم، وسيكون هؤلاء ممثلين لحركات الإعمار والإحياء الآتية غداً. وستحقق هذا التمثيل باستنباط نظريات حقوقية جديدة من مصدري الكتاب والسنة لمعالجة المستحدثات والتوقعات المستقبلية، وتزيين أفكارهم بآراء العالم الجديد.

فالدين والتكامل والدقة أبعاد أساسية للمعرفة العلمية المطلوبة في الجماعة الوارثة.

الصفة الرابعة، المراجعة والتقويم: ورد هذا المصطلح لفظاً ثلاث مرات فقط، ولكنه ورد مفهوماً عدة مرات من خلال مفاهيم اصطلاحية أخرى تتقاطع معه دلاليًا في متن الأستاذ فتح الله كولن المدروس هاهنا. ومن أهمها مفهوم القراءة، ومفهوم المطالعة. ويحدد الأستاذ فتح الله كولن معنى هذه الصفة من صفات وارث الأرض بقوله: "هو إعادة النظر في قراءته للكون والإنسان والحياة، وبالتالي مراجعة تصوراتهِ الصحيحة منها والخاطئة".

ويقسم الأستاذ كولن هذه الصفة إلى عناصر ثلاثة: العنصر الأول، القراءة: ويعني بها الأستاذ فتح الله كولن القيام بمطالعة مزدوجة لكتاب الله المسطور، وهو القرآن الكريم الذي هو "بيان الله سبحانه النابع من صفة الكلام الجليلة"، ومطالعة كتاب الله المنظور، وهو الكون والإنسان والحياة، لأن "الكون كتاب فتحه الله تعالى أمام العيون ليراجع باستمرار. وكل من الكتاب المسطور والكتاب المنظور ينطق بحقيقة واحدة، ينبغي على وارث الأرض استكشافها، ورؤية طرق التوافق والانسجام

يتحدث الأستاذ فتح الله كولن عن سائح الإيمان فيصفه بأنه "يعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء".

ولكن ثمة أعراض ترتبط بالنظام التعليمي التقليدي المدرسي أيضا: "ذلك لأن التعليم التقليدي لم يزد على ترداد مسلماته الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلت على الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكئة (الزاوية) دفنت نفسها في الوجدانيات تمامًا، والثكئة أظهرت القوة وحدها وزمجت بالقوة وحدها... في تلك المرحلة، هيمنت الفلسفة المدرسية (Scholastic) على التعليم التقليدي ولم يُتنفس إلا هواءها، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لغلغ أبوابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأسًا على عقب، وانقلعت شجرة الأمة لتهوي على الأرض..."

الأمر الثاني: إصلاح الخلل: لا بد من وجود من يسميهم الأستاذ فتح الله كولن بـ "عمال الفكر الذين يكدون لبناء مستقبلنا". وهم القادرون على إنجاز المهمة التاريخية المتمثلة في تحقيق تجددنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقيح عقول شبابنا بالتفكير العلمي، وهم بذلك يجددون في الوظيفة الحقيقية للنظام التعليمي، وذلك جزء لا يتجزأ من حركة الإعمار والإحياء التي يحملونها على عاتقهم. لذلك يرى الأستاذ فتح الله كولن أن هؤلاء

على مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية -إلى جانب دوافعهم الحركية- لكي تنصت المحركات التاريخية التي ننشئ بها حياتنا الدينية والوطنية إلى صوت الإسلام كَرَّةً أخرى.

www.nesemat.com

فيها، ويعمل بمقتضاهما: "فالله سبحانه وتعالى يكافئ مَنْ يدرك كلا الكتابين ويحوّل ذلك الإدراك إلى واقع عملي، ثم ينسج حياته كلها على هذا المنوال؛ بينما يعاقب مَنْ يهملهما ويتغاضى عنهما بل ولا يفسرهما تفسيرًا صحيحًا ولا يحولهما إلى واقع".

العنصر الثاني، القيم الإنسانية: فالمراجعة تقويم إنسانية الإنسان، بحيث لا ينبغي تقويمه برصيده المادي، وإنما برصيده من القيم الإنسانية، أي "بالتحري عن الأعماق الإنسانية الحقيقية في الشعور والفكر والشخصية".

العنصر الثالث، الشرعية والحق: إذ ينبغي أن يكون الهدف مشروعًا وحقًا، وأن تكون الوسائل الموصلة إليه شرعية وحقّة. ويقرر الأستاذ فتح الله كولن أن الوسائل الشرعية ضدها الوسائل الشيطانية. وعليه، "لا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية ألبتة". فالغاية لا تبرر الوسيلة أبدًا.

إن مفهوم المراجعة يفتح على دالتين: الدلالة الأولى، دلالة العودة: فلا بد من العودة إلى الكتاب مسطوره ومنظوره بحثًا عن الانسجام، وتوجيهها للعمل كما تقدم. وهذه دلالة جلية من سياقات استعمال اللفظ، ومن قول الأستاذ فتح الله كولن بصراحة: "هاتان المحجّتان البيضاوان، هما لأرباب القلوب منبع العشق والشوق ومَنجَم الجذب والانجذاب. فلن يعود خاليًا من يراجعهما بصفوة الحس وحافظ الاحتياج، ولن يموت أبدًا من يلجأ إليهما".

الدلالة الثانية: دلالة التصحيح: إذ الهدف من

هذه العودة المستمرة إلى مطالعة الكتابين، هي تصحيح أخطاء الذات وتعديل السلوك، وهذا بين مما تقدم في تعريف الأستاذ فتح الله كولن لهذا الوصف الرابع لوارثي الأرض، حيث استعمل لفظ المراجعة مضافًا إلى التصورات الصحيحة والخاطئة (مراجعة تصوراتها الصحيحة منها والخاطئة).

القراءة والقيم والشرعية (الحق): هي العناصر المفهومية للمراجعة.

الصفة الخامسة، حرية التفكير: يرى الأستاذ فتح

الله كولن أن الوصف الخامس للوارث، هو أن يكون حرًا في التفكير وموقرًا لحرية التفكير. وقد ورد لفظ الحرية ١٠ مرات؛ وقد جاء نصف هذه الموارد موصولًا بالفكر أو التفكير، مما يدل على أن الحرية مفهوم شامل، وقيمة إنسانية ضرورية لبناء صرح الروح من جديد. وهذه أولى الملاحظات. فإنسانية الإنسان رهينة بتذوقه حس الحرية. ومتى فقدت الحرية ضعفت الشخصية وتراجعت القدرة على التطور والتجديد، وحلت الأناية محل التفكير الجمعي المبدع والقوة محل الحق والإرادة والفكر الحر. وليس المقصود بالحرية عند الأستاذ فتح الله التحرر من قهر الجماعة الجائرة فقط، بل كذلك تحرير الروح من

الكرامة بالصالحين إلى الكون كله، في انسجام وتوافق مع الخلق "أجمعين" الذين يسجدون لله تبارك اسمه، وهذا التكامل أو التوافق مع سنن الكون هو من أهم مقومات التصور الإسلامي للإنسان الصالح. إذن فالوجود الإنساني الحقيقي تبدأ دورته من هذه المجموعة الصالحة التي أخذت الخلافة بالتمثيل لا بغيره، فاندفعت جذورها في أعماق الكون، ومنها ارتفعت شجرة الصلاح لتمتد في آفاق الكون إلى الآخرة. وقوام جمعها الصالح اجتماعها على ما يسميه الأستاذ كولن بالشرعية الفطرية، وهي ناتجة عن مجموعة من التصورات والمبادئ المأخوذة من مجموعة من القوانين الإلهية المأخوذة من كلام الله عز وجل. ويبدأ الانحراف في الجماعات البشرية بالتخلي جزئياً أو كلياً عن هذه الشريعة الفطرية، وبالتنازل جزئياً أو كلياً عن تجلياتها في التصورات والمبادئ التي يحملها الناس، فيؤدي ذلك إلى تراجع الجماعة المسلمة وتآكل كيانها وتراجعها عن قيادة العالم، وتجنح إلى التفريط في خاصيتها التمثيلية، أعني عن الوراثة الحقة.

لنقرأ النصين التاليين: "لقد وعد الله بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروحية المحمدية والأخلاق القرآنية، المنشغلون بالاتحاد والاجتماع، المدركون لأحوال عصرهم، المسلحون بالعلم والفن، المقيمون لميزان الدنيا والعقبى. الحاصل، هو وعد لعقبان الروح وللمعنى الذي يدورون به في مدار نجوم السماء النبوية، وسادتنا الصحابة الكرام. إنه سنة الله... ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

يلزم لوراثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر وفنونه.

قيود المادة والشهوات. إذن "فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر، وتفتح على العلم والبحث العلمي، وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة".

الصفة السادسة، الشعور الجمعي المسؤول

(الجماعة المبدعة): وهو ما عبر عنه فيما تقدم بالخاصية المعنوية والتشاوري والشعور الجمعي. وهذه أهم عناصر البعد الحركي في بناء الأمم والحضارات. إن مفهوم الشعور الجمعي أو الوعي الجمعي لا ينحصر في المعنى الدوركامي الضيق الذي يكون فيه الفرد تابعاً في تصورات وسلوكياته لإكراهات الجماعة، مهما كانت قيمها منحطة ومنحرفة. بل إن مفهوم الجماعة أوسع من ذلك في نصوص الأستاذ كولن. تبتدئ من نواة أولي العزم الصالحين، وتمتد صعوداً حتى تصل إلى الكون كله. وبين المرتبتين مراتب من المجموعات والفئات التي يقترن مجموع تصوراتها وقوانينها من الشريعة الفطرية فترشد، أو تبتعد عنها فتتحرف بدرجات متفاوتة أيضاً. ولقد ورد لفظ الجماعة بمشتقاته وتصاريفه عشرين مرة، ولما كانت الوراثة وراثة للأرض والكون كله، كان مفهوم الجمع يمتد أيضاً من هؤلاء الورثة الذين وصفوا في الآية

يعتبر الأستاذ كولن الرياضيات مصدرًا للنور. لا بالمعنى الديكارتي العقلي الجاف، بل بالمعنى الروحي الشامل: فهي تُضيء طريقنا في الخط الممتد من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعد أفق الإنسان.

ثمرة حركة ومجموعة من المبادئ والتصورات، كما أن بقاءه مرتبط باستمرار هذه الحركة وتلك التصورات". أما كيف ذلك؟ فالجواب عند الأستاذ كولن هو: "لذلك، ينبغي أن يستشعر وارثو الأرض الذين يخططون لإقامة عالم المستقبل، نوع العالم الذي يريدون إقامته، ونوع الجواهر اللازم استعمالها في إعمار هذا العالم.. حتى لا يضطروا هم بأنفسهم إلى هدم ما بنوه بأيديهم من قبل. إن جذور المعنى وأصول الأسس لألف سنة من حياتنا -نحن- معلومة ومعروفة. وعلى مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية -إلى جانب ودافعهم الحركية- من أجل أن تنصت المحركات التاريخية التي ننشئ بها حياتنا الدينية والوطنية إلى صوت الإسلام كَرَّةً أخرى، وتلتقط زاوية نظره وتجس نبضه وتستمع إلى وجيبه، بالاستفادة القصوى من المرونة والامتداد العميق، والعالمية في إعلاء بناء هذه المحركات مع الحفاظ على الكتاب والسنة وصَوَافِي اجتهادات السلف الصالح، وحسب مدارك العصر وأسلوبه".

إن الخطوة السادسة لورثة الأرض أنهم ينشرون الفهم الصحيح في المجتمع المسلم لربطه دومًا بمصدر القوة والإبداع في حياتهم: القرآن والسنة. ثم التحرك

تَحْوِيلًا ﴿فاطر: ٤٣﴾ سَنَّةً ثابتة "وشريعة فطرية" لن تتغير". "فيلزم لورثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر وفنونه. ولنتذكر دائماً أن المجتمعات التي لا تلتفت إلى "الشريعة الفطرية" المتجلية من "القدرة" و"الإرادة"، وإلى "مجموعة" القوانين الإلهية الظاهرة من صفة "الكلام" في الكائنات، وإن الأمم والشعوب التي تتعرض إلى التبدل داخلياً في حياتها المعنوية، مصيرها إلى الخذلان غداً، مهما كانت ظاهرة اليوم. هو ذا التاريخ -وما أشبهه بمقبرة للأمم المنقرضة- يصرخ عالياً بصوت الحقيقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١). "فلنسع مرة أخرى في إثبات أننا وارثو الأرض الحقيقيون بفهم الإسلام، مصدرنا الكافي لانبعاثنا المادي والمعنوي، كما هو في أصله، ثم بالانخراط في جموع عباد الله الصالحين: السالمين المتينين عاطفة وفكرًا وحسًا وشعورًا وإرادة، الثابتين القائمين على إعلاء كلمة الله، المنظمين في حياتهم العلمية... الموثوقين في سلوكيات العمل، المستقرين في شخصياتهم، القادرين على دحر نوازعهم النفسانية، الموفقين إلى ارتفاع القلب والعقل".

والقاعدة العامة هي: "نحن نلخص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا الحقيقي لا يتم إلا عبر الحركية والفكر... حركية وفكر قادران على تغيير الذات والآخرين. والواقع أن كل كيان

اعتبر الأستاذ كولن تجديد الحركة التاريخية للمسلمين إقامة لصرح الروح، ووصف الذين يحملون مسؤولية هذا التجديد بأنهم "أطباء المعنويات القادرون على تشخيص بؤسنا الداخلي والخارجي ومداواته.

nesemat.com

الرياضي تعليلاً تاريخياً وفكرياً:

أ- فمن الناحية التاريخية: كانت الرياضيات عند كل الأمم أساس النهضة، ويضرب لذلك مثال الأمم القديمة في آسيا، ومثال الأمم الغربية الحديثة. فلقد "كشفت الإنسانية في تاريخها كثيراً من المجاهيل والمغلقات بعالم الرياضيات المفعم بالأسرار".

ب- ومن الناحية الفكرية: تعتبر الرياضيات أفضل طريق لإدراك التناسب أو المناسبة بين البشر وبين عالم الأشياء. ونحن نعلم أن مفهوم النسبة أو التناسب من أهم نظريات الرياضيات. تُعلّمنا الرياضيات ألا مكان للعبث والصدفة العمياء في هذا الكون، وأن كل دقيقة من دقائق الزمان والمكان والأحداث تسير في حركة منضبطة. ومن ثم فحركة الإنسان يجب أن تتأسس على النظام لا على الفوضى، ولهذا السبب خصص الأستاذ مقالين لمفهوم النظام في هذا الكتاب، يحتاجان لوقفه خاصة.

مهمة الرياضيات -على هذا المستوى الفكري- توضيح الأشياء، لأن الرياضيات يعتبرها الأستاذ كولن مصدرًا للنور، لا بالمعنى الديكارتي العقلي الجاف، بل بالمعنى الروحي الشامل: فهي على حد قوله "كمصدر نور تُضيء طريقنا في الخط الممتد من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماق عالم الإمكان الذي يعسر إعمال التفكير فيه، وتوصلنا إلى غاياتنا". فنحن نعلم أن الرياضيات تشتغل في المجرد، وتطير بك في عالم من الكائنات الرياضية اللامتناهية، لتُعلّمك أن عالم الإمكان ليس محدودًا بقيود الجسمانية، وأثقال المادة المباشرة

على هذا الأساس الفكري السليم، حركة اجتماعية حضارية صالحة لبناء الحضارة الإنسانية الصالحة التي تنسجم وتتوافق وتتناسب مع هذا الكون الساجد لله تبارك اسمه. وهذا التناسب هو ما يلفت النظر إلى الخصلة السابعة.

القانون (الشريعة) والمسؤولية والصلاح: أبعاد الشعور الجمعي عند الأستاذ كولن.

الصفة السابعة، الفكر الرياضي: وردت كلمة الرياضيات ١٠ مرات في النص. ٩ منها في مقال "ونحن نقيم صرح الروح" في مقال، وواحدة في الحركية والفكر. وليس غريباً أن يكون الاشتغال بالفكر الرياضي جزءاً من عملية البناء، لأن هذا العلم على الخصوص حظي باهتمام خاص من قبل المسلمين. فهو علم حاضر في كل تفاصيل العقيدة والشريعة عند المسلمين، فالله سبحانه "أحصى كل شيء عدداً"، والقرآن الكريم ذكر أصول الأعداد كلها، صحيحها وكسورها، وعلم الفقه لا يستغني عن النظريات الرياضية وعملياتها الأساسية في حساب الوصايا وحل أعقد أمورها بالكسور والجبر، وكذا في مسائل الزكاة، فضلا عن الحاجة إليها في المعاملات المدنية من بيوع وشراء ووزن العملات ونحو ذلك. ويعلل الأستاذ كولن الحاجة إلى الفكر

ليس غريباً أن يكون الاشتغال بالفكر الرياضي جزءاً من عملية البناء، لأن هذا العلم على الخصوص حظي باهتمام خاص من قبل المسلمين. فهو علم حاضر في كل تفاصيل العقيدة والشريعة عند المسلمين.

www.nesemat.com

الصِّمَاء، وأن الفكر الإنساني له من الآفاق والإمكانات حظاً وافراً يمكنه من التحرر من تلك الأثقال، فيشعر أنه يسمو إلى اللانهاية. إن الرياضيات تقربنا من جلال الله ونوره. بقدر ما تُعلمنا من الانسجام والتوافق مع الكائنات الأخرى.

وهو أمر عظيم، ولهذا زاغ فيه الزائغون من المتصوفة بطريقتين:

الطريق الأول: التصرف المفرط للحروفين كما يقول الأستاذ كولن، لأنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر طيباً. لقد مزجوا الرياضيات بأعمالهم السحرية. ولكن وراثه الأرض - وهم أهل الصلاح - يحيون بفكرهم الرياضي بين إدراك جمالية الإحساس بالتناسب مع الكون، وجلال النور الإلهي العظيم الذي يحرر المسلم من ضيق المادة إلى سعة الفكر والروح.

الطريق الثاني: النقص الحاصل بسبب رياضية الأوراد والأذكار: ويدعو الأستاذ كولن إلى إصلاح هذا النقص "بتعميق الكمية في عبادتنا إلى النوعية، وبإطلاق النقص الحاصل في رياضية الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية والخلوصية، وبالمعرفة والاعتبار واليقين في دعواتنا ومناجاتنا وبتنا إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا". أي ليس المهم في هذه الأوراد الجانب الكمي العددي فقط، بل معانيها الباطنية الروحية. ومناطق كل ذلك العودة إلى مصادر طاقتنا، وهي على حد قول الأستاذ كولن: "موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمفيد أن نحيط فهماً بهذا المصدر والروح كما هو في ثرائه الأول". التوضيح والتناسب والنظام: هي السمات التي

تجعل من العقل الإسلامي أجدر العقول بالتفكير الرياضي.

الصفة الثامنة، الرؤية الفنية: وهو وصف لا

يطيل الأستاذ كولن فيه ضمن حديثه عن هذه الصفة بالذات، حيث يقول: "بناءً على ملاحظات معينة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا". ولكن القراءة المتأنية لموارد اللفظ في هذا المتن المدروس، تبين أنه ذكره بنفس العدد المخصص للفكر الرياضي: أي ١٠ مرات. وهذا العدد، وإن لم يكن مقصوداً من قبل الأستاذ كولن، ولكنه يدل على التوازن العميق في ذهنه بين العلم الرياضي والعمل الفني. ونحن نعلم أن نظريات تصنيف العلوم عند الأقدمين كانت تضع بعض الفنون كالموسيقى ضمن ما كان يُسمى بعلوم التعاليم، وهي أربعة علوم: علم العدد (علم الحساب) والهندسة، وهما علمان رياضيان بالأصالة، وعلم الفلك (أو الهيئة) وعلم الموسيقى، وهما علمان رياضيان بالتبع، فحساب الإيقاعات الموسيقية يقوم على زمان الإيقاع، ويتوقف ذلك على نظرية الكسور ونظرية التناسب الرياضييتين. وكانت فنون أخرى علومًا دقيقة كالعمارة

إن "العلم بُعدٌ من أبعاد الدين" كما يقول الأستاذ فتح الله كولن، ومنه فلا وجود لصراع بين المعرفة العلمية وطبيعة الدين. وفي كل مكان يسير الدين مع العلم يداً بيد.

www.nesemat.com

قوة لورثة الأرض: ويتبين هذا من قوله: "لقد وعد الله بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروحانية المحمدية والأخلاق القرآنية، المنشغلون بالاتحاد والاجتماع، المدركون لأحوال عصرهم، المسلحون بالعلم والفن، المقيمون لميزان الدنيا والعقبى". ولذلك وجب على ورثة الأرض إحياء علوم العصر وفنونه، وتصدُّر الأمم فيها جنباً إلى جنب مع عمليات إحياء الحياة بالإسلام.

الملاحظة الثانية: أن البيان من أهم مظاهر الفن، إن لم يكن مظهرها الأساس. ويستلهم الأستاذ كولن هنا فكرة النورسي القائلة بأن البشرية تتجه اليوم بكل طاقتها إلى العلم والفن، وأن الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة صارت موضوعاً في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع. وبالتالي نحن أمام عودة عصر العلم والبيان من جديد. إذن لا بد لورثة الأرض من اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنياتهم، وتطوير متعلقات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام.

الملاحظة الثالثة: أن الإيمان أساس سمو كل النشاط الروحي للإنسان بما فيه العلوم والفنون والحياة كلها، ولذلك إذا ضاع الإيمان آلت كل أنشطة الفكر والتصور والفن إلى الابتذال. وهذا ما حصل عندما تم تسليم مدارس المسلمين لعملية التخريب الممنهجة، فنَفَخَتْ في أرواحهم الأفكار الشاذة والموازين الفاسدة، فقلبت رأساً على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء. لذلك وجب تعميق الإيمان وضبط الصنعة والتقنية جنباً إلى جنب مع الفن. الملاحظة الرابعة: أن مهمة إعمار الأرض التي

التي كانت علماً هندسياً، وعلماً العروض أيضاً كان علماً رياضياً لأن العلاقات بين حركات شطري البيت وسكناتها محسوبة بتناسب رياضي... فلعل الأستاذ كولن يستحضر هذا التراث العلمي الكبير، حيث أبدعت الأمة الإسلامية في الفنون بمقدار إبداعها في العلوم، خاصة وأنها نلمس هذا الترابط بين العلم والفن واردةً في أغلب سياقات الاستعمال.

ففي خمسة مواضع يرد العلم معطوفاً على الفن أو في نفس سياقه. وفي أربعة مواضع تأتي ألفاظ أخرى تدل على العلم، أي أنه يرد مفهوماً لا منطوقاً، كاستعمال ألفاظ الفكر والصنعة والمعرفة، أو لفظ التعليم، في قوله "مؤسسات التعليم وأوساط الفنون أفسدت الأرواح وقلبت الموازين"، واستعمال عبارة "استنباط نظريات حقوقية جديدة من مصدري الكتاب والسنة". وهذه ممارسة علمية بالطبع. وأما الموضوع الأخير فهو الموضوع العام الذي استعمل فيه التركيب الإضافي "الرؤية الفنية". وبالطبع فإن مفهوم الرؤية يحيلنا إلى الإطار النظري التصوري الموجه لكل النشاط الروحي للإنسان علماً كان أو فناً أو ممارساتٍ عملية وأنشطة اجتماعية أو نحو ذلك.

إن كل هذه الأمور تفيدها بالملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: أن الفن كالعلم سلاح ومصدر

نحن أمام عودة عصر العلم والبيان من جديد. إذن لا بد لورثة الأرض من اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنيتهم. وتطوير متلفيات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام.

www.nesemat.com

ورثها الصالحون تتطلب على المستوى الفني كما يقول الأستاذ كولن: "تطوير متلفيات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام، وتركز روح الأمة وشعورها في بؤر الإسلام وترتبط بأحاسيس التجريد، وعجن ثقافتنا الذاتية المستوعبة للدين والدنيا والموروثه من خزائن ألف سنة متصله". فالعالمية في الفن تعني امتداداً في الروح والشعور المشبع بالإيمان المجرد عن أثقال الشهوات العابرة، وامتداداً في الزمان الماضي، فيكون استمراراً تجديدياً للتجارب الفنية المتراكمة عبر مئات السنين وامتداداً في المكان بتصدر فنون العصر كلها بعد عجنها بتلك الثقافة الذاتية البالغة الغنى.

فهو البيان والتقنية والعالمية: موضوع وصنعة وامتداد يشكلون ظللاً يفيء إليها العمل الفني المطلوب.

٣- علاقات وامتدادات

هذه إذن مجمل المفاهيم التي تُشكّل امتدادات يصلح كل مفهوم منها أن يكون ميداناً لدراساتٍ مفهومية ومصطلحية عميقة في فكر الأستاذ كولن: **المفهوم الأول، الإيمان الكامل: الكمال، والتفكير، والقوة: هي: ثلاثية المدخل الإيماني إلى وراثه الأرض.**

المفهوم الثاني، العشق: العرفان والشوق والشمول: مداخل العشق الأصيل.

المفهوم الثالث، العلم: الدين والتكامل والدقة: أبعاد أساسية للمعرفة العلمية المطلوبة في الجماعة الوارثة.

المفهوم الرابع، المراجعة: القراءة والقيم والشرعية (الحق): هي العناصر المفهومية للمراجعة. **المفهوم الخامس، حرية التفكير: التفكير، والتجديد، والانفتاح: مسالك الحرية وآلياتها.** **المفهوم السادس، الشعور الجمعي المسؤول: القانون (الشرعية) والمسؤولية والصالح: أبعاد الشعور الجمعي.**

المفهوم السابع، الفكر الرياضي: التوضيح والتناسب والنظام: هي السمات التي تجعل من العقل الإسلامي أجرد العقول بالتفكير الرياضي.

المفهوم الثامن، الرؤية الفنية: البيان والتقنية والعالمية: موضوع وصنعة وامتداد يشكلون ظللاً يفيء إليها العمل الفني المطلوب، وهي تمثل في نهاية المطاف شبكة ومفاهيمية شديدة الترابط، تحتاج إلى جهود لدراساتها وتفكيك محتوياتها، نأمل أن تيسر لنا سبل ذلك والله ولي التوفيق. ■

الهوامش

(١) كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" للأستاذ فتح الله كولن هو أحد أهم الكتب التي ترجمت إلى العربية والتي بلغت ٣٢ كتاباً حتى الآن، طبع هذا الكتاب طبعات عديدة عن دار النيل للطباعة والنشر بالقاهرة، كما عقدت حول الكتاب ندوات ولقاءات علمية مختلفة أسفرت عن دراسات متعددة حول محتوى الكتاب ومفاهيمه المختلفة. (المحرر) (٢) الإبتيق: جهاز تُقَطَّر به السوائل، ويجمع على أنبايق. انظر قاموس المعاني.

"الغرباء" من العمق الإنساني إلى صياغة عالم جديد



محمد ياسين

يكشف الكاتب في قراءته لكتاب "الغرباء" للأستاذ فتح الله كولن عن الهم الذي يشغل الأستاذ كولن، والقضية التي نذر لها حياته وهي قضية الإنسان وبناءه الداخلي وتغييره من الأعماق، ورغم أن "قراءة ما كتبه الأستاذ في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية لاتعدو أن تكون إمَّا ضرباً من ضروب الجنون أو لوناً من ألوان الايمان" -على حد ما جاء في مقدمته- فإن الكاتب قد ولج عالم الكتاب واستخرج من مجموع مقالاته ثلاثة محاور جعلها منطلقه في الحديث عن محتوى الكتاب وهذه المحاور الثلاثة هي: الأئين والألم، التجديد والعمل، الاستشراف والأمل.

وقد تعجب من أن هذه المحاور الثلاثة تجتمع كلها في المقال الواحد في آنٍ واحد، وفي ذات الوقت تتفرَّق على المقالات، كلُّ على حدة. ومن نظرةٍ أخرى فإن هذه المحاور الثلاثة تعمل في محاور أخرى متداخلة ومتضمّنة في الثلاث الأوّل وهي: الإنسان الذي هو عنصر البناء، الطريق الذي يجب أن يسير فيه، إعادة صياغة العالم من جديد. ويرى الكاتب أن المقال ليس تحليلاً لمقالات كتاب الغرباء بقدر ما هو قراءة مساعدة لمن أراد الدخول إلى عالم الأستاذ كولن.

محمد ياسين عبد الحميد
أحمد من مواليد الجيزة
-مصر، بكالوريوس الهندسة
المدنية، جامعة الأزهر
٢٠٠٤م، ولسان أصول
الدين والدعوة، قسم الدعوة
والثقافة الإسلامية، جامعة
الأزهر ٢٠٠٨م. وماجستير في
الدعوة الإسلامية عام ٢٠١٧م
عن أطروحة بعنوان "تجربة
الشيخ فتح الله كولن الدعوية
دراسة نموذج لنهضة المجتمع
والأمة من خلال العمل
الدعوي". خطيبٌ ومحاضرٌ
حرٌّ في مجال الفكر الإسلامي،
ومدرب حر في مجال التطوير
والتنمية الذاتية والإدارية،
وباحث في فكر النهضة من
منطلق قرآني وإنساني.





مقدمة لا بدّ منها

ذكر أبو علي القالي في "الأمالي" أن
متمم بن نويرة قدم العراق، فأقبل لا
يرى قبراً إلا بكى عليه، فقيل له: يموت أخوك بالَمَلَا،
وتبكي أنت على قبر بالعراق، فقال:
وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيته
لقبرِ ثوى بين اللّوى والدكّادِكِ
فقلتُ لهم إنَّ الأسي يبعثُ الأسي
ذروني فهذا كلُّه قبرُ مالِكِ
فهو يبكي على كل قبر يراه، لأنه يتخيله قبر أخيه،
يكاد هذا البيت يخيلني وأنا أقرأ في فكر الأستاذ
كولن، فالرجل مشغولٌ بقضيةٍ محوريةٍ يتناولها من
كل جانب، ولا يترك فرصةً إلا ويؤكد عليها ويتحدّث
عنها بكل وسيلة وفي كل مناسبة. إنها قضية الإنسان
ذاته، هذا الإنسان الذي تمّ تشويبه ومصادرته،
يبكيه الأستاذ حيناً ويناديه حيناً ويرشده ويوجهه
في أحيان أخرى.

ولا شك أن قضية الإنسان وبناءه الداخلي وتغييره
من الأعماق هي محور الرسائل السماوية، وقد كان
الأنبياء الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - هم
النماذج العليا في هذا المضمار، وهم أصحاب الرؤية
الكونية الكاملة والشاملة في هذا السياق، تلك الرؤية
التي تحدّد موقع الإنسان في منظومة هذا الكون
ومكانه من الله ﷻ خالقه، ومكانته عنده كذلك.

لكن هذه الرؤية الرسالية الإنسانية تمّ تغييبها
لصالح رؤى وأيديولوجيات أخرى ترى في الإنسان
وسيلةً لاغاية، وترسّاً في ماكينة الحياة لامحرّكاً لها،

الأستاذ كولن مشغولٌ بقضيةٍ محوريةٍ
يتناولها من كل جانب ولا يترك فرصةً إلا
ويؤكد عليها ويتحدّث عنها بكل وسيلة وفي
كل مناسبة، إنها قضية الإنسان ذاته.

www.nesemat.com

أيديولوجيات استطاعت بمكر وخبث وعلى مدى قرون
عدة أن تحول الإنسان المكرّم إلى سلعة استهلاكية أو
كائن مستهلك في أفضل الأحوال ليس إلا.

يأتي الأستاذ فتح الله كولن محاولاً أن يُعيد لهذا
الإنسان وعيه بذاته، وإدراكه لحقيقة وجوده وجوهر
رسالته في هذه الحياة، ومن دون فهمنا لهذه الرسالة
المحورية في فكر الأستاذ لا يمكننا قراءته وفهمه حقاً.

الإنسان هو موضوع الأستاذ، ولا غرابة في هذا
من رجلٍ تشرب الخُطاب القرآني ووعاه، وأدرك تمامًا
أنَّ "المخاطب في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع
السموات والأرض بسعته المعنوية"

ورحم الله "إقبال" حين قال متحدّثاً عن الذات
الإنسانية حين تُحرق بنار العشق:

أمرها في الكون طرّاً تحكّم

حينما الذات بعشقٍ تحكّم

يدّها من قوّة الحق أثر

فإذا ما أومات شقّ القمر

قراءة الأستاذ جنونٌ وإيمان

على أنني يجب أن أعترف أن قراءة هذا الكتاب -
على وجه التحديد- تختلف عن غيرها من قراءة
كتب الأستاذ، ذلك أنني أزعّم أن ما يخطّه الأستاذ بيده
ويعكف عليه كتابةً وتنقيحاً هو أكثر ما يعبر عن

اليأس والإحباط، وتحويله إلى همّة ونشاط. ثم أنظر حولي فأجد الأمة التي يخاطبها الأستاذ في وادٍ آخر وعالمٍ موازٍ، لاتكاد تسمع نداءً أو تبصر طريقاً، وأجد نفسي مُحاطاً بمثبّطاتٍ، تجعلني أرى هذه النبضات من التجديد الواجب والعمل المطلوب كحلمٍ جميلٍ لاسبيلٍ إلى تحقيقه. وقبل أن يتملّكني ذلك الشعور البائس أراني أمام أنوار متوهجة من أشعة الأمل المتدفق، والاستشراف نحو مستقبل واعد، فتحدثني نفسي الأمانة بالسوء: أخشى أن يكون حملُ هذه الأمة كاذباً، فإذا بالأستاذ يقرعها بسياطٍ من الأدلة والبراهين الكونية والتاريخية والواقعية على أننا بإزاء ميلادٍ جديدٍ لأمتنا، وأن إرهابات هذا الميلاد الموعود بدتْ بوراقه من كل جانب، وأن فرسان الأمل ركبوا صهوة العمل نحو هذا المستقبل المشرق بإذن الله تعالى.

ألمٌ وتجديدٌ وأملٌ

فإذا ولجنا معاً إلى كتاب "الغرباء" وجدناه يحتوي على مقالات متفرقة، نُشرت على مدار مايقارب ٢٧ عاماً بداية من "كفكف دموعك يا صغيري" عام ١٩٧٩ وحتى "لعلنا نبعث من جديد" عام ٢٠٠٦. غير أن القارئ لمحتوى هذه المقالات ومضمونها يجد أنها في مجملها تدور حول محاور ثلاثة:

- الأئين والأمل

- التجديد والعمل

- الاستشراف والأمل

والعجيب حقاً أن هذه المحاور الثلاثة تجتمع كلها في المقال الواحد في آنٍ واحد، وفي ذات الوقت تتفرّق على المقالات، كلٌّ على حدة؛ فأنت تقرأ مقالاً

أعترف بأن جرعة كتاب "الغرباء" كانت فوق طاقتي على التحمّل، ذلك أن القارئ بمجرد قراءته لفكرٍ ما ينبغي أن يسأل نفسه مع كل فكرة يتلقاها: إذن ماذا؟

فكره ومعاناته وألمه ومعنوياته، لاسيما في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها أمتنا، ولعل من صدّر الكتاب وقدم له كان يعني هذا حين أكد أن: "قراءة ماكتبه الأستاذ في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية لاتعدو أن تكون إمّا ضرباً من ضرب الجنون أو لوناً من ألوان الايمان".

هكذا إذن: جنونٌ أو إيمان، نعم جنونٌ يفكك كل الأجزاء القديمة، ويكسر التقاليد البالية، ويهدم معابد أوثاننا وينسف حياتنا الاستهلاكية الرتيبة، وإيمانٌ يعيد تركيب هذه الأجزاء من جديد، ويبني مآتهدم على أسسٍ قومية، ويقوم عوج الحياة المعاصرة على أنوار الوحي وأشعة هدايات السماء.

وأعترف كذلك بأن جرعة هذا الكتاب كانت فوق طاقتي على التحمّل، ذلك أن القارئ بمجرد قراءته لفكرٍ ما ينبغي أن يسأل نفسه مع كل فكرة يتلقاها: إذن ماذا؟

أعترف أيّ وجدتُ في ثنايا خطاب الأستاذ قدراً هائلاً من الأئين كدتُ معه أن أتلاشى ويصيبني اليأس والإحباط، ثم مايكاد هذا الشعور ينتابني حتى أجدني أمام نوباتٍ متتابعةٍ من نبضات العمل والتجديد والإحياء قادرة على الانبعاث والنهضة من خلال خريطة عمل واضحة وأفكار برافة كفيّلة بتبديد

يبحث الأستاذ باكيًا عن فارس القلب وعاشق الحقيقة الذي يفتش عن حلول لجميع الألغاز، فيسأل كل جزء من أجزاء الوجود ليصبح شمسًا بعد أن كان ذرة، ويصير بحرًا بعد أن كان قطرة.

الشجاعة للاعتراف بهذا القحط. "بيكي غياب" الإنسان المُعاني الذي ينسى متعة ذاته ليمنح الحياة للآخرين. يبحث الأستاذ باكيًا عن فارس القلب وعاشق الحقيقة الذي يفتش عن حلول لجميع الألغاز، فيسأل كل جزء من أجزاء الوجود ليصبح شمسًا بعد أن كان ذرة، ويصير بحرًا بعد أن كان قطرة.

بيكي طريقًا زائفًا، مَشينا فيه باختيارنا: "طريق التقليد الأعمى للغرب الذي فقد البوصلة منذ زمن، فالغربي الذي حسبنا أن لديه مصباح حياتنا كان قد تمّدد في نعشه قبلنا بكثير.. يتألم من أجل الخداع الذي وقعنا فيه حينما وضعنا ثققتنا في غير موضعها، فكم من مرّة تبدى لنا في الأفق خيالٌ توهمناه هذا الإنسان المرتقب فحسبنا البغاث نسرًا، ووطنًا المقعدين المشلولين الإسكندر الأكبر، وبتأوه الأستاذ ألمًا من هؤلاء المشعوذين المحتالين، ويتحسر أسفًا على تلك الحشود المضلّلة المخدوعة، ويحذرنا أشدّ التحذير من فنّاني الحناجر الذين يرفعون عقائرهم بالكلمات المقدّسة، لكنها كلمات جوفاء لأثر للروح فيها.

ثانيًا: التجديد والعمل

يطول بكاء الأستاذ ويشتدُّ نحيبه حتى تظن أن البكاء هو كل ماملكه، فتستكين نفسك لهذا البكاء

قد تغلب عليه نبرة الأنين، لكنه لا يخلو من برنامج عملي واستشراف نحو مستقبل أفضل، وقد تقرأ مقالًا آخر يبشّر بأجبال جديدة، لكنه لا يخلو من التذكير بواقع أليم ينبغي أن يتغير، وهكذا.

ومن نظرة أخرى فإن هذه المحاور الثلاثة تعمل في محاور أخرى متداخلة ومتضمنة في الثلاث الأول وهي:

- الإنسان الذي هو عنصر البناء

- الطريق الذي يجب أن يسير فيه

- إعادة صياغة العالم من جديد

أولًا: الأنين والألم

البكاء والأنين هو وسيلة الأستاذ كولن إلى إحياء القلوب، وتحفيز المشاعر، وترقية الهمم، والشعور بالهم. وإذا كان سادتنا الصوفية قد جعلوا اليقظة والانتباه من رعدة الغافلين من أولى منازل السائرين، فإن الألم الذي يشعر به الأستاذ وبيته في ثنايا كتاباته ودروسه ومواعظه هو الزلزال الذي يجعل جدران الروح المنيعّة تتصدّع ليدخل إليها النور فيحيي موات القلوب والأرواح.

لكن يأتري لأيّ شيء يبكي الأستاذ؟ وعلى أيّ تطلّ يقف؟ وماذا يميّز بكاءه وألمه فيجعله حزنًا جسرًا وألمًا نبيلًا؟ ما الذي يبكيه الأستاذ؟

بيكي جفاف الروح والفكر عند إنسان هذا العصر؛ "بيكيه عندما أطفأوا عقله، وأطعموا قلبه لمعدته، فصار كائنًا استهلاكيًا فجًا.. بيكيه عندما صار ححيّة لنظم اجتماعية وسياسية تعلقت بعظمه ولحمه وأغفلت فؤاده ووجدانه.. بيكي قحط الرجال الذي أصاب مجتمعا، والأنكى منه أنه لم تكن لدينا

الفاعلية عند الأستاذ ليست إلا نبغاً ينساب من عالم الإنسان الفكري وعمقه الوجداني، والقوة التي شحنت أمثال صلاح الدين ومحمد الفاتح وألب أرسلان ليست إلا قوة الروح.

www.nesemat.com

إلا حين يتقلّب بين أهوال الموت والحياة خمسين ألف مرّة طول سني عمره، حين يتخلّص من ضغوط الـ "الأنا" هنا يكتشف الإنسان أن السعادة ليست في الضحك والسرور والمتع والملذات، بل السعادة الحقة في المعاناة من أجل هذا الاكتشاف وهو ما يسميه الأستاذ "العذاب المقدّس"، ذلكم هو "بلاء الهم" الذي لم يسلم منه عباد الله الأرفع شأنًا من أمثال الإمام أبي حنيفة وابن حنبل والرخسي وغيرهم كثير. وهنا يؤكد الأستاذ على أنك لم تأت إلى هذه الدنيا للمتعة واللهو -وهو المفهوم السائد في الحضارة الحديثة- بل سوف تُصهّرين -يا نفس- في بوتقة بعد أخرى، وتعرضين على النار مرة بعد مرة، وتعرضين لأشد أنواع المحن سنين وسنين لكي تتفتّق مواهبك الإنسانية.

د- البحث عن الحقيقة: فالإنسان المثالي -عند الأستاذ- هو الذي يستثمر مواهبه العليا كدحًا إلى الله ﷻ تحت أنوار الوحي، هو الذي يهوج عقله -في إطار بحثه الدائب- بألف سؤال وسؤال، ويواصل التنقيب عن الحقيقة بنهم عجيب؛ يبحث عن أجوبة للأسئلة الكونية الكبرى، الدنيا عنده (دار خدمة) وليست (دار مكافأة)، وبالتالي فسقف طموحاته في الدنيا محدود، وسقف تطلعاته إلى الآخرة لامتناهي، وتلك أحد معاني "الغرابة"، فالغرباء هم عشاق حقيقة سامية وناشرو رسالة نبيلة.

٢- أن يُدرك الإنسان طبيعة الطريق الذي يسلكه؛ فالطرق إلى الله ﷻ بعدد أنفاس الخلق، والطريق الحقيقي ظهر مع الإنسان، كما أن اللاتريق ظهر معه أيضا، "وهديناه النّجدين". ويضع الأستاذ

ظانًا أن قد قمت بالواجب وأدّيت ماعليك، فإذا به يفجؤك بمهمّة تنوء بحملها الجبال، إنها مهمة التجديد الدائم والعمل الدؤوب، فإذا كان سؤال البكاء والأين هو: ماذا جرى لأمتنا وإنساننا؟ فإن سؤال العمل والتجديد هو: إذن ماذا؟ وتتجلّى ملامح هذا التجديد وذاك العمل من خلال مجموعة مقالات كتاب "الغرباء" فيما يلي:

١- أن يدرك الإنسان -بدايةً- أنه في مهمة مقدّسة، وذلك يتأتى من خلال:

أ- الفاعلية: استنهاض الفاعلية أو ما يسميه الأستاذ (الروح الباعثة)، فالفاعلية -عنده- ليست إلا نبغاً ينساب من عالم الإنسان الفكري وعمقه الوجداني، والقوة التي شحنت أمثال صلاح الدين ومحمد الفاتح وألب أرسلان هي قوة الروح، تلك القوة هي التي ميّزت دخول الفاتح إسطنبول عن دخول قيصر روما.

ب- تحديد المهمة: والمهمة -هنا- هي مساعدة الأجيال الجديدة لكي تعرف ذاتها وتتوحّد مع روحها وتلك هي "المهمة السامية" التي يكتشف الإنسان من خلالها ذاته.

ج- اكتشاف الذات (العذاب المقدّس): فالإنسان في هذا الحياة في رحلة شاقة من أجل أن يكتشف ذاته ويعرف حقيقته، ولا يبلغ الإنسان الخلود الروحي

لا يمكن لقلوبٍ ميتة لم تكتوِ بأي ابتلاءٍ يوماً
ما، ولا لأرواحٍ جامدة لم تذقِ مرارة الامتحان
قط، أن ترتقي إلى أي أفقٍ إنساني، ولا أن
تمنح مجتمعها أيّ عطاءٍ إنساني.

www.nesemat.com

شرطين أساسيين لسلوك هذا الطريق الحق وهما: المبادرة إلى السلوك فعلاً دوغماً تسويق أو إبطاء، والعشق والاشتياق. فلكل طريق لذته، وله كذلك وعناؤه ومحنته، لاسيما هذا الطريق.

فالسالكون هذا الدرب بعشق واشتياق تذوب الجبال لهم قيعاناً مستوية، وينطفئ فيح جهنم إذا مرّوا بها. وهذه طبيعة الطريق كما يراها الأستاذ؛ المحنة مصاحبة له، فإنما تنمو النعمة في طرق تغدو فيها المحن وتروح، وتتأق السعادة بعد سيل من صنوف الحرمان، وتلك طبيعة الأشياء، فالإنسان خلق للمحن، وهو ابن سبيل مكابد، ولا مناص للعشاق المتيمين سالمي الطريق من البلبا والمحن، فذلك أساس في طريقهم. والحياة -عنده- سلسلة من الامتحانات، وأقسى هذه الامتحانات امتحان الإقصاء والتهميش جراً ماتحملة من رؤى إنسانية نبيلة، والأقسى منه أن يكون هذا الإقصاء على يد خلانٍ لانصيب لهم من الوفاء، فيتصدى لك من كنت معه في المسار ذاته، فيخذلك ويؤذيك، ومن هنا يؤكد الأستاذ كولن على ضرورة توطين النفس على طبيعة الطريق تلك، لاسيما وسط هذا العالم الذي يعتبر الخديعة ذكاءً، والتزمت ولاءً، والتعصب الأعمى التزاماً، فنسلم أنفسنا إلى صبرٍ جميلٍ، ونردد مع الشاعر قوله:

إن جاءني جفاً من جلالك

أو وفاءً من جمالك

فهما للقلب سواء

فلطفك حلّو وقهرك حلو.

ولكن ما ضرورة هذا الامتحان؟ وهل هو جزء

من طبيعة الطريق لا يتجزأ عنه؟ وما فائدته؟

يرى الأستاذ كولن أن هذا الامتحان ضرورة لابد منها في مدرسة الإنسانية، إذ بواسطته يتصق الإنسان ويعود إلى جوهره الفطري، ولا يمكن لقلوبٍ ميتة لم تكتوِ بأي ابتلاءٍ يوماً ما، ولا لأرواحٍ جامدة لم تذقِ مرارة الامتحان قط، أن ترتقي إلى أي أفقٍ إنساني، ولا أن تمنح مجتمعها أيّ عطاءٍ إنساني.

ومن هنا فإن فائدة هذا الامتحان تتجلى عند هؤلاء الغرباء الذين يدركون طبيعة الطريق، فيصير الامتحان سوطاً يلهب عزيمتهم، وإكسيرا يشحذ إرادتهم، فمع كل امتحان يتلألأون كالبلور، فمع أنهم تلفحهم عشرات المخاطر كل يوم، ومع كونهم أصحاب أنين متواصل وتأوهاتٍ ممتدة، لكن تفانينهم في هم الغير، يزيل غربتهم، فيفيضون بشراً وسروراً.

٣- نحو تجديد الذات والأمة معاً

وفق الأستاذ فإن تجديد الذات هو الشرط الأول للبقاء، فكل الوجود يسعى إلى تجديد ذاته، وعلى الإنسان بوجه خاص أن يجدد ذاته ليغدو جاهراً لفتح العالم، وإثراء العلوم بنور البصيرة، وتزويد التكنولوجيا بقيم الإيمان، لكنّ التجديد المقصود ليس مجرد الهيام بكل محدث جديد، أو الشغف بكل تقليعة مبهرة.

ويحدد الأستاذ مفهوم تجديد الذات بأنه: حركة

يؤكد الأستاذ كولن أن أمتنا تمر بفترة تغيرات اجتماعية شبيهة إلى حد كبير بالتحويلات البيولوجية عند الأحياء، وإزاء هذه التغيرات الاجتماعية أو الملتقيات القدرية، فإن الأمة تحمل في طياتها عوامل النهوض والازدهار، أو أسباب التدهور والانحدار. ذلك أن أفراد الأمة في هذه الحالات أمام أحد نمطين:

النمط الاول: أن يرددوا قميص "سيكولوجية الجماهير" ويصبخوا جزءاً من حشود لاعقل لها، ولايفكرون إلا بعقل الحشد، فيصيرون كياناً جماهيرياً منقادين لأمر الحشود، منصاعين لتوجيهاتها.

النمط الثاني: هو نمط "الوعي الجمعي" الذي ينبني على التعقل والتمحيص وملاحظة الحاضر والمستقبل معاً، ومعاينة الجزء مع الكل في آنٍ واحد. والوعي الجمعي -بهذا المفهوم- يحمل في أعماقه أسباب وجودنا وبقائنا كأمة، وهو يستقي مادته من ثقافتنا الدينية وهويتنا الذاتية. ولكن كيف يعمل الوعي الجمعي في تحريك الأمة؟

يرى الأستاذ كولن أن الوعي الجمعي يستطيع تحريك جموع الأمة إذا نجح أصحاب المشاريع الكبرى والمبادرات السامية في تقديم العقل على العاطفة، والتجربة على السلوك الحماسي، وإحاطة مشاعرهم بأنوار الرسالة الربانية؛ حينها سوف تدخل الحشود المندفعة بالعاطفة تحت تأثير تلك الحركة الحكيمة المتوازنة، وهؤلاء هم أرباب المستوى.

ثالثاً: الاستشراف والأمل

يؤكد الأستاذ كولن من خلال مقالات هذا الكتاب على حقيقة أن الأيام دُول، فمن سعد في عهد وعز،

كل الوجود يسعى إلى تجديد ذاته، وعلى الإنسان بوجهٍ خاص أن يجدد ذاته ليغدو جاهراً لفتح العالم، وإثراء العلوم بنور البصيرة، وتزويد التكنولوجيا بقيم الإيمان

تسري في خط ميتافيزيقي وانبعث في أفق روحي، وأن تمرُّ الأكوان كلها من موشور الروح عدّة مرات في كل لحظة.

وتجديدٌ بهذا المفهوم ووفق هذا الأفق السامق لا بد أن يكون له أثرٌ واضح على الفرد والامة معاً وفي آنٍ واحد، فالفرد يصبح ركناً أساسياً من أركان المجتمع لا يذبل ولايفنى، والمجتمع يرقى ليصبح جزءاً مهماً في المعادلات الدُولية.

مجالات التجديد: والتجديد عند الأستاذ ليس خطب عشواء بل هو تجديد محدد ومراجعة دقيقة لكل من: - الإيمان: لتصبح معرفة الحقيقة من خلال احتضان الروح للوجود بأكمله، واستيعابها للكائنات كافة. - المحبة: بنقل تلك المعرفة إلى الحياة من خلال نشر أنفاس المحبة في كل أصقاع الأرض.

- الأخلاق: والتي يعتبرها الأستاذ جوهر الدين وأساسه، وحلمنا ان نتجاوز الدُّننى بأخلاقنا - الرؤية الميتافيزيقية: بانفتاح العقل على الوجود كله، والسعي إلى فهمه واستيعابه من خلال الرؤية الكونية للقرآن الكريم.

- العشق: وهو الشعور بالحب إزاء جميع الكائنات، وذلك من خلال تربية روحية عميقة.

٤- خارطة الطريق (الوعي الجمعي)

يؤكد الأستاذ كولن من خلال مقالات هذا الكتاب على حقيقة أن الأيام دُول، فمن سعد في عهد وعز، شقي في آخر ودلّ، ومن دلّ في عهد وتدسّ، عزّ في غيره وسما.

- علاقتنا بتاريخنا؛ ينبغي على الأمة جميعًا وبالأخص على النخب والمثقفين أن يوسّوا سلامًا بينهم وبين تاريخهم.

- التخطيط الدائم؛ ينبغي أن يتم التخطيط لكل حركة تجديدية وُضعت من أجل إنشاء المستقبل بناء على مقوماتنا التاريخية وجذورنا الروحية.

- التجرد عن المطامع السياسية والشخصية؛ فينبغي ألاّ تشوه قضيتنا بأغراض سياسية، وألاّ تلوّن بمطامع فردية أو مصالح فئوية.

- الاحتماء بالصبر والتحلّي بالحكمة؛ وذلك بعدم إتاحة الفرصة لعواطف طفولية طائشة أو تصرفات غير مسئولة قد تهدم مانحاول بناءه، بل لابد من كبح جماح العاطفة، وإحكام السيطرة على الانفعالات إكرامًا لغايتنا السامية.

- وضوح نموذج البنيان الجديد؛ لابد أن يكون البنيان الجديد الذي نصبو إليه واضحًا في أذهاننا غاية الوضوح، حاضرًا أمام أعيننا فلا نبدأ بهدّ بنيان ما قبل أن نكون قد حسمنا قرارنا حول ماسيئتي مكانه، والأستاذ قبل كل هذ وبعده على يقين تام بأن أمتنا ستأخذ موقعها الباهر في الموازنات الدّولية مرة أخرى، ولن تستطيع أيّ قوة أن تمنع وقوع هذه النتيجة بعون الله ﷻ. ■

شقي في آخر ودلّ، ومن دلّ في عهد وتدسّ، عزّ في غيره وسما. فحين كان سكان نينوى وبابل والكرنك يتفَيّؤون ظلال أروع الحضارات الإنسانية، لم تكن الجامعات الكبرى أمثال السوربون وأكسفورد وكمبردج قد دخلت عالم الرؤى والأحلام بعد، وحين كان العالم الغربي يعيش في عصور الظلام في القرون الوسطى، كان العالم الإسلامي يعيش عهد انبعاثه الفريد عبر الأندلس وبغداد وبخارى وأمثالها.

وفي عصرنا الحالي، ها هي اليابان التي دُمّر بنيانها تدميرًا، قد نهضت اليوم لتصقّي حساباتها مع العالم أجمع، وتلك ألمانيا التي كُسرَت بالأمس سواعدها وقُصّت أجنحتها، قد أصبحت كابوسًا مروّعًا لمن أذاقها الذل والهوان.

ويرى الأستاذ كولن أن عالمنا الإسلامي - على رغم كل جراحاته - قد دخل وتيرة راب الصدع وجمع الشمل، وأن الطرف الآخر يهوي في حفرة موته خطوة خطوة، وهو غارق في خضم المفاسد والمخازي. ويرى الأستاذ أنه على الرغم من السلبات الكبيرة التي يعاني منها إنساننا، إلا أنه لايزال حيًّا بكل أجزائه، ميمّمًا وجهه شطر المستقبل، واعيًا بذاته، واعيا بـ "من يكون" و"ماذا يريد أن يكون".

لكن أستاذنا - كعادته - لا يتركنا أمام عبارات فضفاضة دون أن يرسم لنا الطريق الذي نسير فيه، ويحدّد لنا المعالم التي نسعى إليها، فيؤكد لنا أنه لكي نسير بخطوات واثقة إلى هذا المستقبل المشرق الذي نوؤمل، فلا بد لنا من الانتباه إلى عدة قضايا مهمة نوليها اهتمامنا ونجعلها في بؤرة أولوياتنا:

منهج التوصيل عند كولن قراءة في معالمة الفسيولوجي والبسكولوجي



سليمان عشراتي

لقد عول الإنسان على الكلمة منذ أن وعى دينامية التخاطب، وبنى مناطاته على أهمية اللفظة وحسن توظيفها في تبليغ القصدية، وحرص على ترشيد استخدامها، لتفي بأكبر قدر من مقصديته. ولأن مراهنة الأستاذ كولن الإصلاحية كانت ترمي إلى إيجاد الخميرة من الناس، أو المشتلة النوعية، ممن يمكنه أن يحدث بهم التغيير فقد أدرك ما للكلمة من تأثير في صناعة هذا التغيير فوظف مهاراته البيانية التي يتمتع بها منذ شببته، وقدراته التواصلية الهائلة مع الجمهور لاقتحام قلاع النفوس المحصنة، وتطويعها لحمل أعباء هذه الأمانة بمسؤولية واقتدار.

يرصد الكاتب من خلال هذه الدراسة منهج الأستاذ كولن التواصلية ببعديه الفسيولوجي والبسكولوجي نظرياً وتطبيقياً، وأهم المرتكزات المجردة التي تراعيها التواصلية الدعوية للأستاذ كولن والتي أرشد إليها أبناء الخدمة في عملياتهم الميدانية، كما يكشف عن مدى وعي الأستاذ العميق بأهمية مراعاة عوامل الزمان والمكان والمناسبة، الذي جعله يبني نشاطه العلمي على مخطط تضبطه الأجندة، وتمليه الشروط الملازمة لحركة الحياة، ومسيرة المجتمع.

أ.د. سليمان عشراتي،
مفكر وأستاذ جامعي
جزائري، يدرّس في المركز
الجامعي بالبيض، الجزائر،
اختصاص الفكر الإسلامي
المعاصر والدراسات القرآنية
والديانات.
له عديد من المؤلفات
أبرزها: خماسية "الأمير عبد
القادر"، وثلاثية "ابن باديس"،
و"النورسي في رحاب القرآن
وجهاد المعنوي في ثانيا
رحلة العمر" و"المعنى
القرآني في رسائل النور"،
و"الانبعاث الحضاري في فكر
فتح الله كولن"، و"هندسة
الحضارة تجليات العمران في
فكر فتح الله كولن".



لا يقوم الخطيب إلا وفي خَلَدِهِ يقينٌ بأن
الوضع الذى يعيشه (موقف، واقع عارض،
ظروف جائمة)، فيما قبل كلامه، لن يكون
هو الوضع ذاته فيما بعد كلامه.

www.nesemat.com

الكلمة وسيلةً للتغيير

لكل داعية مهاراته البيانية، ورباطته
وقدرته على التواصل مع الجمهور، وله
خصوصيات نفسية وروحية تلون خطابه وتطبعه
وتميزه.

بواقعهم وحياتهم الراهنة، سوف يكون له -حتمًا-
تأثيره وصداه على الأجيال القابلة، بما ستجد فيه من
ثمار الرشد، أو ما تتبين فيه من بذور العقم واللامعنى،
بالقياس إلى واقعهم وحياتهم وعصرهم هم.

لا يقوم الخطيب إلا وفي خَلَدِهِ يقينٌ بأن الوضع
الذى يعيشه (موقف، واقع عارض، ظروف جائمة)،
فيما قبل كلامه، لن يكون هو الوضع ذاته فيما
بعد كلامه، فحتى لو ظلت السكونية تسم الواقع،
ولا تشي بما ينبئ عن تحلله، فإن انبثاق الفكرة
التغييرية التى يحملها الخطاب إلى الناس، لمن شأنه
أن يُودِعَ جرثومَ التحول، ويغترس بذرة التملل التى
تنتهى بإحداث الحراك، طال الزمن أم قصر.

من هنا عول الإنسان على الكلمة منذ أن وعى
دينامية التخاطب، وبنى مناطاته على أهمية اللفظة
وحُسْنِ توظيفها فى تبليغ القصدية، وحرص على
ترشيد استخدامها، لتفى بأكبر قدر من مقصديته.

قدرات الأستاذ كولن التوصيلية

كانت مراهنه كولن الإصلاحية ترمى إلى إيجاد
الخميصة من الناس، أو المشتلة النوعية، ممن يمكنه
أن يحدث بهم التغيير. تعلم من قراءته السيرة
النبوية، وتلقن مما طالعه فى سير الأنبياء والرسل

والكلمة هي وسيلة الفعل والتفاعل مع من
نتعامل معهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وكل
خطاب جيد التجهيزية، حين يجد طريقه إلى الساحة،
لا محالة يكون له أثر تغييرى، فوري أو بعدي،
شمولى أو جزئى، وقليلة هي الخطب التى لا تترك
تأثيرها على الذهنيات، حتى لو لم يكن لها مخاطبٌ
معينٌ، أو كانت هلامية الأفكار والمرامى، بلا موضوع،
لأن لاوعى الإنسان يختزن ما قد لا ندرك له مغزى،
ويوظف مخزوناتة بألية لا سلطان للوعى عليها،
فمن ثمة خطورة الكلمة، وعلوق آثارها فى صفحة
الوجدان، كيفما كانت طبيعة استقبالنا لها، ولا بد أن
ندرك أن كل حدث نلابسه فى واقعنا الحياتى، هو
ضرب من الكلم الذى يخاطب منا المواجد، على نحو
من الأثناء، وبدرجة من الدرجات.

فالحديث نص كما القول تمامًا، له مجازاته
وصوره، منطوقاته ومضمراته. ويقتضى فهمًا ظاهرًا
أو تأويليًا، من ثمة كانت القراءة أو التلقى عملية
تفعيل شاحنة، تستبقي تأثيرها فى الأذهان، سواء
استبان المتلقى ذلك منها، أم لم يستبن.

حتى خطاب الأجيال المعاصرة، المنحوت على
هذا النحو أو ذاك، وما يتداولونه بينهم مما يتعلق

(العام). والصلة بين البيان القولي والبلاغة السميتية، الهندامية علاقة ترابط.

ولقد اعتمدت الأعراف في كل عصر ومصر من الأشكال والألوان والهيئات والمواصفات، ما يتقمصه الفرد، إعراباً عن السعادة أو عن الابتاس.. إذ أوشكت رزنامة الأيام الأسبوعية أن تتوطد وتتحدد عند عديد المجتمعات والثقافات، من خلال أطعمتهم، وألبستهم، فضلاً عن نوعية برامجهم اليومية.

وكانت الحروب تخاض بألوان الرايات، وبنوعية العلامات والشارات، ولون العمائم والألومات كان عند العرب والمسلمين عنوان التأهب، ودليل الانخراط في الحرب. ومن الرجال والأعلام والرمزيات العلمية، مَنْ كان له سَمْتُهُ المظهري وَسِمْتُهُ المسلكية التي تميزه وتُبرز شخصيته.

ولقد كان النورسي، وهو من أقرب الأئمة الذين تأثرت بهم حياة كولن، يعيش هذه العنوانية الحالية، وهذه الإشهارية الإعرابية من خلال هيئته المخصوصة، ولباسه المتميز. فالمظهر الزاهي، والزي المتفرد بالنسبة للنورسي في شبيبته، كان فاتحة التصريحات التي تسبقه في عملية التواصل مع الناس.

بين الفسيولوجي والسيكولوجي

لا ريب أن الصوت، وهو مُقَوِّم فيسيولوجي حيوي، يُعَدُّ وسيطاً أساسياً في عملية الإدلاء والتوصيل، ولقد جعل الله للكائن الحي جراحة السمع وسيلة لاستقبال القول، وأناط بها مهمة تلقي الحكمة، وتناول التعاليم.

لقد كان كولن يتخذ من مجالس البث حصصاً لسبر الأنفس، والوصول إلى أغوارها، وظل يُحوّل تلك الحصص إلى جلسات حفر في البواطن، ونفاذ إلى الأعماق.

من أخبار، أن تجربة كل نبي طفقت تحمل إلى بقية البشر، أهم الدروس في صناعة التغيير، وأبرز الكيفيات في فن إيجاد عُدَّة هذا التغيير، وحسن تدبيرها.

وقبل ذلك وبعده، ينبغي أن تكون صلة الإنسان بالفكرة المثالية^(١) التي يدعو إليها، والعقيدة المجتابة التي ينافع عليها، صلة على قدر من القوة والاستحكام واللصوق، ما لا يتطرق إليه أدنى شائبة من وهن أو فتور، مهما تبدلت به الظروف، وتراوحت الملابسات. والمؤكد أن كولن كان يتمتع منذ شببته بالقدرة على التواصل، ومن الثابت أن هذه القدرة التي هي بالأساس تعبيرية، ظهرت مرهصاتها الأولية عنده، في هيئته وسمته، إذ كان منذ الطفولة يولي من الاهتمام الملحوظ لهندامه، ما كان يظهر به متميزاً بين الأقران، بل وكان في بعض الطور من شبابه موضع ملاحظة ومؤاخذة بعض أصدقائه عن ذلك الاهتمام المظهري.

سيمائية الهندام

لاشك أن تعبيرية الهندام تعبيرية حالية، سيميائية^(٢)، تومئ إلى ما في النفس من استعداد للتواصل، والمفاتحة، والتفاعل. إننا- كما يقول المثل- نأكل لأنفسنا (وفق ذوقنا)، ونلبس للناس (وفق الذوق

كانت مرأهنة كولن الإصلاعية ترمي إلى إيجاد الخمييرة من الناس، أو المشتلة النوعية، ممن يمكنه أن يحدث بهم التغيير.

nesemat.com

في صوت الداعية الملهم، نعومة وإن خشنت النبرة، وفيه صقالة وإن غلظت اللهجة، فهو في كل الأحوال، يمس القلب، ويفتح مغاليق الروح.

ولم يصطنع الخطباء ورجال الدين في كل النحل والأديان الزي المميز، ولم يتمرسوا بالمسلك المتزن، ولم يتواصلوا من خلال اصطناع الكيفيات الملونة بألوان المناسبة والظرف والموضوع، إلا لأنهم يدركون أن النفوس قلاعٌ محصنة، لابد لها من سياسة اقتحام، وخطط مدهامة، لأجل تطويعها وانتزاع الاستسلام منها.

حين تكون المرأمي دنيوية بحتة، ما أكثر ما تغدو السياسات التوصيلية والخطط التبليغية التي يتبعها العرّابون، مكرًا محضًا، وتلبيسًا صرفًا، وتدليسًا صراحًا، إذ المقاصد الدنيوية حين تخلو من الوازع الأخروي، لا تعدو في غايتها، القصدَ الظرفي العابر. إذ إن ما نحققه من شأن مادي، كيفما كانت قيمته الدنيوية، البهرجية، لا محالة زائل، ذلك لأن كل اعتبار، وكل شأن ومجد دنيوي يترتب على مكاسب مادية، إنما يكون مشروطًا في بقاءه بقاء تلك المكاسب المادية، ولما كان الدوام المؤكد والذكر المخلد في هذه الحياة، لا يكون إلا معنويًا، كانت الإيرادات الواعية، والنفوس المتبصرة، تُثَمَّر ما تمتلك من مادة، لأجل تشييد الذكرى الباقية، الذكرى التي تتسجل لهم في سجل الآخرة.

والمزاج -في غالب الأحيان- يلون المضامين الصادرة عن الروح، وكذا العكس، فما أكثر ما لونت المضامين المعروضة وجه الروح، وصبغت المزاج بصبغتها.

في عملية التوصيل، تعكس الفسيولوجية وجه الروح، فهي (الفيسيولوجية) ترجمانٌ عينيٌّ لما يعتمر الباطن من أحوال ومناخات.. وكذا الروح ينفد إلى الفيسيولوجية، فيضفي عليها من أحواله، ويلونها بألوانه. طالما أعطى الصوت للإنسان قوة ظهور لا توفرها له بنيته الجسدية، وذلك حين تتدثر الكلمة الثامرة بالجهازة المكينة، والإصاثة المليئة. وما أكثر ما أعطى الجسد للإنسان الصوت النافذ والجرسية المؤثرة التي تعزز من شأنه، وتوطد من مكانته.

وفيما يتعلق بشخصية الداعية، فإن علاقة الترابط التي تلحمه روحياً أو-على الأصح- تلحم الأتباع به، تجعل أسباب التجاوب والتناغم بينهما لامحدودة، فكل سلوك منه رسالةٌ، الحال والقال والفعل، جميعها جوانب تتظافر على تجسيد المعنى، وتوصيله.

الكيونة الفيزيكية للداعية تغدو ماهية رامزة، ووعاء من المرموزات المتجددة، والمفتوحة الدلالة على المعنى ونقيضه أحيانًا، شأن كل أثر رمزي في

كان امتدادا للاحتراق الذي طفق يعانيه في حياته التبيلية، ويخترق به الحجب إلى صميم ذاته، فوصله إلى أعماقه هو محطة تجلُّ تدرج ضمن برنامج العبادة والشكر الذي وقف عليه حياته ووجوده وكيونته.

التواصل يُحدِّث مفعوليته التأثيرية ويوطد سلطانه على المتلقين، بمقدار ما يكون في النفس من حرارة وما يترشح فيها من اشتحان، جراء ما يقوم في تلك النفس من علاقة التتابع بينها وبين مناطاتها العليا من الرموز، من حيث تستمد طاقتها وقوتها. ومعلوم أن من متداولتا القيمة ما هو سافر صريح يظهر في الواقع وفي الحياة، ومنها، وهو الأغلب، ما هو خفي، وضمني، يتمثل في ذلك القطاع العريض من المضمرة المعيارية التي تثوي في اللاشعور، أو في بواطن الإنسان، من حيث يستمد مرصوداته الوجدانية، اللامُدركة.

الزمن مصفاة تُرَسِّخ الأعراف والمبادئ، وتُعْتَقِّق القيم، وتجعلها نسجاً أو (بلازما) تحيا فيها الأحكام والبداهات، وتصير سجايا في السلوك، وشيماً في التصرفات.

فمن هنا كان ذلك الاستعداد للانبعث لفعل الخير، والانحياز للفضيلة، قوياً لدى أصحاب النفوس المهيأة للتجلية والتنقية، النفوس التي لم تتشوه فيها الفطرة بصدأ الأيديولوجيات، (والجهل والأمية وكذا الدين المؤدلج، واللادين.. جميعها أيديولوجيات.

من هنا نجد لأصوات الربانيين كل ذلك الجبروت

لخطاب الأستاذ كولن وزن روحي، ورجاحة عقلية، ووجاهة مستلهمة من فيوض ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وله ألق عال من الجاذبية الشعرية والسلطان التأثيري.

علاقته بالعقل الإنساني، لذا يصير الداعية محل بثٍّ للأمل والبهجة الروحية، فعلى أي مستوى يتم التواصل معه، يحصل التوفيق والغنم والمقبولية، الكلمة تصدر عنه، أو اللفتة، أو الصمت، أو الإجماء، كيفما كانت تظاهراتها، تؤدي مضموناً، وتؤكد معنى، وتبلي حاجة، من هنا قوياً تعلقنا بالمقتنيات التي نتمكن من نيلها من أهل الله. نتلقى منهم الذكر، ونستمد التسديد، ونعايشهم في المنام وفي اليقظة، فهم سندا، ووسيلتنا إلى بلوغ رحاب الله، وليست محبتنا لهم، إلا من محبتنا لله ﷻ. فالموقف والملابسة والظروف، جميعها تملي عليه نوع التفعيل الذي يراه أبلغ في الأداء، وتهديه إلى كيفية التحسيس الأبلغ في التأثير.

لقد كان كولن يتخذ من مجالس البث حصصاً لسبر الأنفس، والوصول إلى أغوارها، وظل يُحوّل تلك الحصص إلى جلسات حفر في البواطن، ونفاذ إلى الأعماق. فكما يجهر الفلاح بئر، ويستظهر عناصرها، كذلك كان كولن يثور كيانات المستمعين بشتى الأساليب، تهييناً لهم للعطاء والانخراط..

الجمر الذي طالما تحدث عنه، ونَعَتَ به كلماته،

في عيني الشاب كولن تزهو إشراقه
الطمأنينة، ويلوح الوثوق في المحظوظية
والكسب، ويتجلى التصميم على السبق
وتخطي الحواجز.

www.nesemat.com

الذي يجعلها تنفذ مباشرة إلى غايتها، وتخترق المدى إلى مقاصدها.

كلمات أهل الله سيارة بلا شبكات توصيل. الحس الروحي، والحدس الوجداني، يتصدانها، ويكفلان لها التداول بين الناس، فهي من ثمّة مادة تتمرس بها الجماهير، وتتبناها الأوساط، لما لها من صبغة علوية، إذ هي صدى لكلام الله ﷻ، وبذلك تنزل منزلة قدسية، من حيث تكتسي صفة القاعدة والمسطرة التقويمية، وتغدو مَجَلَّى للحكمة، ومناطاً لفصل الخطاب. في صوت كل رباني صدى لمئات الأصوات الذهبية، ينتظمهم السلك القدسي الذي ينتهي بهم إلى نبع القداسة: الرسول الأعظم ﷺ.

بل إن كل صوت رباني، هو ترجيح لذلك الصوت العَبْنِ، الذي هو صوت رسول الله ﷺ، منه يستمد نفاذيته، وبه يصبغ بالصبغة القدسية.

الداعية الملهم، يُفَعِّلُ النَّاسَ بَعْدَ أُصْلِيَّةِ، يستمدّها من مستودعها الأول، من الكتاب والسنة وتراث السلف الصالح. من هنا نرى لخطاب الأستاذ كولن ذلك الوزن الروحي، وتلك الرجاحة العقلية، والوجاهة المستلهمة من فيوض ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥)، ونجد له ذلك الألق العالی من الجاذبية الشعورية والسلطان التأثيري.

فكلمات الداعية حين يستجلبها من صيرفية الرسول ﷺ، هي كلمات تخرج عن نطاقه هو، إذ تضحى بصوت الرسول ﷺ وإن تلفظت بها شفتاه (الداعية)، وتغدو نداءات فيها جرس صوت الرسول ﷺ وصليل

نبره الكريم، وإن صدرت عنه هو.

من هنا يكون الترادف والتظاهر والتمازج والتظاهر هو خاصية كلام الصالحين ومميزته، إذ المرشد المصلح ينهض في دعوته بدور المنفُذ فحسب، لكن الذي يضطلع بوظيفة الملقن والمملي والملهم، هو منظومة السلف وسلك الأخيار والرموز، وعلى رأسهم سيد الأطهار، الرسول ﷺ.

إن الداعية الدارك، في كل موقف انبرى فيه لإحداث التزكية، يتكلم باسم أولئك الخيار، ونيابة عنهم، فلا تكون -والحال تلك- نورانيته إلا من نورانيتهم، ولا يكون توفيقه إلا من توفيقهم هم، فهم المُولدُ، وهو المصباح.

الفسيولوجية والتعبيرية

حين تلتفت إلى هيئة كولن في شبابه، تواجهك شخصية شابٌ قد تجلت فيه أبعاد الأُهبَةِ، واكتمل قلبها، فتى تام القوام، ثامر العود، عارم البنيان، في خطوط الوجه تنبجس وداعة كأنها توقيع رشيق في صفحة كتاب. هيئة كولن الشبابية تعكس تكتُّماً، وميلاً إلى الصمت، فتَبَرَعُمَاتُ الحلمِ المرتسمة في الجبهة وعلى المفرقين والناصية، بيانٌ لما يميز

لقد التفت كولن منذ بداية أمره إلى الناشئة يعلمهم الدين، ويخرج الدفعات، يصنع منهم الاحتيال. وبمرور المراحل استجمع الأتباع ممن لقيتهم بكأنياته كيفية التغيير، والولادة من جديد.

www.nesemat.com

خصائص سيكولوجية، ونفسية، وطبعية.

قراءة في ملامح وجه كولن

من عينه يصدر كولن البيانات، وفي رحاب جبينه يعقد الجلسات، ويرسل البرقيات. النظر يسبق الصوت بالقول، فكأن الرموش أبجدية، والصوت يدُ تصوغ الأحجار الكريمة.

في العين غضب، وصولجان. في معقدهما راية وسيف ومزهريّة.. فيها حمام يصنع الأعشاش التي يكبر فيها الحب. في عيني الشاب كولن تزهّر إشراقة الطمأنينة، ويلوح الوثوق في المحظوظية والكسب، ويتجلى التصميم على السبق وتخطي الحواجز.

لكن الإشراقة في ذات العينين، بعد أن انسلخت أشواط من العمر ذهبية، توارت وراء واجهة سافرة من الجراح والانكسارات والشموخ. كبنيان عريق الفخامة، اكتسب من ماضيه السعيد، حاضراً مفعماً بالجلال.

العين مجال بهي، يتجلى فيه اسم الرحيم، إذ هي مثابة الدمع، ومناط الحسرة، والأفق الذي تنحدر من صدره البشارات. تفادي كولن مزالقي الفتنة وهو غصٌّ، وكبّدته الفتوة استنزافات ما كان أصعب الإفلات منها، وما كان أشق تجاوزها. وخاض معمعان الدعوة، أشبه بمن يسبح ضد التيار، وارتاد المقهى يبيث الذكر، وتتبع الدلائل في الأسواق ينشر الحكمة، ويسوق بضاعة محمد ﷺ إلى العامة، يعترضهم في الطرقات ويغشى مجالسهم في المزارات والولائم والمآتم، والتفت إلى الناشئة يعلمهم الدين،

النفس من تحوُّط، وتحفظ، وامتلاء.

لا ريب أن لتلك الطلعة مزاجا يستهويه حب التخطيط والمراهنات بعيدة المرمى. بين التحوط والتحنف آصرة وثقى، هي التوكل على الله، والتسليم له في ما يُقدَّر، وما يقضي.

قراءة في تعبيرية الحواس والجوارح

طالما استدلّت الحدوس على طُبع الإنسان وشخصيته، من قراءة معالم نظرتة، واستطلاع مكامن عينيه، ففي الحدقتين، وفي أحوال الإغضاء أو التسديد، وفي صراحتهما أو إشاحتها، وتحوُّصهما أو تقوُّسهما، وفي حركتهما السطحية أو العميقة الأفقية أو العمودية، وفي سهميتهما أو رفرفتها، جفافهما أو نداوتها، سقمهما أو صحتهما، تتجلى كثير من خصائص النفس، وتبرز جملة من صفاتها الباطنية، ونعوتها المزاجية والنزوعية.

ومثلما يقرأ الأطباء بيانات عن وضع الجسد من حيث السقم أو العافية، عبر بوابة العينين، كذلك يستقرئ البصير كشوفاً عن شخصية الإنسان مما يرتسم على صفحة العينين من مؤشرات تحيل إلى كنه هويته، وفحوى ماهيته، وإلى ما يميزه من

كان خوض كولن لمعمعان الدعوة في شبابه، أشبه بمن يسبح ضد التيار، ارتاد المقاهي يبتث الذكر، وتتبع الدلائل في الأسواق ينشر الحكمة، ويسوق بضاعة محمد إلى العامة، يعترضهم في الطرقات ويغشى مجالسهم.

www.nesemat.com

ويخرج الدفعات، يصنع منهم الاحتياط. ومروور المراحل استجمع الأنواع ممن لقتهم بكأياته كيفية التغيير، والولادة من جديد.

في العين إيعاز بحُبِّ الإيعاز، يرجح الإيماءة عن التصريح، والجنوح إلى الصمت، بدل الكلام.

إن ما تعودنا أن نَكشِفَ عنه من أمورنا، هو هذه اليوميات من وقائعنا العادية، أما جسيم المهام، وbacher المأموريات، فيظل كامنا فينا، يسكننا كالدافعية، نعرفه وننكره، يشكل جزءاً من ذاتنا، ينطوي عليه الصدر، ويعقد دونه اللسان، فلا يبين له ملمح، هو كالقدر، يلقاك بلا ميعاد.

من جسامتها تستوطن المقاصد الكبرى منا في الصميم، وينوء بها الكيان، وتظل جائمة على الفكر، فيكون لها ذلك المرودود الجلي، من الجفول والسهوم والحزن الذي لا تستبينه في الأشخاص المسكونين بأقدارهم الاستثنائية، إلا عيون ذوي البصر البصير.

إنها ضرب من التألم الكامن، والأرق الدائم، ومن الانشغال الباطن، إنها سمة تعلن عن مهمومية الفرد، وعن ترشحه إما للدور الاستثنائي، أو للرحيل قبل الإبان.

الذين تسكنهم الفجائع، والمولعون بالعظائم، هؤلاء لهم حسّ كونيّ انطبع فيهم بالفطرة، فكأنهم قمم جبارة، ترسو عليها الثلوج التي تذوب زمن الحر، فتملاً السودود، بل إنهم ذرى شاهقة، تتَرَصَّد الأرض والسماء، بما ترسله وتتلقاه من بثٍّ أثريّ.

العين التي ترقب كل شيء، والتي هي عنوان

اليقظة والفتنة، نراها بعد طول مسار، تتواري في أستار الصمت، كالقرص وراء السحاب، كحوض مليء بالحصى الملون، كشجرة بُطْمٍ معمرة، صامدة، يعرفوها الانطواء، لكن عين كولن في كهولتها ماردة، تنذر بالبأساء، حملتها من الأسرار ظاهرة، سفين بأشعة يغالب العواصف، ظلال لموسم من الملاحم والقصائد والغلال.

في العين يجثم الزمن، يعلن عن طفولة تتأهب، وموعد انبعاث يؤذن بالسفور. العين مثخنة بالجراحات، فهرس لكتاب فيه الملتن وفيه التهميش، الاحتساب طافح من ضفافهما، فيهما مدونة مقامات، وصيحة مجذوب، وقنوت سائح.

رمزية اللباس بين الأصالة والمعاصرة

لبث كولن في أطوار من عمره يعتمر العمامة^(٣)، يؤمُّ الناس بها، وكانت العمامة على رأسه تتقلب وتأخذ أوضاعاً تعبر عن أحوال الباطن وما يملأ الصدر من خلجات القلب ونبضات الشعور. طالما أحس الإمام بأن العمامة وهي تتشامخ فوق المنبر، إنما كانت تجهز المشهد بما يصنع الرجال، ويبنى الجسور نحو الفجر، ويحفز على الفضيلة.. لقد كانت في كل

في تلك المرحلة التي شرع فيها كولن يتحرك، كانت الحكمة والدهاء يقضيان بإشهار كل سِمة توَعز بالأصالة، أنى كانت تجلياتها، وعلى أي نطاق كانت.

www.nesemat.com

طيلة العهود، فمن ثمة كان المخلصون من الأئمة لا يرون في العمامة مجرد ملمح يقتضيه السم، وتفرضه الوظيفة الدينية الرسمية التي كان نظام تلك المرحلة يلزمهم بها.

غابت اللغة العربية، وغاب النداء المحمدي في الأذان، وقُرئ القرآن مترجماً، ثم هُجِرَ على صعيد البلاد، إذ أوصدت مؤسساتُ التحفيظ، وعطلت الكتابات والتكايا العاملة، كما عطلت أنشطة أخرى وطمست مختلف مظاهر الانتماء الروحي، وبقيت العمامة وحدها، أو تكاد، تذكرُ الناس، حين يدخلون- وما أقل عدد من يدخل المسجد ويحضر الصلاة- بماضيهم، وكيونونهم.

في مرحلة الانعطاف والتوجه بالدعوة إلى العالمية، رأينا كولن يتحول بِسَمْتِه، فيظهر بالهندام العصري، حاسر الرأس، على أكمل إهاب الحداثة والقيافة المعاصرة.

مستوى آخر من الخطاب يباشره كولن، تأقلماً مع المتطلبات الكونية الراهنة.

لقد فتحت العولمة أبواب التواصل بين العالمين، ولَمَّا كان الغرب قد سك الذهنيات والأذواق والتطلعات على نموذج الثقافة والسلوكي والمظهري، كان حتماً على العالمين في كل الأنشطة والمجالات، لا سيما حقل الروح، أن يأخذوا بأسباب التقرب والتلاقي مع الآخرين، من ثمة كان لائقاً بكولن أن ينهج منهج الدعوة في ضوء الفطنة والتبصر. وهكذا رأيناه يتحول بمظهره وهيئته ولباسه،

ذلك تتأثر لما لحق الهوية من خزي.

كان النورسي يقول عن القبعة لما فرضت على الناس، دعوها (القبعة) تنحني وتسجد وتتمرغ رغم أنفها في المصليات، اعترافاً بالله⁽⁶⁾.

قضى كولن حيناً من العمر يَتَعَمَّمُ، وكانت العمامة تخاطب الناس هي أيضاً، توَعز لهم بماضيهم. على كل قبر من قبور السادة آل عثمان وسلاطينهم الجهاديين، تحمل شاهدة القبر تكويراً بصورة عمامة، إعراباً عن الهوية، والانتماء.. الناصية تنطق في حضرة الله بما قَضَتْ من خشوع، وما أَدَّتْ من سجد لربوبيته في الحياة، والعمامة تشهد لها، وتؤيد.

في تلك المرحلة التي شرع فيها كولن يتحرك، كانت الحكمة والدهاء يقضيان بإشهار كل سِمة توَعز بالأصالة، أنى كانت تجلياتها، وعلى أي نطاق كانت. كان العراك محتدماً بين إرادة التغريب وبين روح الأسلمة. أمة عملت تلك الظروف المكفهرة، على لِيَّ عُنُقِهَا، والانعطاف بها نحو الكفر، والتنكر للأصل، والتخلي عن الذات.

كانت العمامة في تلك المرحلة شارة الهدى، وأمارة التقوى، وكان الإمام وهو يضعها فوق رأسه، يعزز خطابه بوسيلة رمزية ظلت تحظى بالاعتبار

لبث كولن في أطوار من عمره يعتمر العمامة يؤمُّ الناس بها، وكانت العمامة على رأسه تتقلب وتأخذ أوضاعا تعبر عن أحوال الباطن وما يملأ الصدر من خلجات القلب ونبضات الشعور.

www.nesemat.com

وكان من خلال ذلك التحول يؤذن (يصدر فتوى) لخدام الدعوة ومؤطريها أن يلبسوا للمرحلة لبوسها، إذ كان على وعي بأن الأمم التي أنهكتها الأيديولوجية، ودمرت روحيتها الفراغات المعنوية (تحت نير الضغط الماركسي)، وكذا الأمم التي لبثت دولها تنافق وتستغفل الشعوب، فتظهر محاذاة للدين (المسيحي)، وهي في الحقيقة تمارس كل ما يحرمه المسيح من استعمار وحروب واحتكار وسيطرة واستهتار بالمثل والقيم الإنسانية، فمن ثمة انحيازها للمسيحية، هو نكاية في الإسلام فحسب.

لم تكن تلك الأمم المدمرة روحيا ومعنويا، تنتظر من الإسلام أن يراجعها فيما اعتادته من شكليات الهدام والمظهر الجسدي (اللحية مثلا)، إنما كانت تنتظر منه، ومن كل عارض آخر في حقل الروحيات، أن يملأ الفراغ المعنوي الرهيب الذي طفقت تعيشه الجماهير، سواء وهي تحت راية الشرك، أو في كنف مخادعات الرأسمالية، وكان مظهر الداعية كولن (العصري) سائحة أخرى تُهيئُه لمباشرة خطاب العوامة بحظ آخر من التوفيق.

إذ كل ما يقربنا من المخاطب والمتلقي ومن الآخر، ولا يقف عائقا في وجه التواصل، يعد تسهلا إلهيا يفيدنا في المهمة الدعوية، وفاقحة مباركة إذا نحن أحسنا استثمارها.

كان كولن يرى أن الإسلام، وهو أعظم رأسمال روحي يُحمَلُ اليوم إلى البشرية، لا بد أن يحسن عارضوه أساليب تقديمه في سوق كونية تداعت إليها

الماركات الثقافية والمعرفية، وتنافست القوى العالمية المستثمرة للإعلام والاتصال على تنازع المواقع الإستراتيجية، والتدافع لأجل امتلاك الجغرافيات التي تمكن كل جنس وكل قومية وكل انتساب عقدي وحضاري من أن يمضي في بسط نفوذه، واحتياز الإمكانات المادية والمعنوية التي لا يمكن السيطرة عليها إلا إذا كان الشحن الثقافي والقيمي قويا وناظا ومستحكما في الأشياح والأحلاف، فاعلا فيهم فعله الاستيلابي، مُجذرا سطوته على أرواحهم، فهم تحت سلطانه كأنهم مُنومون.

في جو تنافسي غير متكافئ ولا شريف كهذا، كان كولن يتبع خطة استئلاف القطاعات والتجمعات والمجتمعات، وتوصيل الدعوة إليهم على نحو عملي، غير صادم، ذلك لأن الإنسان المعاصر خرج من غمار الصراع الأيديولوجي والتنويم الدوغمائي، متحذرا من كل دعوة تعمل على استدراجه، مشيحا عن كل صيحة تريد أن تلفته إلى بضاعتها، إذ يتوهم كل استقطاب معنوي أيديولوجية خاتلة، وأحاييل مترصدة.

خرج إنسان العصر شبه فارغ الوفاض من الثوابت والمثل الممجدة بلا إكراه، لا رغبة له ولا ميل في تقبل أية أيديولوجية، ولا اعتناق أية ديانة.

كل ما يقربنا من المخاطب والمتلقي ومن الآخر، ولا يقف عائقاً في وجه التواصل، يعد تسهيلاً إلهياً يفيدنا في المهمة الدعوية، وفاتحة مباركة إذا أحسنا استثمارها.

www.nesemat.com

كما يسميه فقها وجدانياً^(٦) كانت دعوةً إلى تجديد الرؤية، وتحيين النظرة، وتجهيز الخطة بما يضمن النتائج الميدانية، لأنه يريد للدعوة في عصر العولمة أن تأخذ منحى السير في الآفاق، وتعمير الأوطان، وتأثير العواصم بالمرتفعات التربوية والروحية والخدمية، وجعل العلاقة الجوارية جسراً تمر من خلاله قيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه، وهو ما تكفله لمن كان حصيماً، ذا تدير- المثاقفة الكونية كما تتم بين المجتمعات الحية، اليوم.

فمن خلال بناء المدرسة التي تشع بالعلم والعقلنة والتفوق، وعن طريق إقامة المسجد الذي تؤدي فيه الصلوات، وتقام التظاهرات الدينية، والمدنية، يتم لفت الناس إلى معالم الإسلام، وتهيأ لروح العقيدة السمحة أن تطرق أبواب المجتمعات، بكيفية لا افتعال فيها، ولا تكلف، ولا تسرع.

سنرى الرزنامة الإشهارية التي اعتمدها كولن قد أدرجت في موادها إقامة المضاف التي تستقطب مختلف الجنسيات إلى مواعيد رمضان، وعقد مآدب الحوار الديني والحضاري التي تجمع أهل الملل والنحل من كافة الأرجاء، لأجل أن يتعرف بعضهم على بعض، ويتفهم بعضهم بعضاً.

فبواسطة إشهار حقيقة الإسلام، وتقمص العقيدة بصدق ومسؤولية، ننال احترام الآخر، وقد نجد فينا ما يقنعه بربانية ديننا الحنيف، فالإنسان المعاصر، مهما كان مستواه، يمتلك شيئاً من المنطق الذي بفضل، لا يمكن احتواؤه أو التحايل عليه.

في هذه الوضعية اللامستقرة، واللاوطيدة المعالم، سلك كولن سبيل التوعدة في التبليغ، فتغاضى عن الشكليات، إذ رأى أن علة ضمور الحضارة الإسلامية، يعود إلى اهتمام المسلم بالشكل، وشكل الشكل، على حساب التوسع في الدعوة، وتعميق الجهد في تبليغ الدين للعباد. ألم يستغرقتنا على مدار قرون من التجمد، فقه الفروع، وفروع الفروع؟

كان يرى أن لفظ الحكمة في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥)، يفيد معنى الاستتلاف، والتدرج في المحاوره^(٧). بل إنه يرى أن من الحكمة أن يكون المبلِّغ على معرفة بلغة المدعوين، وعلى علم بأعرافهم وثقافتهم، وعلى إدراك لسيكولوجيتهم وانتروبولوجيتهم، فضلاً عن زاده من العلم والكياسة.

من هنا كان طلائع الدعوة، مدرسين يُعلمون الناشئة العلم، ويربونهم على الفضيلة، ويبذرون فيهم حب التفوق، وروح محبة الله، واحترام أكوانه ومخلوقاته ومبتدعاته في البيئة والطبيعة، ويغرسون فيهم قابلية الاعتبار بجلال صُنع الله، بما يقرأونه في الأنفس والآفاق من آيات بينات.

من ثمة فإن دعوة كولن إلى إيجاد فقه للهجرة، أو

سلك كولن سبيل التوءدة في التبليغ، فتغاضى عن الشكليات، إذ رأى أن علة ضمور الحضارة الإسلامية، يعود إلى الاهتمام بالشكل، على حساب التوسع في الدعوة، وتعميق الجهد في تبليغ الدين للعباد.

www.nesemat.com

إن السلوك الرفيع والتعامل المهذب باب مهم للدعوة، وواسطة لعرض خصائص الدين، وبيان مدى صميمية مبادئه، وإن سلاح العلم والتعمق في المعارف، ومنها الشريعة، باب آخر يتيح لك أن تجعل المتلقي يستمع إليك دون أن يَسْتَتِفَهَكَ، فيضجر، ويقوم عنك، ولا يعاود لقاءك.

للفضل، المُمْتَنُّ بما تَحَصَّلَه من مكاسب تحققت له من خلال تواصله مع أصحاب الدعوة.

بعلوم النفس وتحليل الخطاب والتاريخ الحضاري للأمم والآداب والأنثروبولوجي، والاتصال، والتداولية، استعان كولن في بناء بيداغوجية توصيله. فآثار هذه الاختصاصات واضحة لمن يريد أن يتفحص طبيعة وتشكيل الخطاب الكولني، لا غرو في ذلك، فكولن - كما تفيد مكتوباته - من أقرأ المفكرين المسلمين المعاصرين، ومن أكثرهم تمرسا بالفكر الحديث، وتعاطيا للفلسفة والآداب العالمية.

لا يلمس الدارس آثار هذه القراءات والاطلاعات الواسعة على العلوم والفنون والثقافات العصرية في خطاب كولن فحسب، بل يجده يفتأ يُرْشِدُ إلى وجوب أن يوسع كلُّ داعية، ليس فقط من جغرافية علمه ومعارفه، بل وأن يكون هاضما لمستحصلات هذا العصر العلمية والفكرية والفلسفية، لما في هضم المعارف من سند حاسم في تأدية الدور الدعوي بالمهارة المطلوبة، وبالافتقار الراسخ على تبيين الحقيقة الإيمانية، وتوصيل الرسالة للمتلقي باليسر وبالسلاسة التي تكون هي في ذاتها عاملا لتقريب الناس وتهيئتهم

إن روح التبييت للإسلام التي أضحت تحكم الآخر، وما يقر في الضمير الغربي والشرقي عن الإسلام من أحكام مسبقة، فضلا عن فشو ثقافة الإنكار الجحودي التي هي عقيدة العصر، فضلا عن مهانة وكاريكاتورية الواقع والمظهر الذي عليه المتأسلمون، كل ذلك يقف عائقا أمام أي حوار، ويجعل نتيجة كل مسعى دعوي غير ممنهج، وغير معقلن، وغير متكافئ مع مقاصد الدين، نتيجة صفرية، ومنقلبة بالسوء والإساءة على الإسلام والمسلمين.

من هنا، أسس كولن دعوته على قاعدة التهذب والتلطف، فما قد يصدم الذهنيات والعقليات ينبغي أن يؤخر، ويقدم عنه ما يكون للآخر فيه نجاعة، ومقبولية.. فلا حاجة لمن ينكر الدين، ويكفر بالربوبية أن يغريه أحد بالإقلاق عن جوده مقابل نيل الفردوس، أو أن يُخَوِّفَ بالبحيم.

هناك قواسم الحياة والتعايش والإنسانية، تجمع بين العباد، وفي وسع الداعين إلى الله، أن ينفذوا من خلال ما تتيحه هذه المساحات المفتوحة في وجوههم، وأن يعرضوا ويُجيدوا العرضَ -دون تلبيس أو تدليس- بحيث يغدو المتلقي في وضع الحامد الشاكر

فعملية التواصل -بالنسبة إليه- تكون إما ذات غاية بنائية وتأسيسية، وذلك حين تخوض في الدعوة إلى إنجاز رهانات، وتحقيق غايات، وتخطي تحديات. وإما تكون ترميما وإعادة تأهيل، وذلك حين تتصدى لمواطن الاعتلال، ومظاهر الاختلال في النفوس، تسويها وتعُدُّل منها، تهيئة لها، لتأدية وظيفتها في الحياة على أكمل وجه، وأمثلة.

من هنا كانت عملية التواصل، عملية تستند في إجرائيتها على أسس ترتبط بالغاية التواصلية، وهو ما يقتضي من المفاعل، أو مَنْ يباشر عملية التوصيل، لاسيما إذا كانت مهمته هي الدعوة، أن يكون ذا نظرة وافية تشمل أركان الموقف التواصلية، وتعم أطرافه ومقاصده.

لقد رأيناه وهو يتحدث عن كيفية معالجة مرض الروح، نعني الإلحاد، يضع أمام المرشدين جدولا بأحد عشر مستوى من مستويات العلاج التي على التوصيلية أن تراعيها في مداواة هذا الداء، حيث يبدأها بلفت المعنيين إلى وجوب أن تكون خطواتهم الإشفائية قائمة على المعرفة الموضوعية لحال المُبتلى، ونوعية اختلاله الروحي، أهو إنكار ناتج عن الجهل، أم تمذهب وانتحال، أم هو باعث نفساني اختلالي يكون غالبا هو سبب الإنكار، أم..؟

يضاف إلى هذه الخطوة خطوة أخرى، هي معرفة الوضعية المعرفية والثقافية للمعني، ذلك لأن تحديد المستوى الثقافي والتكويني للمصاب أمر مهمٌّ ميكن من استبانة نوع العلاج الذي تتطلبه الحالة،

أسس كولين دعوته على قاعدة التهذب والتلطف، فما قد يصدّم الذهنيات والعقليات ينبغي أن يؤخّر، ويقدم عنه ما يكون للآخِر فيه نجاعة، ومقبولية.

للتواصل والتحاور، وبذلك يتسنى للداعية أن يُبلِّغ، ويحقق الفتوح.

أركان النظرية الإجرائية للفعل التوصيلي عند كولين

مرارا وجدنا كولين يُجملُ الإشارة إلى أطراف العملية التواصلية، من باث، وملتق، ورسالة، وملابسات الأمر الذي يبين أن التوصيل يقوم عنده على رؤية نظرية متمرسة، ومؤسسة على رسوخ التجربة والاحتكاك اللذين مضى عليه وهو يباشرهما في الميدان، أزيد من نصف قرن.

ولقد ألفيناه يوسع الإطار النظري لتوصيلته، بحيث أحاط بجوانب أوسع مما رأينا النظرية الشعرية عند الشكلايين^(٧)، أو التبليغية عند التداولين، تراعيه وتأخذ به.

ففي كتابه (الاستقامة في العمل والدعوة)، عرض علينا منظومة مبادئ، حوصل فيها الأسس الإجرائية التي تبني عليها عملية التواصل حين تغدو نشاطا ميدانيا، وإنجازا عمليا يباشر التغيير الفعلي، ويتصدى لإحداث الترميمات والتعديلات داخل كيان أصحاب المعنويات المأزومة روحيا، والمهزومة وجوديا.

لقد كانت دعوة كولن إلى إيجاد فقه للهجرة، دعوة إلى تجديد الرؤية وتحيين النظرة، وتجهيز الخطة بما يضمن النتائج الميدانية، وجعل العلاقة الجوارية جسرا تمر من خلاله قيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه.

www.nesemat.com

وتقدير مدة التعهد.

لقد ركز الأستاذ كولن الجانب الأكبر من القواعد والتنبهات في هذه الجدولة الإجرائية، على البعد الإحساني، إذ حسّس المرشد والداعية بمسؤوليته ودوره حيال من يتواصل معهم، ورسم له إطار مسؤوليته الأخلاقية والأدبية التي ينبغي أن يخصص بها، بل ولقد رأيناه يوجب على المرشد أن يكفل للمعنيين (المصابين) الحق الكامل في الحوار والإدلاء بأرائهم، دون ممارسة أي نوع من أنواع الضغط عليهم.

إذ ما أكثر ما توهّم الواعظ والداعي أنه بحكم وظيفته الدعوية، يمتلك سلطان الحسم، والكلمة الأولى والأخيرة في عملية التواصل مع مستمعيه أو من يتصدى لإنارة أرواحهم.

إن هذا الاعتداد الشخصي -زيادة على كونه يفسد الإخلاص، ويشوب نية الاحتساب- يُشوِّش على العمل الدعوي، ويعود على المقاصد بالنتائج السلبية. إننا في عصر ميزته الاستقلالية في الرأي، بل إنه عصر اللارأي، الأمر الذي يجعل الشخص، أي شخص، يتوهم أنه في حلٍّ من أن يتلقى التوجيه من غيره. من هنا شاع النفور من العروض الدعوية، والأطروحات التحلية.

ولا ريب أن مهمة عرض الدين والدعوة إلى الإيمان، مهمة شاقة بطبيعتها السجالية^(٨) ومأمورية لا مشاحة في تعقدها بحكم مقصديتها التغييرية، فهي مسعى يتوخى قلب البوصلة في اتجاه عكسي، ينعطف بالفرد نحو وجهةٍ تُناقض تماما الوجهة التي هو سائر فيها.

إنها نوع من تأميم الإرادة المنفلتة من عقال الحق، واسترجاعها من حظيرة الشيطان. بل إنها احتواء للنفس، واحتضان لها، لمرامي إعتاقية خالصة، فما أشبه الداعية بمستنقذ الغريق، إذ يتوهم الغريق أن منجده يبغي خنقه، وتغريقه، وهو في الحقيقة يناضل من أجل تخليصه من برائن الموت.

لقد بين القرآن مدى دقة موقف الدعوة والهداية إلى الإيمان، فمن فداحتها عبّر القرآن عنها بالثقل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥).

لقد كان ذلك الخطاب إشعارا للرسول ﷺ بأن ما سيتلقاه من القول، سيحوّله نهائيا إلى يقين لا يضل بعده ولا يشقى، وبأن تجربة التحول تلك التي سيستهدفه ﷻ، ستكون من العمق والصميمية، ما يجعلها تجربة طافحة بالانسلاخات المعنوية، غامرة -في نتائجها- بالمكاسب الروحية والقلبية، إذ إنها تحويل للماهية، وتغيير في صبغيات الكينونة، بل إنها صهر، وإعادة تخليق..

من هنا كان عمل الداعية ينطوي على المجازفة، وإذا لم يكن حكيما، وموهوبا، ومعزز الخطى بالفتح الإلهي، فإن جهوده تظل عقيمة، أو في أحسن الأحوال

يتميز كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" للأستاذ فتح الله كولن، بالكثافة العلمية الشديدة، بسبب حجم الغاية التي يتوخاها، وهي "إقامة صرح الروح"؛ أي إعادة صناعة حضارة راشدة، وصغر المساحة التي خصصها لذلك.

تكون بلا كبير مردودية.

وإذا ما أردنا أن نلقي نظرة على الحثيات التي تقوم عليها نظرية التوصيل الكونية، فسنقول إنها رجحت الجانب الإنساني، زيادة عن جانبها التقني الذي تقوم عليه معادلتها الجامعة بين أطراف العملية التوصيلية، نقصد: القول، والقائل، والمقول، والمقول فيه، والمقول له، فهذه النظرية مضى تداولها تترى منذ عهد القرطاجني (وارث الأرسطية في حقل الأدب)، قبل أن يعيد صوغها في العصر الحديث الشكلايون ومن سار على نهجهم، إلى أن رسختها ووسعت من إطارها نظريات التلقي، والإعلام، والتداوليات.. ولقد تطابقت في فحواها مع رؤية كولن في المرتكزات (أطراف العملية التبليغية)، إلا أنه أضاف إليها، نتيجة التمرس الميداني، من التعزيزات الإجرائية ما عمق من براغماتييتها.

إن المستوى الإنساني أو التعاملي جلي في رؤيته التبليغية، لإدراكه أن الدعوة تفعيل مركّب، يستهدف صقل أعلى ما يمتلك الإنسان، وأمن أمانة استودعها الله عنده، نعني الروح التي لا يحتمل الإنسان بوزاع الفطرة السليمة، أن يضع مقادتها في يد غير يده.

وإن عمل كل داعية هو على الحقيقة، إعتاق للنفوس من قيد الكفر، وتسريح لها من أسر الجحود. فعمل الداعية، من هذا الصد، أشبه -لكن من وجهة عكسية تماما- بما كان يجري في أسواق النخاسة، حيث يتم شراء النفوس المستعبدة، غير أن الهدف يومئذ كان احتكاريا، تقنيا⁽⁹⁾، فالشراء يجري لأجل الكسب والاستعباد، أما ما ينهض به الداعية اليوم، فهو إعتاق محض للنفوس من نير الضلالة.

ليس ببذل المال وحده يتم -اليوم في نهج الخدمة- تحرير الناس من الضياع الروحي، وما أعظم أن نسترخص المال في عصر سيادة الرأسمال، ونسخره في الدعوة إلى الله، وصنع الصالحات.

إن رجل الخدمة يمارس نوعا من الدعوة الميدانية، لها مردوديتها المباشرة.

رجل الخدمة، من هذا الصد، هو التجسيد الحي لدور الداعية، وهو ممثله، والقائم بدوره على صعيد الجغرافية.

رجل الخدمة ثمرة طيبة، تحققت على يد الداعية، وقوة مباركة تخرجت بإشرافه، وأنبثت تستزرع ما انخرس في روحها من أنواع الخير والإحسان.

في الخدمة تلتقي إخلاصية الداعية المرشد، والداعية المنفذ، وتتظافر الروحية الجماعية في صنع الخير والفلاح.

همة هذا من همة ذلك، وكلاهما مسخر، يستمد التوفيق من الله.

وإذا كان الداعية المرشد قد وقف العمر كله في

بعلوم النفس وتحليل الخطاب والتاريخ الحضاري للأمم والآداب والأنثروبولوجي، والاتصال، والتداولية، استعان كولن في بناء بيداغوجية توصيله.

www.nesemat.com

استصلاح النفوس، وتهيتها للقيام بالصالحات، فإن الداعية المنفذ يسخر ماله وولده، ويستغل أوقاته، ويستنفر قواه، ويصرف جهوده، ويعيش الاغتراب المادي بالهجرة إلى الآفاق، ويستغرقه البذل ما وسعه البذل، ويعيش متكففا إلى أقصى حدود التكفف، لا ينتظر من أحد أن يثني عليه، أو ينوه به، يحتسب ما كابد لله، يقضي نهاره في السعي، ويملاً ليله ركوعا وسجودا، كل دمعة تنسكب من عينه، يعدها قربي إلى الله، وجنة تحول بينه وبين النار.

وإذا ما عدنا إلى ما كنا فيه من حديثٍ عن إجرائية التوصيل الدعوي كما ضبطها الأستاذ كولن، فسراه قد أحصى الجوانب التي قدّر أنها تستوجب المراعاة، حتى يتمكن الداعية من أن ينهض بوظيفته التبليغية على أحسن حال.

ومن الواضح أن إرشادات الداعية في هذا الصدد، تخص الأفراد كما تخص الجماعات، إذ الدعوة تتوجه للفرد، إذا ما ربطت بيننا وبينه صلة، وسعينا إلى تنويره روحيا، وكذا تتوجه إلى الجماعة، فنفاعلها مفاعلة تقوم على الفهم الموضوعي لواقعها، وثقافتها، وتاريخية مجتمعتها وما مر عليه من أطوار ثقافية وأيديولوجية.

لقد اتجهت الخدمة في أوائل عهدها، إلى العمل في تلك البلاد التركمانية التي خرجت من حظيرة الاتحاد السوفاتي، حيث عاشت عقودا أيديولوجية تقوم على الجحود واللادين.. وكان من أهداف الخدمة أن تساعد الناس هناك على العودة إلى إسلامهم.

كما أن الخدمة التي انتشرت في سائر الآفاق، كانت تضع في أهدافها، أن تعرف المجتمعات بالإسلام، فكانت من ثمة وصايا الأستاذ كولن لرجال الخدمة، تضع بين أيديهم منشورا يسترشدون به في الدعوة، وفي ربط الصلات بمن يحتكون بهم في ديار المهاجر.

لقد جرّد الأستاذ كولن تلك المرتكزات التي تراعيها التوصيلية الدعوية، ورتبها على النحو التالي:

١- معرفة الحالة الروحية المهزوزة للفرد الجاحد (أو المجموعة)، معرفة موضوعية، إذ إن الوقوف على طبيعة الحالة، وخلفياتها، ومظاهر اعتلالها، يساعد على رسم الكيفية التي تعالج بها. وفي حالة الجحود أو الإنكار مثلا، لابد من تحديد نوع الإنكار، وطبيعته، وعلاته البيئية والمعرفية والنزوعية.

٢- معرفة المستوى الثقافي، والأفق الاجتماعي للمصاب، فإن إدراك قدرات من نخاطبه يتيح لك التحدث معه بالمستوى الذي يستطيع فهمه^(١٠).

٣- التزود الكافي من العلم، والاستيعاب الوافي للمادة المراد تبليغها، كي تتمكن من استيعاب الحالة، واحتواء جذورها الجلية والخفية.

٤- وفي مجال مفاعلة الظواهر الروحية المأزومة،

حادي الدعاة دائماً، هو "اصطناع وحملُ نيةٍ إيصال الحقائق القرآنية إلى الآخرين، لا نية إبراز أنفسنا"^(١٢). فليس للداعية إلى الهدى، إلا أن يترشد هو ذاته، ويتواضع، ويأخذ بآداب التواصل، وأخلاق التخاطب، "في مخاطبة الآخرين، علينا إعمال الفكر، واستخدام الأساليب التي لا تجرح، ولا تكسر الخاطر"^(١٣).

٥- مخاطبة قلب المخاطب، وضميره، بكل صداقية، إذ إن رأسمال العملية التوصلية يظل دائماً الصدقُ والحُبُّ، بعيداً عن أي شائبة من غمز أو تعريض، فالتجرد هو وضوء شعيرة التبليغ، ولا يحصل التبليغ بلا وضوء نفسي.

٦- عدم انتقاص المعتز أو تخجيله أو التهوين من شأنه أو تحقيره وإظهاره في مظهر المنهزم المكسور. فحفظ كرامة المخاطب، وصون عزته، أمر لازم، ولا مساس به.

٧- معرفة نفسية المتلقي، ومعاملته في ضوء تلك النفسية.

٨- العمل على تجنب المتلقي المصاب، الاختلاط بالمنكرين، ومَنْ تخلو قلوبهم من عشق العبادة.

٩- إتاحة فرصة الرد والتدخل والاعتراض لمن نباشر مفاتحته، والتواصل معه دعويًا.

١٠- أن يتجرد الداعية من توهمه أن المادة الخطابية والمضمونية المقدمة للمتلقين، هي ابتداء محض له، فالتشارك الفكري ظاهرة ثابتة، وكَم من فكرة نحسب أننا مخترعو بكارتها، هي فكرة رائجة في مدونات وخطب مَنْ سبقونا، أو حتى من

يتحتم على المعالج أو الداعية، أن يتسلح بالحكمة في التواصل، ويكون ذلك بتجنب أساليب الجدل ومحاولة الإقناع المجاني أو الإكراهي، لأن مغبة ذلك الجدل عكسية، إذ تتحول العملية التبليغية إلى تمزُّنٍ على المغالبة الشخصية والظهور الذاتي، وهو ما يخرجها عن سياقها الاحتسائي، لانحرافها إلى الأنانية، وإسباغ الأهمية على الذات.

إن من عوامل استبقاء صفاوة الإخلاص، أن يظل الداعية متصدياً لنزعات نفسه الأمارة، فلا يتردد في قهرها بكل قوة لدى شعوره بأدنى نأمة من غرور يلابسه، من قبيل مشاعر الزهو، أو العزُّو إلى الذات فضلًا ما قد يحصل من نجاحٍ إصلاحي على يده.

وفي هذا الصدد يُدكِّرُ الأستاذ كولن- من باب تأكيد قيمة التجرد- بما كان النورسي يضبط به نفسه على الدوام، إذ طفق يكبح من جموحها الغروري، ويردد: يا نفسي المرائية، لا تغتري قائلة: إنني خدمت الدين، فإن الحديث الشريف صريح بـ(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)، فعليك أن تعدي نفسك ذلك الرجل الفاجر، لأنك غير مزكاة^(١١).

فالغاية مما يشدد عليه الأستاذ كولن في هذا المجال، هو تلافي ما نراه تحول اليوم -على مستوى منابر الإعلام- إلى احترافيات نزقة، جعلت من حصص الوعظ تظاهرات يستعرض فيها الارتزاقيون ذواتهم، ويفضحون غرورهم، فيفسدون على الجمهور سجية التلقي والاستعداد، ويضرون بالمقام الترشيدي.

لذا نرى الأستاذ كولن، يؤكد وجوب أن يكون

للشخص الذي نتواصل معه، من حقوق، وتمثل في حريته في إبداء الرأي، أو في الحوار، وفي حفظ كرامته. على أن من أبرز ما تكرر التنويه به في منهج الأستاذ ورؤيته التوصيلية، استغلال عوامل الزمان والمكان والمناسبة.

لا شك أن المهمة الترشيدية التي استغرقته العقود المتتالية، قد رسخت فيه حس مراعاة الزمن، إذ إن دورة الأيام تشتمل على فُسْحٍ قدسية، ومواقيت مباركة، وأشهر حرم، وأعياد وفصائل.. وكلها مناسبات مهيأة لبث القيم الدينية، وغرس محبة العقيدة، وتزكية القابليات الروحية.

فإن البلاد التي تكون الأيديولوجية المادية تسودها، تقل فيها سوانح التزكية الروحية، إذ إن وجهة النظم الإلحادية، وجهة مادية بحتة، تتكسر بها الغفلة عن الإيمان بالله، وتنقطع الروابط بين روح الإنسان وما جبل عليه من نزوع إلى الغيب وإلى التطلع إلى الما وراء، من ثمة تستفحل الغلظة القلبية، والتحجر الوجداني، فيفقد الإنسان كثيرا من مقومات إنسانيته، ويترتب عن ذلك - في كثير من الأحيان - ازدياد حيرته الوجودية، ويتسع الفراغ في أعماقه، فلا يزال إما متوترا غير مدرك لعله توتره، وإما لهفان، مستعصا عما يفتقده من سكينه بمزيد من الإشباع الحسية، إرواء للعطش النفسي والروحي والوجودي، وإما متبلدا، متهافتا وراء اللذائذ الحسية، أشبه بالسائمة، همُّها العلف والترعة، متناسية أن حتفها في رعتها.

إن وعي الأستاذ العميق بأهمية مراعاة عوامل

يعاصروننا، لكننا لم نطلع فقط عليها.

من مقومات الدعوة والتبليغ في هذا العصر، التحلي بحلية التواضع والمحو والحياء فلنكن ترابا إذا ما شئنا أن نكون منبئا للورد^(١٤).

١١- الافتتاح في عملية التبليغ، بشرح ركني الشهادة، استكشافا لخلفية المتلقي، وما قد يكون سبق له من تحصيل في مجال التوحيد والإيمان والثقافة الدينية، ومن ثمة نضع وصفة العلاج. هكذا يلفت الأستاذ كولن نظر رجال الدعوة إلى جوانب يراها تفيد في مجال التعامل الدعوي.

وواضح أنه شاء أن يوفر للعاملين في سلك الخدمة، مدونة أو دليلا، يكون مرجعا لهم في تحسس طريقهم في مضمار التواصل مع من يتواصلون معه. وواضح أن هذه المدونة النظرية قد راعت أربعة أركان:

- ما يتعلق بشخص المرشد أو الداعية، ويتمثل عموما في ما ينبغي أن يتحلى به من مقومات التأدب والمصدقية الأخلاقية.

- ما يتعلق بالعدة الموظفة في عملية التبليغ، وتمثل في الكفاءة العلمية، والخبرة، وموضوعية التشخيص ووصف الدواء.

- ما يتعلق بالإطار الحيوي الذي تجري فيه عملية التواصل، ويتمثل في تهيؤ البيئة، وبناء العلاقات التي تساعد على تحقيق القصد الدعوي، التنويري، واستزراع بذرة الإيمان.

- ما يتعلق بعلاقة الداعية بالمدعو، وما يكون

مواعيد نعقد فيها ندوات المذاكرة والذكر، تخصيصاً للمغارس القلبية والروحية لدينا. على أن إحياءنا لهذه المواقيت التي جعلها الله فرصاً دورية مواتية لتجديد الهمة وإخراج النفوس مما يعروها من أعراض الغفلة، لا ينبغي أن يمر دون أن نقوم بإجراء عملية تقويم لما ظفرت به القلوب من ربح، وما حققتة البرامج والأنشطة الروحية من مكاسب،" فإذا لم تبلغ بنا هذه البرامج والأنشطة إلى ذاتنا، ولم ترشدنا إلى سبيل معرفة أنفسنا، فإن هذا يعني أننا نشتغل بما لا طائل من ورائه". ■

الهوامش

- (^١) كولن، الاستقامة في الدعوة ترجمة أورخان محمد علي. وعبد الله عنتر محمد. دار النيل ط ١. ٢٠١٥.
- (^٢) أردت أن أقول سُمّيتي، فالمعنيان مترادفان في هذا السياق
- (^٣) كولن، الاستقامة ص ٢٥٧
- (^٤) أوردنا فتوى النورسي هنا بالمعنى، حين سئل عن القبعة وهل تجوز الصلاة بها. انظر الرسائل.
- (^٥) لقد جعل من أبرز شعاراته "وليتطف". وهو شعار الفتية أهل الكهف، في مباشرتهم للحوار مع أهل ذلك الزمان، حين انبعثوا من رقدتهم.
- (^٦) كولن، شد الرحال لغاية سامية، ترجمة عبد الله عنتر ود. عبدالرازق أحمد. دار النيل ٢٠١٤. ص ١١٩
- (^٧) وتخصيصاً عند جاكوبسون.
- (^٨) رأينا كيف يسجل كولن ما لموقف مواجهة الجمهور من مشقة.. انظر كتاب الاستقامة، وكتاب شد الرحال وكتاب ونحن نبني حضارتنا.
- (^٩) من القناعة، أي الاستعداد
- (^{١٠}) كولن، الاستقامة، ص ٩٧
- (^{١١}) كولن، شد الرحال، ص ٢١٦
- (^{١٢}) كولن، الاستقامة، ص ١١٧
- (^{١٣}) كولن، شد الرحال ص ٢٤
- (^{١٤}) كولن، شد الرحال، ص ٦٤
- (^{١٥}) كولن، شد الرحال ص ٢٥

الزمان والمكان والمناسبة، جعله يبني نشاطه العلمي على مخطط تضبطه الأجندة، وتعليه الشروط والملابسة لحركة الحياة، ومسيرة المجتمع.

لقد رأينا في يومه بأهمية الأشهر الحرم، ويراها تحل ببركات معنوية محسوسة على المجتمع والأوساط، ومن ثم كانت دعوته إلى وجوب التجند القلبي خلالها، لتحصيل الغنائم، سواء بما يتاح للداعية والمرشد ذاته من ساحة للتجدد، أو من خلال ما يحصل على يده من بركات تعم مزيداً من الفئات والقطاعات.

فقداسة الزمان مثل قداسة المكان في الأهمية والتأثير، وإن استشعار العبد المؤمن لاستثنائيهما، واستظهار ما تستحقه تلك الاستثنائية من مشاعر الإعلاء والتمجيد في نفسه وقلبه، مما يُحوّلها إلى سوانح وفضاءات تعم فيوضاتها، وتزكو مباحجها القلبية. وإذ يرفع مكانة المواقيت المقدسة، نراه ينبه إلى الكيفية التبتلية التي ينبغي للمؤمن أن يعيش بها تلك المواقيت "إن استشعار الفيوضات التي تغمزنا من رأسنا إلى أخمص قدمنا، في هذه الأشهر المباركة، مرهون بداية، بالإقرار بها، والإقبال عليها، لأن التوجه يقابل بالتوجه" (^{١٥}).

ولما لأهمية أيام وليالي الفضائل من أثر حميد على الأرواح والنفوس، نرى الأستاذ كولن يوصي بأن تتخذ مناسبات للاعتكاف، تتكثف برامجها، وتتسع أنشطتها، فيشترك في إحيائها البيت، والمسجد، والمدرس، ومجالس العلم، والجماعات، أي أن نجعل منها مهرجاناً تعبدياً، تتحول فيه لقاءاتنا وصلاتنا إلى



محمد جكيب

أ.د. محمد جكيب،
أستاذ بجامعة شعيب
الدكالي بالمغرب، حصل
على دكتوراه الدولة في
الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو
رابطة الأدب الإسلامي
العالمية منذ سنة ١٩٩٤م.
عضو مؤسس لمنتدى
الحوار الأدبي. مؤلف كتاب
"أشواق النهضة والانبعث
قراءة في مشروع الأستاذ
فتح الله كولن الإصلاح".
شارك في عديد من
المؤتمرات والندوات
المحلية والدولية داخل
المغرب وخارجه.

حكمة الغربية وخطابها في كتاب الغرباء

يحدد كتاب "الغرباء" وفتح الله كولن الوصفة المحصنة للإنسان الجديد من أمراض الطريق، ويجعل "العشق" اختياراً لا محيد عنه رغم كل شيء، رغم المشانق والسجون والمطاردات والتضييق ورغم النفي ورغم كل شيء، لقد بذر هؤلاء الغرباء بذرتهم، واستقرت في تربة هذا العالم، وسيسقيها "الغرباء" بدموعهم ودعواتهم وتوسلاتهم للأقدار بأن تزهر في قريب الأيام... هذا هو ما تقوله عناوين كتاب "الغرباء"، إنها تعلن بأعلى صوتها، إننا وإن كنا غرباء بقيمنا وعشقنا عن واقع هذا العالم، فإننا الأحياء حقاً لأن طاقة "العشق" التي تشربتها قلوبنا وجوارحنا هي الآن منهمكة في شحن العالم بهذه الطاقة الإيجابية...".

تلك كانت وجيزة الوقفة التي وقفها الكاتب مع عتبات كتاب "الغرباء" للأستاذ كولن، الذي صدر حديثاً عن دار الانبعث بالقاهرة، وهو الكتاب الثاني من سلسلة كتاب نسيمات. الكتاب هو مجموعة من مقالات الأستاذ كولن التي نشرت في افتتاحيات مجلة حراء في أوقات متفاوتة، بدءاً من عام ٢٠٠٥ حتى شهر مارس عام ٢٠١٨.

أما قبل

ف

فإن قراءة الأستاذ فتح الله كولن ليست بالأمر السهل، لأنه يفرض على متلقيه وقرائه عدم قراءته قراءة عابرة، ولا قراءته قراءة واحدة، لأن عالمه الفكري لا يعطيك كله في قراءة واحدة، ففي كل قراءة يعطي المتلقي بعضه، ويدفعه دفعا إلى العودة إليه مصدرا للتزود المعنوي ومصدرا للزاد الفكري ومعينا للحلول الوجودية المتصلة بالإنسان في علاقته بالوجود وخالق الوجود، ومن هنا فإن قارئ عالم فتح الله كولن ملزم بأن يتسلح بعناد ضروري حتى يتمكن من التفاعل إيجابا مع هذا العالم، ومن أهم ما يجب على المتلقي التسلح به وهو مزعم الدخول إلى هذا العالم هو الوعي بالسياقات الكبرى، التي أحاطت بحياة فتح الله كولن باعتباره مفكرا إصلاحيا ومنتقفا حركيا، برزت قوة شخصيته في فقهه العميق لتفاصيل الواقع واستيعابه الكبيرة لحركية التاريخ وصورته، وكتابه "الغرباء" الصادر في بحر سنة ٢٠١٨، كتاب يحتم استحضار السياق العام، الذي صدر فيه، وأخذ هذه السياقات بعين الاعتبار، لأن من يدخل عالم هذا الكتاب وهو على وعي بسياق الصدور، أو لنقل وهو على وعي بأسباب النزول، الكتاب يقترح نفسه على المتلقي في بعده العام، وعلى المتلقين الذين يفترض أنهم يعرفون فتح الله كولن.

في ضوء الملاحظات السالفة فإن الكتاب يقترح على قرائه أن يُقرأ والذهن منفتح على التاريخية والتحويلات

التي يمر بها العالم، والتي فرضت نفسها بقوة إلى درجة استحالة صرف الطرف عنها أو تجاهلها. ومن جهة أخرى فإن قراءة الكتاب يفرض استحضار مضامين تلك الحوارات، التي قدمها الأستاذ فتح الله كولن لوسائل الإعلام الدولية، لأن لهذه الحوارات وسياقها أهمية قصوى في التفاعل الإيجابي مع هذا الكتاب.

أما بعد

فإن كانت الأحداث الأخيرة والحملة التي تعرض لها فتح الله كولن قد أعطت انطبعا لدى الرأي العام المتابع بكون الرجل شخصية ذات بعد سياسي، إلا أن الكتاب يأتي في هذه المرحلة ليؤكد أن الرجل مفكر ومنتقف وعالم، بل ليؤكد أن أبعاده الفعلية هي العلم والفكر والحكمة.

التأمل في الأحداث التي ارتبطت بفتح الله كولن توحى بأن اهتمامه منحصر في رقعة جغرافية محددة وهي تركيا، إلا أن الكتاب يأتي لينزع البعد المحلي عنه، ويؤكد الطابع الإنساني العام لحكمته التي يتعذر نزع صفة العالمية عنها، ولعل هذا البعد هو أحد أهم أسباب الخلاف بين الرجل والزعامة السياسية القائمة في تركيا، ربما لأن الرجل رفض وضع رصيده الإنساني العالمي رهن إشارة السياسة التي لا تعترف بالمواقف الثابتة وتتنزع إلى الابتعاد عن القيم والأخلاق. ففتح الله كولن في "الغرباء" يخاطب العالم كله مؤكدا بأن الغربة هي قدر كل من انضوى تحت مظلة الحكمة والتبصر، وتصدى للانحراف الفكري بالسبل المشروعة ما وسعه السبيل إلى ذلك.

التأمل في الأحداث التي ارتبطت بفتح الله كولن توحى بأن اهتمامه منحصر في رقعة جغرافية محددة، إلا أن كتاب "الغرباء" يأتي ليؤكد على الطابع الإنساني العام لحكمته التي يتعذر نزع صفة العالمية عنها.

www.nesemat.com

قبل الدخول إلى عالمها الداخلي، وإلا كان الدخول تسلا غير مشروع، أو إتيانا للبيوت من غير أبوابها، أو على الأقل قد يفوت على المتلقي الكثير مما قد يكون حاسما في أبعاد النص/النصوص. وكتاب "الغرباء" بالتحديد يفرض على المتلقي الوقوف عند العتبات وخاصة عند عتبة العنوان، لأنها تقول أشياء كثيرة، ومن يعرف فتح الله كولن الكاتب، يعرف أن عناوين كتبه ليست عناوين اعتباطية بل هي عناوين دالة، تتضمن أبعادا تغري المتلقي بدخول عالم النص حتى يكتشف ما كشفت العتبات وخاصة العنوان دلالاته. لم يشذ فتح الله كولن في هذا الكتاب الجديد عن القاعدة، فعنوان "الغرباء" يحمل العديد من الدلالات والإيحاءات التي ضمنها المرسل قصدا، وهو يريد من متلقيه إدراكها وفك شفرتها، وكأن العنوان يبعث بتحدٍ يمتحن نباهة المتلقي في كشف إيحاءات العنوان وأبعاده. إن كشف إيحاءات العتبة/العنوان ليس ترفا لغويا، ولا مجرد ترف بياني يورد الجزء ويقصد الكل، بل هو أكبر من ذلك، فهو يحتاج من المتلقي ألا يتوقف عند التدايمات اللغوية والبيانية، وأن يجتاز ذلك إلى ربط العنوان بسياقاته التاريخية الراهنة، وفي الغالب لن يخرج السياق عن تلك الظروف الصعبة التي مر بها

إن شعور الغربية إحساس ثابت في أصل فطرة الإنسان، يلهب أواره كلما تعارضت قيم الذات وقيم الواقع، وقد يجد البعض هذا الشعور نوعا من أنواع الفرار، ومدخلا من مداخل الانهزام، ولونا من ألوان الانزواء بعيدا عن الواقع وعن المجتمع. وقد يعتبره البعض صيحة مدوية ترتفع عاليا عندما تجد الحكمة نفسها في مواجهة واقع منحرف تتحكم فيه المصالح المتوحشة والدوافع الغريزية.

كتاب "الغرباء" تجسيد لمظاهر الغربية في بعدها الإيجابي، بل هو دعوة صريحة إلى التبصر والحكمة، وصيحة مكتوبة بدم المعاناة في فضاء يحكي قصة ذلك الصراع الدرامي والأبدي بين الخير والشر، ويحكي حكاية غربة الخير في زمن الانحراف. وهو كذلك تجسيد لصوت الحق في وجه الظلم، وتجسيد لموقف الاستضعاف في مواجهة الاستكبار.

هذا الكتاب أو هذه الصيحة عرض دقيق لمفهوم الغربية في أبعادها الإيجابية المتطلعة إلى البناء، وهو بقدر ما يحتويه من مشاعر صادقة وأحاسيس فياضة، بقدر تعبيره عن رؤية موقف تجاه تناقضات الواقع، بل هو رؤية أخلاقية تشع قيما سامية لا يخطئها المتأمل، ولا تتغلق عن الراصد، كل ما في الكتاب يؤكد ذلك بدء من العتبات، وانتهاء بالعمل كله.

العتبة ومشروعية الدخول

إذا كان لكل شيء مدخل وعتبة ينبغي المرور منها للولوج إلى الداخل أو إلى العالم الداخلي لكل شيء، فإن النصوص كذلك ذات عتبات ينبغي المرور منها

الواردة في الداخل أو ليضيء عالم النص باعتباره كلا، وما يؤكد هذه الملاحظة هو كون هذا العنوان عنوان مقالة من مقالات الكتاب، فإذا جرى تبئيره ورفع مقامه ودرجته ليصير فوق كل العناوين/ النصوص الأخرى، ولم يرفع إلا ليمارس تأثيره في توجيه القراءة، فلا شك أن لكل العناوين الواردة في الكتاب دلالة معينة، لكن عنوان "الغرباء" اكتسب الصفة الأبوية على العناوين الأخرى، وظله حاضر مع كل عنوان وفي كل نص. وبعبارة أخرى إن "الغرباء" باعتباره عنوانا أبويا هو المفتاح الذي يفتح مغاليق كل العناوين الأخرى، وكأن لكل مقالة من مقالات الكتاب عنوانا ضمنيا هو "الغرباء" وآخر فعلي هو عنوان المقالة. لا تتوقف إحياءات "الغرباء" العنوان القضية عن توليد ما يشد المتلقي، وهذه المرة من خلال تبئير اسم المؤلف وهو فتح الله كولن، إذ توحى القراءة الأولية أن يكون المقصود هو أن المؤلف سيبين مفهوم الغرباء من وجهة نظره، وكأنه يتجه إلى المتلقي الذي تسلم بما يكفي من معطيات سياقية وهو يتلقى الكتاب أو يتعرف عليه، وقد يكون هو أن المؤلف نفسه هو أحد الغرباء إن لم يكن حكيمهم في هذا العصر.

فتح الله كولن هو عقل حركة الخدمة، وواضع منظومتها الأخلاقية ومنظرها الفكري وملهمها العملي، وهو الذي ربى عددا من المرشدين في ضوء هذه المنظومة، وحثهم بعد ذلك على الانتشار بين ثنانيا المجتمع والعمل على إصلاحه في كافة مجالات الحياة، وجعل ما تشبخوا به من قيم سلوكا عمليا غايته تغيير المجتمع إلى الأفضل، خدمة للمصلحة العامة ولمصلحة

"الغرباء"، هم هؤلاء المتشبهون بشعار "لا حياد عن الحق رغم فساد واقعنا، ورغم فساد من يؤثثون هذا الواقع"، و"الغرباء" عنوان ورؤية للعالم تقوم على الاحتضان، في مواجهة رؤية تتأسس على الاستكبار.

أبناء الخدمة، والتي جعلت من صاحب الكتاب محط اهتمام المهتمين، ناهيك عن الحملة التي تعرض لها إلى درجة اتهامه بتدبير انقلاب عسكري للاستيلاء على الحكم في بلده. والجدير بالذكر في هذا المقام هو افتراض معرفة المتلقي بالكتاب وبالحركة التي التفت حول فكره ورؤيته الحضارية.

أول اتصال يربطه المتلقي بعنوان "الغرباء" سيتكون لديه شعور بأن العنوان يرمز إلى أولئك القابضين على الجمر، لأنهم قبضوا على دينهم، ولم تنزع مبادئهم وظلوا متشبثين بقيمهم رغم كل ما يتعرضون له من أصناف التضيق والمحاصرة والمتابعة. ف"الغرباء"، هم هؤلاء المتشبهون بشعار "لا حياد عن الحق رغم فساد واقعنا، ورغم فساد الناس الذين يؤثثون هذا الواقع"، و"الغرباء" كذلك عنوان وقضية، بل هو عنوان ورؤية للعالم تقوم على الاحتضان، في مواجهة رؤية تتأسس على الاستكبار.

العنوان مقصد وإضاءة

"الغرباء" عنوان يتضمن حمولة مقصدية ظاهرة يعسر القفز عليها وتجاهلها، بعبارة أخرى إن هذا العنوان يتضمن دلالات وإحياءات مقصودة، ولذلك جعل ثريا فوق النص/الكتاب ليضيء عالم النصوص/المقالات

ما يقترحه "الغرباء" هو رؤية ترفض توظيف القيم والأخلاق، والدين بصفة عامة وسيلة لتأليب الحشود وتوظيف سيكولوجية الجماهير لتبرير المواقف والسلوك والتصرفات، تحقيقاً لمصالح ضيقة...

www.nesemat.com

الإنسانية كلها، ولما تعارضت هذه القيم مع قيم المجتمع استحق هذا الرجل الملهم ومن معه المحاصرة، وأعلنت الحرب على الخدمة ورؤيتها الحضارية في كل مكان، ولم يسلم من هذه الحملة حتى المؤسسات التي أنشأتها في مجال التربية والتعليم خارج تركيا، فأغلقت العديد منها في دول كثيرة.

تؤديه في الواقع، بل لقد صارت المصلحة الفردية، التي تغلب عليها الأيديولوجيا والفلسفة المادية هي الموجه، إلى درجة أن صار الدين باعتباره منظومة قيم ومنظومة أخلاقية مجرد وسيلة لتبرير الفوضى والتسلط والظلم والصراع والفتنة، إلى غير ذلك مما هو ناتج عن توظيف الدين وقيمه بعد أيديولوجي. ولا حاجة للتنبيه أن ما يقترحه "الغرباء" هو رؤية ترفض توظيف القيم والأخلاق، والدين بصفة عامة وسيلة لتأليب الحشود وتوظيف سيكولوجية الجماهير لتبرير المواقف والسلوك والتصرفات، تحقيقاً لمصالح ضيقة مزرکشة بألوان سياسية في الغالب، ولا يخطئها إلا المغفلون.

أما الاتجاه الثاني فأساسه الإيمان برؤية، والاعتقاد بوجاهتها رغم المصاعب والفتن المصاحبة لهذا الإيمان والاعتقاد، فـ"الغرباء" جزء من ذلك النداء الذي توشح به الأنبياء والرسل جميعاً وتشبث به أبطال الحق في كل زمان رغماً عن الاستكبار ورغماً عن الموانع التي لو استطاعت ملء كل المنافذ في السماء والأرض لما ترددت، و"الغرباء" كذلك هو نداء من سلك درب الحق والعدل يريد الإصلاح والصلاح، وصوت أولئك

الرؤية الحضارية التي ظلت الخدمة تبشر بها وتعمل على تنمية مقدراتها بوعي فكري ومعرفي، وروح متسامحة، لا يخطئها النظر الحصيف، لم تعد تستجيب للتحويلات الكبرى التي رصدها من عزموا أمرهم على محاصرة فكر هذا المشروع الحضاري لأسباب سيكشف التاريخ القريب ماهيتها، ومن هنا فليس مستغرباً أن تستحق الخدمة العنوان الذهبي "الغرباء".

إضاءات المقدمة

انتقال القارئ المتلقي إلى عتبة المقدمة سيطلعه على إضاءات كثيرة تؤكد الأبعاد الدلالية لعنوان "الغرباء"، وتؤكد إيحائه ومقصدية، لتؤدي هذه العتبة مهمتها الأساسية وهي استيعاب أبعاد النص ودلالاته وإدراك كل إيحائه. وعلى هذا الأساس فالمقدمة موجه ضروري للقارئ/المتلقي وهو يهم بدخول عالم النص، فـ"الغرباء" باعتباره عنواناً مركزياً يوجه نظر المتلقي في اتجاهين:

الاتجاه الأول هو كون القيم والأفكار التي يحملها حكيم الغرباء، أفكار قد توصل بالجنون لأن الرؤى السائدة لم تعد ترى للقيم والأخلاق بصورة عامة دوراً

وهو تحد يريد جعله مشتركا بكل كيانه في قراءة الكتاب، لأن اللحظة التاريخية وسياقها يفرض ذلك، فقراءة المتعة والتسلية مجرد نافلة يمكن الاستغناء عنها، لأنها حاجز وحجاب يحول دون نفاذ هذا المتلقي إلى عمق فكرة الكتاب واستيعاب مقصدية مقالاتها، ومن هنا فالإنسان الذي لا يجد في داخله -وهذا هو ما توحى به المقدمة- داعيا يلح عليه في طلب الحق، وإذا لم تكن الحسنة ضالته، وإذا لم يكن ملحا في البحث عنها، فلن يدرك مضامين الكتاب العميقة، لأن ما في الكتاب من رؤى وأفكار وحزن وآهات وآلام، قد يعتبرها من لا يحمل قلبا حيا ينبض بالحياة الحققة، جنونا ونغمة نشاز عن هذا العصر، وبالمقابل سيجد من لا يعرف فتح الله كولن، فضلا عن يعرفه حق المعرفة أنه يكاد يحترق من شدة حرارة ما يعتلج في قلبه من حزن وألم وتقطع قلب على ما آل إليه الإنسان وواقعه من تردّد أخلاقي وابتعاد عن القيم وابتعاد عن الدين، بل سيجده قلبا يتقطع ألما على كل من افتقدوا الحكمة واتخذوا من القيم والأخلاق والدين أيديولوجيا لتبرير المواقف والمصالح الضيقة.

يتبادر إلى الذهن سؤال عن هوية كتاب "الغرباء" وطبيعته هل يقرأ الكتاب قراءة متعة وتمضية الوقت خارج تاريخية نزوله وسياقه؟ ولرفع اللبس ينبغي الإشارة إلى أن أهل القلم صنفان:

-صنف يكتب من أجل التسلية، ومن أجل الإمتاع والمؤانسة ملبيا هاتف البحث عن ذلك في الإنسان، فهذا النوع من الكتابة يجد غايته وجماليته منحصرة

ليس الغريب من ابتعد عن وطنه أو أهله وخطائه، لكنه من اغترب في مجتمعه حالاً ومنهجاً وسلوكاً. فهو الحامل لأحلام سامية وغايات أخروية، المضحّي بملذّاته الشخصية من أجل غيره، والمتألق بهمته العالية وعزيمته الخارقة".

الذين تحرر فكرهم من ربة العبودية لغير الله، وتحرروا من تسلط سلطة المادة، ودافعوا عن ذلك كله بالطرق المشروعة ودون الحياء عن الحق قيد أملة. تقول أول فقرة في المقدمة محددة لسياق التلقي: "قراءة ما كتب الأستاذ فتح الله كولن في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية، لا تعدو أن تكون إمّا ضربا من ضروب الجنون، أو لونا من ألوان الإيمان:

جنونٌ؛ لأنّ كلّ ما يصدر عن الأستاذ من أفكار تكاد تجد نفسها غريبة عن زمانها، مثالية على ما يبدو أكثر مما اعتاد الناس، أو واقعية أبلغ مما تخيله الناس؛ إذن هي أفكار غريبة ليس لأنها جاوزت نصابها، أو انحرفت عن خطها؛ لكن لأنّ الناس مالوا وانجرفوا، فابتعدوا عن المركز "كأنهم لا يعلمون".

وإيمانٌ؛ لأنك تكاد تلمس لهيبا حارقا وأنت تمارس عملية الفهم المضنية لما ترسمه يد الأستاذ وهو بيدئ في واقع الأمة ولا يعيد؛ واقع مرّ مريّر، وسرابٌ يحسبه الظمان ماء "حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيِّئًا وَّوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ".

تكاد الفقرة الأولى من المقدمة تتحدى المتلقي،

"الغرباء" هو نداء من سلك درب الحق والعدل يريد الإصلاح، وصوت الذين تحرر فكرهم من ربقة العبودية لغير الله وتحرروا من تسلط سلطة المادة، ودافعوا عن ذلك كله بالطرق المشروعة ودون الحياد عن الحق قيد أنملة.

www.nesemat.com

مفتاحا يفتح ما في مقالات الكتاب مقالة مقالة من رؤى وأفكار ومواقف.

وتسترسل المقدمة في بيان عالم العنوان، وهو عالم فسيح يحتضن الكون كله، لكن من زاوية من ترك السلبية جانبا، وتوشح برداء الإيجابية، ولم يتوقف عند لحظة الألم باكيا، بعبارة أخرى إن من يتفاعل مع هذا العنوان إنما يتفاعل مع الكون كله، والإشارة هنا ليست مقصورة على الأبعاد الإيحائية التي تفوح من العنوان، بل هي منفتحة على كل العناوين الواردة في هذا الكتاب، وعلينا ألا ننسى بكون هذه العناوين قد ازدادت وازدادت رونقا بتعليق عنوان "الغرباء" كالثريا فوقها لتضيء عالمها، فهي دعوة لقراءة كل عناوين الكتاب في ضوئه، فطيف حقيقة "الغرباء" تضيء فضاء كل نص وكل عنوان، والبنية التركيبية لـ"الغرباء" جعلته عنوانا متصلا بالكتاب كله، فإذا اعتبر هذا العنوان مبتدأً، فالكتاب هو الخبر، وهو أيضا كل عنوان مقالة على حدة. يقول فتح الله كولن مبرزا حقيقة الغرباء ومن يكونون: "الغرباء ثلة من أبطال القلوب وفدائيي المحبة، وقلة من الأطهار المجهولين. أنين متواصل هم، وتأوهات ممتدة لا تنتهي، وحرقة

في هذه الدائرة قد لا يتعداها، فدورها مقصور على تغذية مشاعر المتلقي وإشباع عواطفه، والإنسان بطبعه متشوق لذلك، خاصة إذا كانت ملتزمة بالحد الأدنى للقيم والأخلاق، وكتاب "الغرباء" قد يتوسل ببيان ومنهج هذا الأسلوب، لكنه حتما ليس للتسلية. وأما الصنف الثاني من أهل القلم، فهو الذي يحمل الهم والهمة، ويحمل على عاتقه مسؤولية هم ثقيلة تتجاوز الذات إلى الغير وإلى الآخرين، صنف يعيش لأجل الآخرين أينما كانوا ومتى ما وجدوا. صنف يحمل في قلمه المشدود إلى قلبه هم تغيير العالم إلى الأصلاح ودفعه دفعا إلى ما فيه مصلحته، فهذا القلم دأبه البحث عن الحلول لمشاكل عالمه، ولذلك فإن ما يكتبه هذا الصنف من أهل القلم إنما يكتب للتأمل والتفكير، ويكتب من أجل أن يبقى رؤى خالدة ومرتكزات نظرية للتفاعل والتنزيل الواقعي، لأن مداد هذا القلم خلق ليعيش فوق الزمن. وقلم كتاب "الغرباء" يستمد مداده من مداد هذا القلم.

الكتاب في أصله مجموعة من المقالات كانت مجلة حراء نشرت بعضها مقالات افتتاحية، وكونها كذلك يؤكد أنها مقالات كتبت لكي تظل موجها نظريا ورؤيوية لكل من يريد الانخراط في إصلاح العالم. إن احتلال أغلب هذه المقالات لمقام الافتتاحية يحمل أكثر من دلالة بالنظر إلى الرؤية التي كانت مجلة حراء تتحرك بها ومن خلالها، ولا شك بأن اختيار عنوان "الغرباء" ليكون قاسما مشتركا بين هذه المقالات كلها، دليل آخر على كون هذا العنوان

هو مزيجٌ من المعنى لا يملك العقل إدراك مده، ولا القلبُ الغوصُ في قاعه؛ إذا لم يكن عقلاً فطناً مؤيداً بالوحي، وإذا لم يكن قلباً حياً مشدوداً إلى الفردوس الأعلى، مشدوهاً متوتراً بما كان وما سيكون... عقلاً لا يستظل نهاراً إلا بشمس القرآن الكريم، وقلباً لا يسري ليلاً إلا تحت ضوء نبي القرآن ﷺ. " فالكتاب قد يكون لعموم الناس، لكنه من الراجح أنه موجه على وجه التحديد لكل الغرباء في كل زمان وفي كل مكان، لأن مقالات الكتاب تعمل على التقاط همسهم الساري منذ زمن بعيد بين ثانيا الكون والوجود، وهو كذلك التقاط لنبض من احتضنوا الوجود كله التماساً لإيقاعه في دواخلهم، يقول الأستاذ مؤكداً هذا المعنى: "الغرباء أزهار شقت بأكامها أديم الأرض مبكرة قبيل الربيع. أزهار الفجر تلك، تواجه الثلج والجليد في كل بقعة تبرز فيها، تنتصر عليهما، ثم تخوض معركة بطولية مع العواصف والأعاصير. فما أروع أزهار الثلج ترسل بغمزاتها إلى الشمس، وتلوح بمناديلها البيضاء وسط الثلوج الفضية تغنّجاً ودلالاً!.. وما أعظم قدر الغرباء في الملأ الأعلى.. أولئك الذين انطلقوا نحو النور مهللين بهتافات النصر!.. فهم يظهرون قبل أن تسقط الجمره الأولى على الثلج، وقبل أن يذوب الجليد. يواصلون حياتهم بمشقة وعنت، يبارزون المخاطر الجسام التي تتصدى لهم، فيصابون بجراح قاتلة، وينزفون، وتخور قواهم، وتتداعى أجسامهم. يغادرون الحياة دون أن يذوقوا منها أي لذة في معظم الأحيان، يغادرونها وقد "باتوا خراباً وتراباً"، لكن يغادرونها مغادرة

مركز الكتاب هو "الغرباء" الموصول بخط معنوي يدور في كل اتجاه، وفي كل دورة تزداد دلالة الغربة تعمقا، لكن هذا البناء رغم دورانه فإن طرفه الأخير منفتح على المستقبل وعلى الآفاق البعيدة والوجود.

أليمة تكوي الفؤاد كياً. إنهم عُشاق حقيقة سامية وناشرو رسالة نبيلة. في سبيلها يتعرضون للأذى والأم، ومن أجلها يُطردون عن الأبواب. تلفحهم عشرات المخاطر كل يوم، وتتهدهم إنذارات الموت كل لحظة، وتتهمر عليهم ألوان الإهانة والتحقير كل حين، تلك هي حياة الغرباء.

ليس الغريب من ابتعد عن وطنه وداره أو فارق أهله وخلّانه، إنما الغريب من بات مغترباً في مجتمعه حالاً ومنهجاً وسلوكاً. فهو الحامل لأحلام سامية وغايات أخروية، وهو المضحّي بملذّاته الشخصية من أجل غيره، والمتألق بهيمته العالية وعزمته الخارقة". وتسترسل المقدمة في بيان من يدركون هذه الأبعاد، بعبارة أخرى ليس كل متلق مؤهلاً لأن يدرك هذه الأبعاد، وكأن المقدمة تريد اختيار وتحديد متلقيها، وهم أولئك الذين احتضنوا الكون كله بصدق ومدوا خيوط جوارحهم للتفاعل مع هذا العنوان الثريا. تخبر المقدمة متلقي الكتاب بأن: "كتاب "الغرباء"، ليس كتاباً من الكتب، وليس مقالا ضمن المقالات، وليس سفراً يُلحق بالأسفار؛ وإنما هو واحة ودوحة، جنة وجنان، سماء وأرض، ماء وخضرة، حبٌ ووفاء، صبر واحتراق، سماحة وسلام، بكاء وألم...

إن مقالات كتاب "الغرباء" تشكل مجتمعة رؤية واحدة، بل هي حلقات رؤية واحدة تكون في الأخير مشروعاً للانبعاث من جديد، وعنوان "الغرباء" هو المفتاح الذي يفتح كنوز هذا المشروع.

www.nesemat.com

ولأن حياتهم القلبية مفعمة بالأمل ولذلك فهم لا يتوقفون عن القيام بوظيفتهم، لإدراكهم بأن حياة أخرى تنتظرهم، وبأن جزاءهم هناك. وأما الغرباء بل البؤساء فلانعدام الحياة القلبية لديهم ولانعدام الإيمان في حياتهم ولأنهم لا ينتظرون حياة أخرى بعد الموت، ولاعتقادهم بأن العدم ينتظرهم بعد الموت فغربتهم مجرد حمل ثقيل، ومجرد حمل لا طعم له، ولا يجدون له لذة. وشتان بين الغربتين، بين غربة الرؤية والفكر والحركية، وبين غربة اللاأدرية وغربة الأفق المنعدم.

المقدمة وتكاملية الوجود

وفي عتبة المقدمة يجد القارئ المتلقي وجوداً متكاملًا يدعو المتلقي إلى احتضانه، فكتاب "الغرباء" ليس كتاباً من الكتب، وليس مقالا ضمن المقالات، وليس سفرًا يُلحَق بالأسفار؛ وإنما هو واحة ودوحة، جنة وجنان، سماء وأرض، ماء وخضرة، حُب ووفاء، صبر واحتراق، سماحة وسلام، بكاء وألم... هو مزيجٌ من المعنى لا يملك العقل إدراك مده، ولا القلب الغوص في قاعه؛ إذا لم يكن عقلاً فطناً مؤيداً بالوحي، وإذا لم يكن قلباً حياً مشدوداً إلى الفردوس الأعلى، مشدوها متوتراً بما كان وما سيكون... عقلاً لا يستظل نهاراً إلا بشمس القرآن الكريم، وقلبا لا يسري

الأبطال. فعندما يأوون إلى حضن التربة لا يتلاشون ولا يندثرون، بل يُزهرون وروداً. يموتون فرادى، وينبعثون عشرين عشرين. هؤلاء هم الغرباء الذين يتغنى بهم فتح الله كولن، وتسطر على ذلك مقدمة الكتاب، فهذا العنوان، والمقالة التي اعتلى قممها هي مفتاح لفهم كل العناوين الأخرى، ومفتاح لإدراك كنه المقالات كلها، والافتراض هو أن يجد القارئ ظلاً لهذه الروح في كل المقالات، وفي كل عنوان. وبالطبع فهذه الصورة تستحضر صورة أخرى مناقضة، وهي صورة الغرباء الآخرين، الغرباء عن ذاتهم وعن القيم، فهم غرباء بالمعنى السلبي، الغرباء الذين تاهوا عن الطريق وتوقفت بوصلتهم ولم يعد بإمكانهم التقدم، فهؤلاء هم البؤساء بملفوظ فتح الله كولن حين يقول: "في مقابل هؤلاء غرباء، أو بالأصح بؤساء، ابتعدوا كل يوم خطوة عن ذاتهم وإنسانهم وثقافتهم فأضحوا أجنب منكرين. هؤلاء يشبهون غرباءنا حزناً ومكابدة واضطراباً. لكنهم متهافتون، متهدمون، يائسون، من الإيمان محرومون إذا بحثت عن حياة قلبية أو روحية لهم فبهيات أن تجد شيئاً من ذلك. لا صوت لحركة، ولا بصيص لنور، ولا بارقة لأمل. أيام هؤلاء أشد ظلمة من لياليهم، ولياليهم مقابر حالكة السواد."، فشتان بين الغرباء الذين يعيشون الغربة عن واقعهم وعن وطنهم بسبب ما يلقونه من مجتمعهم من إغراض عن الحق وابتعاد عن القيم والأخلاق وبين من عادوا الحق وتركوا العقل والتعقل بعيداً، فهؤلاء غرباء لأن القيم التي يحملونها لا تجد لها من يتفاعلون معهم،

نبي القرآن" ما يمكن للمتتبع استخلاصه هو سيطرة خطاب ضمني موجه للغرباء من أبناء الخدمة، الذين يعيشون في الآونة الأخيرة أزمة حقيقية فهم إما في السجون أو مشردون بعيدا عن الأهل والوطن وإما محاصرون ومطالبون باللجوء السياسي، وكأن المقدمة تحمل جملة نضائح موجهة إلى هؤلاء، والنصيحة الكبرى هي أن يجعل الغرباء الوحي مرشدهم في كل وقت وحين، لأن درب الغربة هو درب الرسل والأنبياء ودرب الصالحين منذ نزول آدم عليه السلام إلى الأرض. يجد المتلقي في المقدمة توجيهها آخر يكشفه حين يضع لمقالات الكتاب بناء معماريا محددًا يوحي بأن ترتيبها وعناوينها لم توضع اعتباطيا، بل نظمت وفق بناء هندسي يخدم الإشارات السالفة ويؤيدها، والتنعم السريع في هذا المعمار يوحي بأنه يبدأ من نقطة أو بداية، ثم يأخذ في التوسع دون فك ارتباطه بالبداية، أو بالنقطة المركزية ليظل بعد ذلك في العناوين المرتبة في الآخر منفتحًا وغير مغلق، موحيا بأن الكتاب ليس نهاية بل هو مجرد حلقة من حلقات عقد متواصل، وليوحي كذلك بأن الكتاب متصل بالفضاء الواسع والكون الفسيح.

مركز الكتاب هو "الغرباء" الموصول بخط معنوي يدور في كل اتجاه، وفي كل دورة تزداد دلالة الغربة تعمقا، لكن هذا البناء رغم كونه يدور إلا أن طرفه الأخير منفتح على المستقبل وعلى الآفاق البعيدة وعلى الوجود، إنه يكاد يكون بناء حلزونيًا، يبدأ بوتيرة حزينة ملؤها البكاء والحزن على الحاضر

فتح الله كولن صاحب رؤية منهجية تتأسس على تنمية قدرات الشباب، وعلى رفع مستوى أدائهم السلوكي والفكري والمعرفي العلمي، مع فتح المجال واسعا أمامهم لإثبات ذاتهم.

ليلا إلا تحت ضوء نبي القرآن ﷺ "فالكتاب قد يكون لعموم الناس، لكنه في العمق هو موجه للغرباء وموجه لمن احتضنوا الوجود وتفاعلوا مع الوجود بكل جوارحهم حتى صار نبض قلوبهم هو نبض الوجود. أو على الأقل هذا ما يريد من أشرف على نشر الكتاب الوصول إليه.

فالكتاب موجه لأهل القلب والعقل، موجه للقلوب الحية والعقول المفكرة، موجه لأرباب المستوى وأهل الفكر والحركة، لذلك الصنف من الناس الذين استطاعوا إدراك شحنات المعنى النابعة من كل مقالة والنابعة من كل عنوان، باعتباره عنوانا على الغربة في بعدها الذي يعرفه فتح الله كولن.

تؤكد المقدمة مرة بعد الأخرى أن الكتاب موجه إلى أرباب المعنى، الذين يتميزون بخصال قل نظيرها في هذا الزمان، إذ "هو مزيجٌ من المعنى لا يملك العقل إدراك مداه، ولا القلبُ الغوصَ في قاعه؛ إذا لم يكن عقلا فطنًا مؤيدًا بالوحي، وإذا لم يكن قلبًا حيًا مشدودا إلى الفردوس الأعلى، مشدوها متوترا بما كان وما سيكون... عقلا لا يستظل نهارا إلا بشمس القرآن الكريم، وقلبا لا يسري ليلا إلا تحت ضوء

تستمر عناوين "الغرباء" في التدفق كالشلل العذب مشكّلة منارة ترشد الغرباء وغيرهم في هذه المرحلة العصبية من واقع الأمة، بل من تاريخ الإنسانية، حيث تكسرت البوصلة وترك الحكماء مقام الإرشاد مرغمين.

يحمل توجيهها متجددا يريد بعث الحياة من جديد انطلاقا من الاهتمام بهموم من يرمزون للمستقبل. إن بكاء هذه البراعم ليس بكاء بطل "الغرباء"، لأن دموعه دموع الباحث عن الإنسان وعن البطل القادر على مسح دموع الصغار، والصغر هنا مجرد رمز، رمز بقدر ما يحيل على مرحلة عمرية من عمر الإنسان بقدر ما يحيل على صغر الأحلام والآمال التي تنتظره والتي سيتعرض فيها من أجل المستقبل المأمول، أو لنقل المستقبل الذي ينتظره فتح الله كوطن نظرا لغياب الإنسان الذي يهيئ الصرح الذي يمسح دموع الصغار، إنه البحث عن بطولة حقيقة، بل هو بحث عن البطولة المفقودة.

ومن خلال هذا الهم الثقيل، هم البحث عن البطولة المفقودة، فإن بكاء "طويلا بكينا" هو بكاء هم البحث عن طينة إنسان جديد وأبطال مسحون الدموع في "كفكف دموعك يا صغيري"، على أن طريق "الغرباء" هي طريق واحدة لم تتبدل، فهي الطريق الوحيدة الطريق إلى الله، بمعنى أن الغاية والغرض هي مرضاة الله.

ولعل هذه الطريق التي يعلن كونها تعلقه بها، ويعلن بملاء صوته أنه السبيل الوحيد، ليس مفروشا

الصغير، الذي يحمل في طياته المستقبل فالطفل رمز يحيل على الآمال المنتظرة وعلى المستقبل.

رؤية واحدة ومقالات عدة

كتبت أغلب المقالات على فترات، ونشرت في مجلة 'سيزنتي' المشهورة، قبل أن يعاد نشرها مترجمة إلى اللغة العربية، والعين الحسيفة ستلمس خيطا يصل بينها في تناغم عجيب، وكأن كل مقالة جوهرة رائعة من صنع سائح حاذق واحد، وهي كذلك لأن من كتبها يصدر عن رؤية واحدة متكاملة. بعبارة أخرى إن مقالات كتاب "الغرباء" تشكل مجتمعة رؤية واحدة، بل هي حلقات رؤية واحدة تكون في الأخير مشروعا للانبعاث من جديد، وعنوان "الغرباء" هو المفتاح الذي يفتح كنوز هذا المشروع، الذي تبرز فيه كل مقالة على حدة وصفة دقيقة لحل مشكلة من مشكلات الواقع في هذه اللحظة التاريخية.

وبنظرة تأملية أخرى في عناوين الكتاب سنجدها تلخص رؤية الغرباء في زمن الغربة وفي زمن اشتد فيه ذلك الصراع الأبدي بين الخير والشر وبين الصلاح والفساد وبين الاستقامة والانحراف، لذلك تجد فتح الله كوطن متوجها إلى أولئك الذين رفع عنهم القلم الذين لا يجدون من يكفكف دموعهم، لكن فتح الله كوطن والغرباء قد أعلنوا النفي العام للقيام بهذه المهمة القدرية، لأنهم يدركون بأن لا أحد لهذه البراعم بعد الله سواهم، ولأن هذه البراعم تمثل البراءة وفيها يبزغ المستقبل والأمل. إن هذا الإعلان بقدر ما يتضمنه من أبعاد تقريرية، بقدر ما

الأخرى، وإذا كان الظاهر الصوري يوحي بوجود ذات، إلا أن الأصل هو ذات واحدة. وبعبارة أخرى إن شعور الأمة شعور مركزي في كل عملية تجدد، إنها "الروح الباعثة" النابعة من عالمه الفكري وعمقه الوجداني، ومن اللازم في هذا المقام أن تكون المعاني القادمة من الماضي مسجلة بكل افتخار مواقف في سجل الإنسانية لا يعتربها البلى هي المرشد.

ما يريد فتح الله كولن الإلحاح عليه في هذا المقام هو أن تجد الأمة قدوة سامية تسترشد بها وهي تشق طريق التجدد، ليس المطلوب إعادة إنتاج ذلك الماضي، بل المراد هو الاهتمام بمعامله وركائزه وعمقه الفكري والوجداني في بناء خصوصية الحاضر، كل هذه المكونات لابد لها من التضحية، فهذه الطريق لا يسير فيها من يبحثون عن تحقيق النتائج العاجلة بل يسير فيها من كانت التضحية ونكران الذات وإيثار الآخرين على النفس حاديه. المكابدة المقدسة، وعذب العذاب و"العذاب المقدس" هو سبيل الوصول إلى "الوجود الأبدي"، وهو سلوان روح الأمة الذي سيحول عذابها إلى ثمار وجنات وارقة الظلال.

الجدير بالذكر في هذه المكابدة و"العذاب المقدس" هو ضرورة تسيد الروح على الجسد، هذا هو عمق ما عمل فتح الله كولن على تثبيته في كتاب "الغرباء" وهو يرسم منهاج الانبعاث من جديد ومنهاج التجدد، ولم يتوقف لحظة واحدة على التنبيه على أهمية الكيان الروحي للإنسان الذي يرغب في التجدد، فلا بد من "انتصار الروح"، فقد ينهزم الواقع

ما يريد فتح الله كولن الإلحاح عليه هو أن تجد الأمة قدوة سامية تسترشد بها وهي تشق طريق التجدد، ليس بإعادة إنتاج ذلك الماضي، بل بالاهتمام بمعامله وركائزه وعمقه الفكري والوجداني في بناء خصوصية الحاضر.

بالورود، بل هو محفوف بالمتاعب ومملوء بتعارض قيم الذات مع القيم السائدة، ورغم ذلك لا حياد عن الصبر والمرابطة، وإذا كانت المكابدة قدر "الغرباء"، فإدراك البطولة يقتضي المرابطة، والمرابطة هي أصل المكابدة والغربة.

هذا الأمل الواسع وهذه الهمة العالية، تحتاج إلى همة أخرى أعلى عالية، وإلى آمال أوسع، تحتاج حركية لتتحول إلى واقع ملموس وإلى سلوك، بمعنى أن التغيير يحتاج لوسائل، وأولى الوسائل هي إيمان الذات بضرورة التجدد المستمر ودون توقف، لأن تغيير الواقع وبناء المستقبل يسبقه حتما اقتناع الذات وإيمانها بكل كيانها ومن أعماقها بوجود التجدد وضرورته، لأن التجدد هو شرط البقاء ومن لا يتجدد يموت، والماء الراكد يتعفن. ولهذا فإن الرغبة في التجدد ليست ترفا بل ضرورة، قضية تنطلق من الفرد لتصل إلى المجتمع، بل هي اختيار مجتمعي، ومقدمات المنهج المؤدي إلى التغيير تبدأ من هاهنا. هذه المهمة المقدسة السامية تستوجب أن يكون المجتمع شجرة واحدة، وأن يكون الشعور بروح الأمة هو المحرك والعنصر الغالب، ولذلك لزم التنازل عن الأناية والتفكير في الذات بمعزل عن الذات

رؤية صاحب كتاب "الغرباء" تقوم على ضرورة تحالف الروح والعقل وتحالف الروح والفكر في صناعة الانبعاث وخلق التجدد، إذ لهذا التحالف طعم خاص وعذب لا تجده إلا النفوس المكابدة.

www.nesemat.com

والسلوك والعمل، وبأن النتائج ليست مسؤوليته.

إذا كان هذا الهم أمراً يعني المجتمع كله ويعني جميع أفرادها، فإن المستقبل يشرق في الشباب، ولذلك تجد الكتاب يركز على هذه الشريحة من أبناء المجتمع، لأنهم أكثر شرائح المجتمع عرضة للمغريات والانحرافات، التي تنخر جسد المجتمعات. إذا لم يجد الشباب ما يحفز همهم ويوجهها في اتجاه السمو فلا شك في أن الأفق سيكون قائماً والمستقل سيكون مكفهرًا. ولذلك نجد كتاب "الغرباء" ينادي منبهاً الشباب إلى أهميتهم في عملية التجدد، وتقترح مقالات الكتاب، من خلال مشروع فتح الله كولن لإعادة الانبعاث، أن يتم تحصين الشباب وبراعم المستقبل، ضد كل آفات العصر بالتربية والتعليم وتنمية قدراتهم الفكرية والعقلية وتزكية أرواحهم والسير في درب النور. وعلى هذا الأساس يخاطب فتح الله كولن "روح الفتوة" التي هي الطابع المميز لهذه الشريحة الاجتماعية، والتي لا تعرف المستحيل من خلال ما تتميز به من قدرة على الإبداع والابتكار يقول: "إن روح الفتوة بهذا المعنى، يسمو أصحابها بإراداتهم، ويحكمون السيطرة على أهوائهم، ويجددون محاسبة أنفسهم مرات كل يوم، يعيدون النظر في تصرفاتهم ويقبضون على

وينكمش ويتراجع، لكن الروح الحية لا تتوقف عن القيام بواجبها، لأن بهجة الواقع بالتأكيد ليس غايتها، يقول فتح الله كولن "إن الأبطال الذين ربطوا قلوبهم بأعظم الغايات وعمروها بحب الإنسانية، قد ضبطوا ميزان طاقة القلب، وشحذوا عواطفهم للتخليق نحو أسمى الآفاق، وبلغوا الخلود في قرارة ذواتهم. هؤلاء السعداء الذين تخلصوا من العيش الحيواني بقفزة واحدة وتجاوزوا شهواتهم الجسدية، قد مكّنوا أرواحهم من التخليق، وقلوبهم من الرفقة والتسامي، وحققوا انتصارات متعاقبة للروح في أبعادها الإنسانية رغم أنف النفس ونوازعها".

على هذه الصورة تستمر عناوين كتاب "الغرباء" في التدفق كالشلال العذب مشكّلة منارة ترشد الغرباء وغيرهم في هذه المرحلة التاريخية العصبية من واقع الأمة، بل من تاريخ الإنسانية كلها، حيث تكسرت البوصلة وترك الحكماء مقام الإرشاد مرغمين. ولا يقف شلال عناوين الكتاب عند هذا الحد، بل يستمر في التركيز على بعث الحياة في المعاني البانية للتجدد والانبعاث، وانتصار الروح في حاجة ماسة إلى الفكر المهموم بهمّ التجدد، فرؤية صاحب كتاب "الغرباء" تقوم على ضرورة تحالف الروح والعقل وتحالف الروح والفكر في صناعة الانبعاث وخلق التجدد، إذ لهذا التحالف طعم خاص وعذب لا تجده إلا النفوس المكابدة، والنفوس المكابدة هي مسكن الروح التواقفة إلى الوجود الأبدي، وهي مسكن الفكر الملهم والمبدع، الذي يعتقد بأنه مسؤول عن الفعل

يحدد كتاب "الغرباء" وفتح الله كولن الوصفة المحصنة للإنسان الجديد من أمراض الطريق، ويجعل "العشق" اختياراً لا محيد عنه رغم كل شيء.

مبدأ الإيثار، ستلوح طلائع فجر جديد وأيام مشرقة، وشتان بين من تاه عن هدفه، وبين من حدد اختياره عن إيمان واقتناع، فالأول حائر عاجز، وقاصر عن أن يكون مسكوناً بروح الفتوة، وأما الثاني فقد وضع طاقته كلها خدمة لهذه التطلعات والآمال.

ورغم ما قد يضيفه عنوان الكتاب "الغرباء" من مشاعر الحزن والعجز وضيق الأفق وانحصار الآمال والتطلعات، فإن شعاعاً بل أشعة من الأمل هي المعلم الأبرز في هذا الكتاب، إذ من خلال شدة الغربة تحرص بعض المقالات وعناوينها على بعث بشائر خير تتمثل في براعم الأمل. فتباشير الخيرية تلوح في الأفق من خلال مجموع مؤشرات يقدمها الأستاذ فتح الله كولن على هذا الأساس، فالوجود سيتفتح .. في راحة إنسان المستقبل المستنير روحاً والمتقد ذهنًا كبرعم وردة يتفتح ورقة ورقة. ويمضي الإنسان السعيد نحو المستقبل المنير مكتشفاً أقاصي الأكوان متنقلاً من نصر إلى نصر كالفاتحين العظام، حتى يصل إلى اكتشاف سر أن الأشياء كلها مسخرة لبني الإنسان، ويسير تحت أقواس النصر الواحد منها تلو الآخر، لينصب راية الفكر والوجدان على برج مرضاة الله تعالى، ويرى قدرته في عجزه، وغناه في فقره، فيخلق بأجنحة الشكر" ومن هنا فإن الانبعاث من جديد سيكون بيد الشباب بالصفات التي يريدها فتح الله كولن ويقدمها، أكيد بأن الانبعاث من جديد ليس مهمة سهلة المنال فهي تتطلب العديد من الشروط لأن.. تجديدًا كاملاً غير ناقص، لا يتم إلا عبر جهود متضافرة بين الروح والذكاء

زمامها، ينفضون الغبار عن أنفسهم ويحققون انبعاثاً في عالمهم القلبي ويثبتون أنهم أحياء، يشحذون أرواحهم بأسمى المشاعر وأرق المعاني ويحلقون بها في عوالم وراء المنظور. تلك النفوس السامقة التي تجسدت فيهم معاني الفتوة بأفضل صورها، يمثلون الدماء النقية التي تتدفق في شرايين المجتمع الذي يعيشون فيه ويعثون فيه النضرة والنماء..".

والجدير بالذكر في هذا المقام هو أن فتح الله كولن صاحب رؤية منهجية تتأسس على تنمية قدرات الشباب، وعلى رفع مستوى أدائهم السلوكي والفكري والمعرفي العلمي، مع فتح المجال واسعا أمامهم لإثبات ذواتهم، وتقوم هذه الرؤية كذلك على دفع الشباب ليكسروا القيود التي تجول دون انطلاق الطاقة الإيجابية الكامنة فيهم، والمشدودة إلى جذور فطرتهم الصافية وإلى منظومة القيم التي حملها جيل السعادة وانتشروا بها في العالم كله بناء مبشرين، لا مهدمين ولا مخربين ولا مرهبين.

عندما تجتمع الفتوة مع حضور الوعي، أي عندما يتحكم "مجتمع الضمير"، وتصير النفوس الفتية نفوساً نافعة تفكر في مصلحة المجتمع قبل مصلحتها، بل تتجاوز ذاتها من خلال استحضار

ما تقوله عناوين كتاب "الغرباء": "إننا وإن كنا غرباء بقيمنا وعشقنا عن واقع هذا العالم، فإننا الأحياء حقا لأن طاقة "العشق" التي تشربتها قلوبنا وجوارحنا هي الآن منهمكة في شحن العالم بهذه الطاقة الإيجابية.

تاهت فيه عن هويتها وتسابقت نحو قيم وأفكار دخيلة وغريبة عن الذات، فتاه عن هدفه وغاياته، فإن إنسانا جديدا سينبثق من خلال هذا الركاب، وقد تكون ولادته ولادة عسيرة، لكنها ولادة مباركة ستلد إنسانا يحمل صفات تؤهله لحمل مشعل التغيير المؤدي إلى الانبعاث من جديد.

وجب التنبيه إلى أنه في ظل فترات التحول التاريخية الكبرى، قد تتحول هذه الولادة إلى مجرد حماسة فارغة من كل معنى، وإلى شيء مجذوب بسيكولوجية الجماعة المندفعة دون تفكير ودون وعي، مما قد يهدر طاقة المجتمع بسبب الاندفاع والتهور. وما يحصن المجتمع ويحول دون وقوعه بين برائين هذا البركان الجارف الذي يبدد مقدرات الأمة المعنوية قبل الموارد المادية، إن ما بقي الأمة هذه المخاطر هو سيادة "الوعي الجمعي" باعتباره سلوكا "يحمل في أعماقه أسباب وجودنا وأسرار بقائنا أمة، إذ يستقي مادة حياته من منبع ثقافتنا الدينية وهويتنا الذاتية، وبفضله تتناغم مكارم الأخلاق مع الحياة الاجتماعية. إن الأفعال التي تصدر عن أبناء "الوعي الجمعي" تنسجم فيها العاطفة الجياشة مع السلوك الواعي المنتظم، والحيوية المتدفقة مع

والحس والإرادة، فتفعيل طاقة الروح وقدراتها إلى حدها الأقصى، واستثمار المعارف المتراكمة عبر الماضي دون هدر لأصغر جزئية منها، والانفتاح الدائم على نسمات الإلهام ونفحات المعنى والوجدان، وعدم الانحباس في ممارسات التقليد الأعمى، والالتزام بالرؤية المنهجية والسلوك المنظم باستمرار... هي بعض المقومات الأساسية لأي تجديد منطقي معقول"، في ضوء هذه الرؤية يبدو المجتمع المتفاعل إيجابيا مع هذه الروح وهو المجتمع المطلوب بناؤه، على أساس أن النشود هو طبيعة الروح السارية في حمة مشعل التغيير، ومجتمع هذه طبيعته مجتمع مثالي. وقد يكون مفهوم المجتمع المثالي نوعا من المثالية الزائدة، لكن الصورة التي يقصدها المؤلف، أو يلمح إليها كتاب "الغرباء" هي صورة المجتمع الذي يعي دوره ويعي حقيقة وعيه، ويعي عمق التطلع إلى الانبعاث من جديد. ووجب التنبيه في هذا المقام كذلك إلى اليقينية التي ينطلق منها فتح الله كولين وهو يسطر رؤيته في "الغرباء"، فيقينه في تحقق هذا المجتمع، يكاد يكون يقينا مطلقا، بل هو يقين مطلق، لأنه يضع نصب عينيه الاعتقاد بأن الله قد وعد عباده بأن يمكن لهم، ويضع نصب عينيه الخطاب القرآني الذي يكرر دائما هذا الوعد.

إذا كان المجتمع هو الإنسان، فإن الصورة المثالية يحققها نموذج إنساني استوعب هويته الثقافية والأخلاقية وانتصر لقيمه، واستحق صفة الإنسان الكامل، وإذا كانت الأمة قد مر عليها حين من الزمن

طريقهم ويعمل على عرقلة حركتهم المباركة الطيبة حسداً من عند أنفسهم، ولأنهم لا يجدون راحتهم في الأجواء النظيفة الصافية، هؤلاء هم من يحبون الاصطياد في المستنقعات العكرة، لكن هذا لن يمنع الناي الجميل من إصدار أنغامه العذبة، لأن هذه النماذج قد ارتفعت إلى مقام العشق.

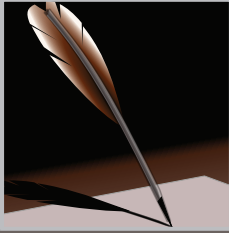
يحدد كتاب "الغرباء" وفتح الله كولين الوصفة المحصنة للإنسان الجديد من أمراض الطريق، ويجعل "العشق" اختياراً لا محيد عنه رغم كل شيء، رغم المشانق والسجون والمطاردات والتضييق ورغم النفي ورغم كل شيء، لقد بذر هؤلاء الغرباء بذرتهم، واستقرت في تربة هذا العالم، وسيسقيها "الغرباء" بدموعهم ودعواتهم وتوسلاتهم للأقدار بأن تزهر في قريب الأيام بل ستزهر غابات خضراء في كل مكان، لأن الأصل أن ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

هذا هو ما تقوله عناوين كتاب "الغرباء"، إنها تعلن بأعلى صوتها، إننا وإن كنا غرباء بقيمنا وعشقنا عن واقع هذا العالم، فإننا الأحياء حقاً لأن طاقة "العشق" التي تشربتها قلوبنا وجوارحنا هي الآن منهمكة في شحن العالم بهذه الطاقة الإيجابية، التي سيحتاج إليها في القريب، بعد أن انخفض منسوب الطاقة السلبية التي تملأ العالم في الوقت الراهن، وهي وإن كانت في أوج تمكنها إلا أنها لن تلبث أن تسقط بعد أن تكتشف الإنسانية أنها لا تستجيب لظلمتها. ■

الإقدام المتبصر المتزن. وإذا ما تم تثمين هذه الأفعال في "فترات التحول" فإنك لن تجد ميزاناً يستطيع أن يوفيهما قدرها، لأنها تبلغ قيمة ما بعدها قيمة بالدور العظيم الذي تقوم به. وشتان بين قيمتها في الظروف الحرجة وقيمتها في الظروف العادية. أما الأفعال التي تصدر عن حشود مندفعة بـ"سيكولوجية الجماهير" فإنها لا تخلو من أخطاء كبيرة واضطرابات مدمرة. يؤكد كتاب "الغرباء" أنه في خضم التحول المجتمعي قد يعترض طريق المجتمع عوائق ينبغي الانتباه إليها، وعدم الانجراف معها، خاصة في هذا العصر الذي تجبر فيه الاستكبار وأصيبت بجنون العظمة والقوة، ولتجاوز ذلك ولتخطي "المخاطر المبدورة على طريق مسيرتنا نحتاج إلى أبطال تشبّعوا بروح الإيثار، لا يعيشون لأنفسهم فقط؛ هؤلاء الأبطال المرتقبون الذين سيُنقذون الإنسانية اليوم لا تهمهم ذواتهم أبداً، بل يندرون حياتهم كلها لإحياء الآخرين."

ومن هنا فإن المجتمع العالمي في حاجة ماسة إلى "رجال مثاليين"، يندرون أرواحهم للحق يتفاعلون بقلوبهم قد يهتزون لكن لا يسقطون، بمعنى أن هذه الحركة المباركة في حاجة إلى "نماذج من ذاتها"، فهؤلاء هم من صناع المستقبل المانحين للأمن بتسامحهم وتنازلاتهم المستمرة.

لكن هذه الأناشيد الجميلة والقصائد البديعة، ملزمة بالتعامل مع الواقع بكل تناقضاته وبكل تشعباته، فقد تعترض طريق هذه النماذج موانع وعوائق، وسيجدون في مسيرتهم من يزرع الشوك في



نوسة السيد

د. نوسة السيد محمود
السعيد، مواليد المنصورة-
مصر ١٩٧٩، ليسانس
دراسات إسلامية وعربية،
شعبة أصول الدين، قسم
العقيدة والفلسفة جامعة
الأزهر فرع المنصورة ٢٠٠٢،
بتقدير جيد جداً مع مرتبة
الشرف.
ماجستير عام ٢٠١٢، بتقدير
ممتاز بعنوان: "التصوف في
القرن الثاني الهجري مدارسه
ورجاله".
دكتوراه ٢٠١٨ بتقدير رتبة
الشرف الأولى، بعنوان: "فتح
الله كولن وآرؤه الكلامية
والفلسفية".

فتح الله كولن وآرؤه الكلامية والفلسفية

ناقشت الباحثة "نوسة السيد محمود السعيد" المدرس المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالمنصورة جامعة الأزهر في رسالة الدكتوراه التي تقدمت بها إلى قسم العقيدة والفلسفة بالكلية، أهم الآراء الكلامية والفلسفية للأستاذ فتح الله كولن، حيث أبرزت فيها رؤيته التجديدية المعاصرة لعلم الكلام والفلسفة، وطريقة عرضه لمسائل العقيدة وشرحها شرحاً سهلاً واضحاً يخاطب العقل والقلب على السواء.
كما أوضحت أن فكره الفلسفي جاء شاملاً واقعياً يلتم بمسائل الواقع، ويسهم في حلها بروى جديدة، ويرجع ذلك -في رأي الباحثة- إلى إنزال الأستاذ كولن الفلسفة من التأمل العقلي إلى حياة الإنسان.
كما ذكرت أنه بحث في المعرفة ومعوقاتها، وفي الأخلاق وسبل تقويمها، وفي التصوف وكيفية تحقيقه في معاملتنا، إلى جانب قضايا العصر ومستجداته. وفي ختام بحثها أوصت المخلصين من هذه الأمة أن يعملوا على ترجمة دعوات كولن إلى واقع معيش للمساهمة في نهضة الأمة وريادتها وانبعاثها من جديد.

لما طالعت فكر الأستاذ كولن لأول مرة عن طريق مجلة "حراء" هالني -منه- هذا الأمل والتفاؤل الواسع في نهضة الأمة وانبعاثها من جديد، وجذبتني تلك اللغة الوجدانية التي يخاطب بها الجمهور؛ فهو يعمل على إثارة القلوب وإحيائها جنباً إلى جنب مع إنارة العقول وإقناعها. أعجبتني تلك الرحمة والتسامح ومحبة الخير للجميع كأنه يريد أن يحتضن البشرية ويسوقها إلى الخير والجنان بكل ما يملك.

فلما بحثت في فكره الكلامي رأيتَه يبسط مسائل العقيدة بسطاً سهلاً واضحاً يخاطب القلب والعقل على السواء، ويريد إحياء الإيمان من جديد في القلوب بلغة وأسلوب ومنهج جديد مناسب للعصر.

وعندما طالعت فكره الفلسفي وجدته شاملاً واقعيّاً يحيط بقضايا العصر ويسهم في حلها برؤى جديدة، فقد أنزل الفلسفة من التأمل العقلي إلى حياة الإنسان فبحث في المعرفة ومعوقاتهما، وفي الأخلاق وسبل تقيومهما، وفي التصوف وكيفية تحقيقه في معاملتنا، إلى جانب قضايا العصر ومستجداته.

وكل ذلك أكد لي أن الأستاذ صاحب رؤية تجديدية معاصرة لعلم الكلام والفلسفة تستحق الدراسة والبحث في جنباتها وتقديمها للجمهور المسلم.

من هنا وقع اختياري على فكر فتح الله كولن ليكون موضوعاً لرسالتي واقتصرت على مجال اهتمامي فكان البحث بعنوان (فتح الله كولن وآراؤه الكلامية والفلسفية)

ودار البحث في عدة محاور:

المحور الأول: التعريف بفتح الله كولن.

المحور الثاني: آراء فتح الله كولن الكلامية.

المحور الثالث: آراء فتح الله كولن الفلسفية.

المحور الأول: التعريف بفتح الله كولن أ- نشأته وحياته:

محمد فتح الله بن رامز أفندي بن شامل بن الملا أحمد بن خورشيد بن خليل الأناضولي موطناً، وكولن هو لقب عائلته ومعناه بالعربية، (البسّام) ويلقبه أنصاره بلقب ثان هو (خوجه أفندي) بمعنى (السيد الأستاذ أو حضرة الأستاذ)، ويشتهر باسم ثنائي هو فتح الله كولن^(١).

ولد فتح الله كولن في ٢٧ أبريل ١٩٤١م وفقاً لبطاقته الشخصية، لكن تاريخ ميلاده الحقيقي قبيل هذا بنحو عامين أو ثلاثة كما يذكر هو^(٢) في قرية (كوروجك) التابعة لمدينة (حسن قلعة) في محافظة (أرضروم)^(٣). قضى طفولته في مجالسة العلماء والمشايع الذين كان يستضيفهم والده^(٤).

وبدأ من الرابعة في تعلم القرآن الكريم، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته عامين أو ثلاثة، ثم استكمل الابتدائية في (أرضروم) بالانتساب.

حفظ القرآن عام ١٩٥١م، ثم أخذ التجويد عن الحاج (صدقي أفندي) في (حسن قلعة)، ثم بدأ في قراءة الكتب، وأخذ عن والده اللغة العربية والفارسية، وظهرت موهبته في الخطابة فألقى أول مواعظه وهو في سن الرابعة عشرة.

لما طالعت فكر الأستاذ كولن لأول مرة... أعجبتني تلك الرحمة والتسامح ومحبة الخير للجميع كأنه يريد أن يحتضن البشرية ويسوقها إلى الخير والجنان بكل ما يملك.

وسُجِّلت دروسه ووزعت في تركيا.

أصدر مع (صالح أوزجان) جريدة اسمها (الاتحاد)، ثم اختير مشرفاً على بعثة الحج عام ١٩٦٨. بدأ يتجه إلى المحاضرات العامة ١٩٧٥ فألقى محاضرة في إحدى الجامعات عن (جلال الدين الرومي)، ثم محاضرة عن التقنيات والعلوم الطبيعية في ضوء القرآن، ثم بدأ في الحديث إلى رواد المقاهي للدعوة وتربية الشباب.

أرسلته وزارة الأوقاف ١٩٧٧ مبعوثاً خارج تركيا فحاضر في (برلين) و(فرانكفورت) و(هامبورغ) و(ميونخ)، وكان يكتب المقال الرئيس في مجلة (سيزنتي) التي انطلقت عام ١٩٧٩، والمقال الرئيس لمجلة (الأمل الجديد) ١٩٨٨ م.

ألقى دروساً عن الرسول ﷺ في جامع (والدة سلطان) من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٠ وجمعت في كتاب (النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية)^(٨).

أنشأ (وقف الصحفيين والكتاب) يونيه ١٩٩٤ للحوار مع كافة أفراد المجتمع، ومع العالم أجمع لتحقيق الوحدة والسلام^(٩).

بدأ يُعرف ويشتهر في وسائل الإعلام المحلية والعالمية؛ لنشاطه التعليمي في إنشاء المدارس،

أتم (فتح الله) دراسته في (ألوار)، ثم استقر في (أرضروم) وراح يدرس بمسجد (قرشولو)، ثم انتقل إلى مدرسة (كمخان)، وبعد ستة أشهر التحق بمدرسة (طاش مسجد) ثم غادرها. درس على الأستاذ (سعدي أفندي) ثم ذهب إلى الأستاذ (عثمان بكتاش)، فدرس عليه قرابة عامين في النحو والصرف، والفقه وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة.

وفي أثناء رحلته في طلب العلم كانت علاقته بمدرسته وطيدة غير أنه لم يغفل الزوايا بتاتاً، فكان مع الشيخ (ألوارلي أفه)، فلما توفي لحق بزاوية الشيخ (القادري)، واستمر طيلة حياته على آداب الطريقة الصوفية وتربيتها^(١٠).

عرف (رسائل النور) لبديع الزمان النورسي وهو طالب بأرضروم عن طريق تلامذة (النورسي) أو طلاب النور كما يسمون، وكانت لها أثر بالغ في حياته، وكان النورسي من أبرز من أثروا في حياته، فلا تخلو موعظة أو مقال من استشهاد برسائل النور وبصاحبها وحياته.

بعد رحلة فتح الله كولن في طلب العلم بدأ يبحث عن وظيفة فعمل في الوعظ في عدد من المساجد، ثم عمل لبعض الوقت إماماً ملقنا الشهادة للمحكوم عليهم بالإعدام في أدرنة ١٩٥٩، ثم معلماً في مركز لتعليم القرآن الكريم، ثم إماماً لمسجد (دار الحديث)، وأنشأ به أول مدرسة لتعليم الطلبة^(١١)، ثم مديراً لسكن طلاب ثانوية الأئمة والخطباء (كستانه بزاري) في (أزمير)، ومع اهتمامه بالطلاب وإقامة المخيمات الصيفية^(١٢) لهم لم ينقطع عن الوعظ،

الأستاذ كولن صاحب رؤية تجديدية معاصرة لعلم الكلام والفلسفة تستحق الدراسة والبحث في جنباتها وتقديمها للجمهور المسلم.

www.nesemat.com

والرد على الشبهات المثارة ضد الإسلام. وله معرفة واسعة بالفلسفات القديمة والحديثة، يتعرض لنقد الباطل منها، والاستفادة بالنافع الصالح. أما التصوف فله في حياته وفكره الكثير - بل هو كل حياته وفكره- فكان التصوف قرينه وصاحبه، يمزجه بكل ما يكتب غير مزجه له في حياته ومعاملاته. درس اللغة العربية بفروعها^(١٤)، وأتقنها، وله كتاب في تعليم اللغة العربية من خمسة أجزاء بعنوان "تعليم اللغة العربية بطريقة حديثة"، وله اهتمام كبير بالأدب والشعر بل له ديوان شعر^(١٥)، ومقتطفات شعرية وضعها في كتاب تحت اسم (ألوان وظلال) إلى جانب حفظه لتراث كبير من الشعر، وخاصة الصوفي لكبار الشعراء الأتراك، وغيرهم.

يقول أحد من كتب عن حياته: إنه مثقف نهم يقرأ يومياً ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ صفحة؛ بدأ من طفولته بقراءة السيرة النبوية، ومناقب الصحابة، وعكف على الكتب العلمية والفكرية والفلسفية. قرأ لرواد الثقافة الغربية أمثال: (فولتير) و(روسو)، و(كانط)، وقرأ لرواد الثقافة الشرقية أمثال: (مولانا جلال الدين الرومي) و(الملا جامي)، وقرأ للأدباء أمثال: (تولستوي)، وفي حواراته وكتاباته يشير إلى منطق (روسيل)، والنظرية الجدلية من (باسكال) حتى (هيغل)، وقرأ في الأدب التركي لعظماء الكتاب والشعراء أمثال: (نجيب فاضل)، و(محمد عاكف). اختير فتح الله كولن في مناسبات عديدة كأكثر الشخصيات تأثيراً في العالم، وحاز عدة جوائز.

ومؤسسات الإغاثة حول العالم، وأجريت معه كثيرٌ من الحوارات، وقابل عدداً من ممثلي الأديان، وبدأ في إقامة مؤسسات للحوار في الخارج^(١٦).

اعتقل عدة مرات إبان الانقلابات المتوالية في تركيا نتيجة لنشاطه الدعوي رغم بعده عن السياسة^(١٧). ثم سافر إلى أمريكا ١٩٩٩، وأقام بها؛ بعيداً عن التضييق وطلباً للعلاج^(١٨) واستمر في نشاطه الدعوي والتعليمي والإغاثي وحوار الحضارات من مقر إقامته في ولاية بنسلفانيا حتى الآن.

ب- ثقافته وعلمه:

بعد رحلة الدرس على الأساتذة والمشايع أخذ في القراءة الحرة، وكانت مصدرًا رئيسًا من مصادر بنائه المعرفي، فقد كان شغوفاً منذ صغره بالقراءة وتحصيل المعرفة من مصادر متنوعة^(١٩).

اهتم كولن بالعلوم الإسلامية، حيث كانت المصدر الأول لثقافته، فقرأ وألف في تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف، واهتم بالعقيدة كثيراً فقرأ لعلماء الكلام ولا سيما الماتريدية وهضم آراءهم جميعها وصاغها بأسلوب عصري، وقيّمها، واختار منها ونقد بعضها.

وله إلمام كبير بالعلوم الحديثة ومعطياتها، وقد كان يوظفها في خدمة العقيدة، وإقناع غير المسلمين،

اهتم كولن بالعقيدة كثيرًا فقرأ لعلماء الكلام ولا سيما الماتريدية وهضم آراءهم جميعها وصاغها بأسلوب عصري، وقيّمها، واختار منها ونقد بعضها. الإسلام.

nesemat.com

جاء في المرتبة الأولى ضمن قائمة (أهم مائة مثقف في العالم)، وذلك لتجاوز تأثيره حدود بلاده، وذبوع صيته الثقافي في مختلف أنحاء العالم بحسب استطلاع أجرته عام ٢٠٠٨ مجلة السياسة الخارجية Forgien Policy بالتعاون مع مجلة Pros-Pect البريطانية.

يتبين مما سبق أن فتح الله كولن موسوعي في تكوينه الثقافي حيث جمع بين علوم الدين وعلوم العصر المختلفة.

ج- مؤلفاته:

أثمرت رحلة كولن العلمية وثقافته -وما زالت تثمر- عديدًا من المؤلفات والبحوث والمقالات، إضافة إلى آلاف الخطب، والمواظع، والدروس المسجلة على أشرطة، ويقوم تلاميذه بتفريغها وتحريرها، ويقوم هو بمراجعتها قبل التصريح بطاعتها، ومعظمها لا يزال باللغة التركية^(١)، إلى جانب الأحاديث الصحفية واللقاءات التلفزيونية، والتي تتناول رؤاه حول عدة قضايا.

وتنشط حركة الترجمة لمؤلفاته ودروسه وكذلك لقاءاته الصحفية والتلفزيونية وترجم إلى عدة لغات منها العربية عن طريق دور النشر مثل: دار النيل (تسمى الآن دار الانبعاث)، والتي فرعها الرئيسي بالقاهرة، وعن طريق مجلة حراء التي تصدر بالعربية للتواصل مع العالم العربي. ويمكن تصنيف مؤلفاته على النحو التالي:

١- المقالات:

كتب فتح الله كولن العديد من المقالات فله أكثر من ٤٨٥ مقالة منشورة في ثلاث مجلات تصدر بالتركية

هي مجلة: (سيزنتي) وفيها ٣٦٠ مقالة، ومجلة (ياغمور) وفيها ٤٤ مقالة، ومجلة (يني أميد) وفيها ٨١ مقالة، وما زال إلى الآن يكتب وتُنشر له مقالات.

٢- الأشعار:

له ديوان شعر من مجلدين بالتركية بعنوان (المضرب المكسور)، لم يترجم للعربية بعد، ومقتطفات شعرية وضعها في كتاب تحت اسم (ألوان وظلال) ترجمه للعربية ونشرته دار النيل بالقاهرة.

٣- الدروس:

دأب كولن منذ وقت مبكر من حياته على الاجتماع مع تلاميذه في حلقات تربوية يتدارسون بعض الكتب، أو يلقي عليهم بعض الدروس والمواظع في شتى المجالات، وهذه الدروس مستمرة إلى الآن فهناك درس أسبوعي يلقيه على تلاميذه في مقر إقامته بالولايات المتحدة، ويترجم إلى عدة لغات منها العربية، وينشر على موقع herkul على شبكة الإنترنت.

٤- الكتب:

له عدد كبير من المؤلفات بلغت أكثر من ٧٠ كتابًا بعضها مترجم إلى العربية، وبعضها مترجم إلى عدة لغات أخرى، أما ما ترجم إلى العربية فمنها:

- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية.

- أضواء قرآنية في سماء الوجدان.

المحور الثاني: آراء فتح الله كولن الكلامية

اعتبر كولن علم الكلام أحد المصادر الأساسية للثقافة الذاتية للمسلمين، ورأى أنه مصدر رحب ومعطاء في ميراث ثقافتنا^(١٧). ولذا كانت العقيدة من أهم القضايا التي تعرض لها كولن في أغلب خطبه، ومحاضراته، وكتبه؛ نظرًا لما لها من أهمية ومركزية في الفكر الإسلامي: "فلا مجال للحركية دون عنصر العقيدة التي تقوم بمهمة توجيه الفعل والحركية"^(١٨).

يقول كولن في تعريفه لعلم الكلام: "مجموع المعارف التي يستهدف بها الدفاع عن منظومة المعتقدات الإسلامية بالأدلة العقلية والنقلية والحفاظ على استقامة فكر المؤمنين، ورد الشبهات والشكوك التي تثار أو يحتمل إثارتها ضد الدين، وحراسة العقائد الإسلامية الحقة في إطار السنة السنية إزاء بعض التيارات الفلسفية الخاطئة"^(١٩)، وفي تعريف آخر يقول: "مجموع الدساتير والقوانين الحاوية على نظريات علمية ومعرفية والتي تربط بين أصول الدين وبين الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح في ضوئهما"^(٢٠).

لم يخرج كولن عما قرره السابقون من بيان الماهية والغاية لهذا الفن، ولكنه توسع في استخدام سائر المعارف في الدفاع عن العقائد - كما سنرى لاحقاً من استخدامه العلوم الحديثة وغيرها في خدمة قضايا العقيدة - وفي التأكيد على الحفاظ على الأصول (الكتاب والسنة).

الأستاذ كولن يبسط مسائل العقيدة بسطاً سهلاً واضحاً يخاطب القلب والعقل على السواء، ويريد إحياء الإيمان من جديد في القلوب بلغة وأسلوب ومنهج جديد مناسب للعصر.

- خواطر من وحي سورة الفاتحة.
- الموازين أو أضواء على الطريق.
- ونحن نبني حضارتنا.
- ونحن نقيم صرح الروح.
- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح (الجزء الأول).
- أسئلة العصر المحيرة: وهي عدة أجزاء ترجم منها:
- أسئلة العصر المحيرة - الرد على شبهات العصر (الجزء الأول)، نحو عقيدة صحيحة (الجزء الثاني)، الاستقامة في العمل والدعوة (الجزء الثالث).
- حقيقة الخلق ونظرية التطور.
- القدر في ضوء الكتاب والسنة.
- نفخة البعث شواهد الحياة بعد الموت.
- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام.
- ٥- مؤلفات وأبحاث كتبت عنه من ذلك:**
- رواية: عودة الفرسان: فريد الأنصاري.
- مؤتمر دولي: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي
- خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية: جامعة الدول العربية ١٩- ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩.
- السلام والتسامح في فكر كولن مجموعة أبحاث لعدد من المؤلفين الأجانب. إشراف أ.د. زكي ساري توبراك.

اعتبر كولن علم الكلام أحد المصادر الأساسية للثقافة الذاتية للمسلمين، ورأى أنه مصدر ربح ومعطاء في ميراث ثقافتنا، لذا كانت العقيدة من أهم القضايا التي تعرض لها في أغلب خطبه، ومحاضراته، وكتبه.

www.nesemat.com

وفي تعريفه لأصول الدين يقول: "أصول الدين هي المبادئ والمعايير والقواعد الأساسية في الدين، ومن أركانها: الأسس التي تحدد إطار وماهية الاعتقاد، والمناهج المطروحة من أجل معرفة الحق تعالى، والقضايا المتعلقة بالحشر والنشر، والحقائق الخاصة بالعلاقة بين الله والكون والإنسان"^(٢١).

وهو هنا يؤكد على العلاقة بين الله والكون والإنسان -وهي محور فكر كولن ومركز الدائرة في كتاباته- وهو ما ينادي به علم الكلام الجديد الذي يريد مع الإيمان بالله ومعرفته وتوحيده، دراسة الإنسان وحقوقه، والواقع وقضايا المتجددة.

وهو ما سبق أن نادى به (أبو ريذة) وهو يؤسس أو يقدم مقترحاً لعلم الكلام الجديد فيقول: "والذي يهمننا هنا أن يكون الإنسان أهم موضوع يتناوله علم الكلام الجديد بعد موضوع الإيمان بالله؛ لأن الدين إنما جاء للإنسان لبيان رسالته في الأرض وتأكيد كرامته ومكانه في هذا العالم"^(٢٢).

أما عن منهج كولن في تجديد علم الكلام فاستطيع القول إن فتح الله كولن أحد رواد علم الكلام الجديد في عصرنا الحاضر، حيث كانت له نظرات تجديدية يمكن إجمالها على النحو التالي:

١ - التجديد في الخطاب

أ- الخطاب في مستوى إدراك العموم

فكلامه في قضايا العقيدة واضح يفهمه العامة قبل المتخصصين، يقول الدكتور محمد جكيب: "الأستاذ فتح الله مسلم سني ماتريدي العقيدة لكنه عندما يتكلم في العقيدة الأشعرية تحسبه أشعرياً، فالأستاذ

وإن كان ماتريدي العقيدة فإنه يعمل على بناء رؤية عقدية تنسجم مع روح المشروع الإصلاحية الذي يتبناه، وهو المشروع الذي يتطلب أن تكون قضية العقيدة فيه أمراً يسهل استيعاب العموم له"^(٢٣).

ب- التحرر من المذهبية

رغم تصريح بعض الباحثين بكون الأستاذ ماتريدي العقيدة فإنه لم يصرح بتبني أحد المذاهب؛ فقد ابتعد في كتاباته عن التعصب لمذهب من المذاهب الإسلامية وانفتح على كل المذاهب والآراء فتعددت مصادره في بحث العقيدة، فهو لا يتقيد بمصدر واحد أو مذهب محدد، بل يستقى من الجميع كأن شعاره (الحكمة ضالة المؤمن)، مع اجتهاد في بعض القضايا بما لا يخل بأصول الدين وثوابته.

ولذا فإن: "منهج الأستاذ فتح الله في باب العقيدة منهج متجدد يستفيد من مصادر كثيرة من بينها الأستاذ (بديع الزمان النورسي) الذي كان موضوع التوحيد والعقيدة من أهم ما ركز عليه في رسائله"^(٢٤).

"إذا كان (النورسي) هو متكلم العصر الحديث -كما يذكر ذلك الدكتور محسن عبد الحميد- فإن فتح الله قد استفاد كثيراً من أفكار (النورسي) لكنه طبعها بشخصيته وصبها في قالب خاص يمزج بين المقاربة

ب- استخدام الحقائق العلمية

دائمًا ما يشفع كولن رؤيته في المسائل العقدية بشرحها بطريقة علمية منطقية قريبة من مستوى إدراك الإنسان^(٢٦)، فقد استخدم العلوم في إثبات وجود الله ﷻ وصفاته، وفي إعجاز القرآن الكريم، وغير ذلك من مسائل العقيدة.

وحت كل العلماء الباحثين في الأمور الدينية على استخدام العلم وسيلة وأداة لشرح الدين؛ لأن عقل الإنسانية الآن مرتبط به، وخاصة أنه لا عدا عندنا بين العلم والدين. وقد وضع كولن ضابطين لتفسير الإسلام بالعلوم وهما:

الأول: استعمال هذا الأسلوب وسيلة فقط والابتعاد عن محاولة استعماله لإظهار علمنا والتفاخر به؛ لأن الحقائق الإيمانية تفقد أنوارها حينئذ ولن تؤثر على المستمعين؛ لأن النيات ليست خاصة^(٢٧) على حد تعبير كولن.

الثاني: عدم التهاك على العلوم لتقوية العقيدة. فينبغي عدم الارتياح في مبادئنا، فالعلم والتقنية خادمان لطريقنا، أما اعتبارهما أصلًا ثابتًا ومبادئنا شيئًا تابعًا يحتاج إلى تصديق العلم، فأمر غير مقبول: "إن كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ حق لا ريب فيه والعلوم صحيحة بقدر تلاؤمها معهما وغير صحيحة بدرجة انحرافها عنهما، وحتى القسم الصحيح من العلوم لا يعد قواعد أو مستندًا تستند إليه الحقائق الإيمانية، فهي تلعب دورًا في زيادة التأمل والتفكير في المسائل الإيمانية، أما الذي يضع نور الإيمان في قلوبنا فهو الله ﷻ"^(٢٨).

www.nesemat.com

منهج الأستاذ فتح الله في باب العقيدة منهج متجدد يستفيد من مصادر كثيرة من بينها الأستاذ (بديع الزمان النورسي) الذي كان موضوع التوحيد والعقيدة من أهم ما ركز عليه في رسائله.

العقلية، والحقيقة العلمية، وضوابط الإقناع والحوار، مستفيدًا في ذلك من الخطاب القرآني ومنهجه في ذلك، ومسترشداً بالمنهج النبوي في إضاءة هذا الخطاب"^(٢٥).

٢- التجديد في المنهج

استخدم كولن عدة مناهج وأساليب تتسم بالتنوع والجدة في عرض قضايا العقيدة لتناسب العصر، وركز على القلب لأنه إذا آمن المسلم واختلطت العقيدة بروحه أحدثت التأثير الحقيقي في حياته، وكذا على العقل والمنطق لأن العصر عصر العلم والإيمان بالمادة مع انتشار الإلحاد والإنكار حتى لثوابت الدين فكان لزامًا عرض العقيدة بالمنطق والحجة العقلية مع استخدام سائر العلوم والأدوات الحديثة في تدعيمها، على النحو التالي:

أ- البعد عن الجدل المذموم والتركيز على

الموضوعات العملية ذات الجدوى

يرى كولن عدم جدوى الجدل المذموم والاشتغال بما لا فائدة فيه؛ فتجده يميز بين المسائل العقدية التي تربط الإنسان بالخالق وفائدتها في تقوية هذا الإنسان، وبين ما لا فائدة عملية ترجى من خلاله؛ ولذلك عندما تُطرح عليه أسئلة متعلقة بذات الله تعالى أو بأمور غيبية يعتبرها نوعاً من سوء الأدب مع الله ﷻ.

دأب كولن في درس العقيدة على الإقناع بالمنطق والعقل ودعم المتلقي بكل ما يقرب الأفكار من أمثلة عقلية لا يختلف حولها ومنهج المقارنة الضمنية التي تحتاج العقل والدليل الملموس وعدم معارضة المنطق .

www.nesemat.com

لذا يجب النظر إلى العلوم وجميع الأدلة العلمية وعدّها تابعة واعتبارها وسيلة لإزالة الغبار فقط عن الحقائق الإيمانية، فالإنسان مؤمن بما استقر في قلبه، وليس بالمعلومات المتراكمة في عقله^(٢٩).

ج- استخدام العقل والمنطق

دأب كولن في درس العقيدة على الإقناع بالمنطق، والعقل، ودعم المتلقي بكل ما يقرب الأفكار من خلال: ذكر أمثلة عقلية لا يختلف حولها العقلاء، ومنهج المقارنة الضمنية التي تحتاج العقل، والدليل الملموس، وعدم معارضة المنطق العلمي وقواعده^(٣٠).

ولعل من مكمالات هذا التوجه العقلي أو من مبرراته هو كون كولن حنفيًا ماتريديًا وكلاهما يستخدم الجانب العقلي والفكري في توجهه، يقول أحد الباحثين في فكر كولن: "انتماء الأستاذ إلى المذهب الحنفي يجعله أكثر قربا إلى استعمال الفكر والعقل في باب الاجتهاد؛ وذلك؛ لأن المذهب الحنفي وخاصة في باب الفقه أكثر المذاهب الأربعة توظيفًا للعقل والفكر، وإذا كان المذهب الحنفي أكثر المذاهب الأربعة توظيفًا للعقل، فإن المذهب الماتريدي في العقيدة يتموقع في موقع وسط بين المذهب الأشعري والمذهب الاعتزالي، وتكمن دلالة ذلك في كون الأستاذ فتح الله ميّالا إلى الرؤى الفكرية التي تستطيع توحيد مختلف التصورات الفكرية في مجال العقيدة"^(٣١).

د- ربط العقيدة بالسلوك

وذلك أبرز ما نجده في تجربة فتح الله كولن فقد "ربط الأستاذ فتح الله كولن علم الكلام وقضاياها بالسلوك الذي يتوجب أن ينعكس في كل عمل وفي

كل مشروع"^(٣٢). ولذلك نجده لا يبحث إلا في القضايا التي ينبنى عليها عمل، ولا يبحث في القضايا الجدلية المذمومة.

ه- ربط العقيدة بالتربية الروحية

في دراسة كولن لقضايا العقيدة نجده يركز على بناء الإنسان روحياً؛ ولذلك تجد قضايا العقيدة ممتزجة بالتصوف كثيرا: "لقد قدم فتح الله كولن علم التوحيد والعقيدة الإسلامية وفق نمط منسجم مع المشروع المركزي وهو بناء الإنسان روحياً ووفق نمط يجعل من هذا الإنسان مخلوقاً فاعلاً في الكون والوجود، ووفق نمط تتجلى فيه حقيقة "الإنسان العبد لله" المكلف بمهمة إعمار الأرض، ونشر الفضيلة"^(٣٣).

٣- التجديد في الموضوعات

ليس المقصود أن كولن استحدث موضوعات خارجة عن مقصد هذا العلم، ولكنه توسع فأضاف -بما لا يخل بمقصده وغاياته- الحديث عن الإنسان والكون وصار محور بحثه تدعيم العلاقة بين الله والكون والإنسان.

فقد بنى كولن نظرية كاملة أساسها بحث

ثم جعله مركز الكون، ودعاه إلى البحث والتنقيب والاستكشاف في دروبه، وهي دعوة إلى العلم -العلم- الطبيعي وغيره؛ ولذا فإن كون قد وازن بين العلم الحديث ودوره للخليفة وبين عدم تعارضه مع الوحي، فهو ينكر المادية، ويدعو إلى التواءم بين العلم المسطور و الوحي المعصوم.

وهو يبغي من نظرته الكونية تلك أن يجعل الكون وعلومه طريقاً إلى الله، إذ إنه مع تقديره لكثير من الأدلة يؤثر استخدام آثار الكون دليلاً على الله حيث يرى الكون تجلياً لأسماء الله الحسنی، ويرى أن وظيفة الكون هي توجيه قرائه إلى كاتبه وصفاته ﷻ، فهو يدل على صانعه وعلى حكمته وعلمه.

إضافة إلى ذلك فقد ركز في كثير من الموضوعات على بيان العلل والثمار المترتبة عليها، مما يبعث على تقوية الإيمان وزيادة الإقناع، كما فعل في حديثه عن القدر وثماره في حياة المسلمين، وعن الحكمة من الفقر والمصائب والآلام التي تصيب المسلم^(٣٤).

أما عن الموضوعات التي ناقشها كون:

أولاً: الإلهيات

١- اهتم كون كثيراً بالطبيعة، وبديل الأنفس والآفاق، واستخدمهما في الوصول إلى معرفة الله ﷻ، والاستدلال على وجوده.

٢- تفرد بذكر عدة أدلة على وجود الله ﷻ استقفاها كلها من آثاره تعالى في الكون، وهي طريقة لم تكن عند المتكلمين القدامى إلا قليلاً، بينما هي عند المحدثين المجددين راسخة.

بنى كون نظرية كاملة أساسها بحث العلاقة بين الله والكون والإنسان، وهذه العلاقة تشكل مركز الدائرة لفكر كون في كل القضايا التي بحثها.

العلاقة بين الله والكون والإنسان، وهذه العلاقة تشكل مركز الدائرة لفكر كون في كل القضايا التي بحثها كالتالي:

- فهو يلفت النظر دومًا إلى قراءة كتاب الكون وتدبره والبحث فيه، ويؤكد على العلاقة الوثيقة بين الكتاب المقروء(القرآن) والكتاب المنظور(الكون) إذ لا فرق بينهما، فالمنظور تفسير للمقروء، ولا انفصام بين الأوامر الشرعية والأوامر التكوينية فكلاهما من خلق الله ﷻ.

- ويركز ثانياً على العلاقة بين الكون والإنسان، فكلاهما -أيضاً مأموران-، فالكون مسخر ليد الإنسان للبحث والتعمير، وتلبية حاجاته كونه خليفة الله ﷻ.

- وتأتي العلاقة بين الله والكون والإنسان -التي تنتشر في طول وعرض إنتاجه ومؤلفاته- كمركز الدائرة لفكره أو مفتاح لمنهجه، فهو يذكر دومًا بمكانة الإنسان في الأرض بين مخلوقات الله، ومكانته عند الله، فالله هو الخالق والكون والإنسان مخلوقان له، ولكن الإنسان مكرم ومؤهل لنيابته وخلافته في الكون بما له من تكريم وأعماق روحية وسمات وجودية كالعقل، والفكر، والروح، والدين، والأخلاق؛ ومن

كل ما يهتم به كولن من وراء بحث الإيمان والإسلام هو التأكيد على الناحية العملية من خلالهما، وهي العمل أو التدين وفقهما وليس العلم النظري أو الإيمان الشكلي.

٣- اهتم بالرد على الملحدون بالطرق العقلية المختلفة، التي تبين مدى اطلاعه على الفلسفات المادية، وقدرته على تقييمها ودفعها.

٤- كان حديثه عن صفات الله ﷻ وأسمائه مجملًا في عمومته، مقتصرًا فيهما على إثباتهما لله ﷻ وفعاليتهما في الكون وفي حياة الإنسان.

٥- أكد في مبحث القدر على الجانب العملي التربوي من وراء الإيمان بالقدر خيره وشره، وقد وافق الماتريدية في القدر وفي الكسب تحديدًا، ووافق سائر أهل السنة في أفعال الله تعالى، والتحسين والتقييح، وعدم وجوب شيء على الله.

٦- كل ما يهتم به من وراء بحث الإيمان والإسلام هو التأكيد على الناحية العملية من خلالهما، وهي العمل أو التدين وفقهما وليس العلم النظري أو الإيمان الشكلي.

٧- رأى استحالة رؤية الله ﷻ في الدنيا ووقوعها في الآخرة، ودلل على ذلك بأدلة عقلية، وخرج بنتيجة عملية من وراء مبحث الرؤية وهي وجوب الاجتهاد في الطاعات للمتشوقين لرؤية ربهم في الآخرة.

ثانيًا: النبوات

اتفق كولن مع جمهور المسلمين في إمكان البعثة وغايتها وشروط النبوة ووجوب عصمة جميع الأنبياء، وركز حديثه على شخصية النبي ﷺ وعصمته، ودفع الشبهات عنه وعن رسالته بالحجج العقلية والمنطقية وعرض كل ما يتصل بها من خلفية تاريخية ومن آراء غربية واستشراقية مما يدل على ثقافته الموسوعية، وهذا ما يحتاجه المسلم المعاصر الذي يعيش في

وسط غبار الإلحاد والتيارات المنحرفة، وما نحتاجه للرد على جناح من الغرب ينشر كتابه الأباطيل حول النبي ﷺ فلا بد من إيجاد من يتصدى لها، ويجلي مرآة الحقيقة.

تكلم كذلك عن بعثة النبي ﷺ ودلائل نبوته مقتصرًا على القرآن الكريم من بين سائر الأدلة حيث هو المعجزة الخالدة الباقية، التي هي نور وحجة في أيدنا لإحياء الإسلام، ودعوة الآخرين إلى اعتناقه، وأبرز ما في القرآن من جمال وبلاغة ومعاني جليلة.

وقد أبرز قضية الإعجاز العلمي كداعم لبيان عظمة القرآن، لا أن يُتخذ العلم ونظرياته أساسًا، ونؤول القرآن وفقًا له، بل العلم خادم تابع للقرآن ويقينياته، فرغم تقديره للعلم الحديث إلا أنه وضع ضوابط لمن يخوض في التفسير العلمي للقرآن، وأكد على كون القرآن الأصل والعلم تابع وخادم له، فلا ينبغي في زهوة الانبهار بالعلم أن نلوي عنق الآيات أو نؤولها حتى تتفق مع النظريات العلمية، فهذا تشويه وعض من قيمة القرآن؛ وبذا يريد أن يخرس في نفس المسلم الثقة واليقين بدينه وأهم أركانه القرآن الكريم.

ثالثًا: السمعيات

اتفق كولن مع سائر الأمة في تقرير مسائل

٤- يؤمن ببعض الظواهر النفسية كالتواصل عن بعد (التلثائي)، وتحضير الأرواح -غير ما يحدث الآن من دجل-، وهو أمر انقسمت فيه الآراء ما بين مؤيد ومعارض.

٥- يؤكد على الجوانب العملية والتربوية من وراء مسائل العقيدة، كتأكيده على الوقاية من مكائد الشيطان، وعلى خطورة طريق الرؤى والاتصال بالجن.

٦- لا ينسى أن ينبه على الحكم الشرعي وهو يدرس علم العقيدة، كتأكيده على أن الرؤى والاتصال بالجن ليست مصدرًا للأحكام الشرعية.

إذن: يعد فتح الله كولن من أبرز من استخدم منهجية علم الكلام الجديد في عرضه لموضوعات العقيدة بوضوح ومنطقية وروح علمية، تتناسب مع روح العصر، وعمق روحي وعملي يتناسب مع رؤاه في بناء الإنسان الكامل من جميع جوانبه العقدية والعلمية، والروحية، والسلوكية.

وبناء على ذلك يمكن القول بأن جهود كولن تعد مساهمة في بناء علم الكلام الجديد.

المحور الثالث: آراء فتح الله كولن الفلسفية

يهتم كولن بالفلسفة وقضايا الفكر كثيرًا، فهو مطالع جيد للفلسفة الإسلامية وكتابات رموزها، وكذا متابع للفلسفة الغربية الحديثة وكتابات رموزها، ومذاهبها، يستند كثيرًا إلى بعض المقولات إما تأييدًا لفكرة ما يتحدث عنها، أو رفضًا لها وتفنيدًا لبطانها، والفلسفة عند كولن هي معاناة الفكر

استطاع كولن أن يقرب للأذهان فكرة وجودية الموت بصورة بسيطة دون تعقيدات أو تأويلات، وجعله دليلًا على وجود الله تعالى ومقدمة للوصول إليه.

السمعيات من خلال النص عليها، ولكن الجديد أنه حاول أن يربط تلك الغيبيات بأمر مشاهدة، وكأنه يصور الغائب في صورة الشاهد حتى يصل المعنى للمسلم المعاصر، فقد حرص على استخراج معانٍ جديدة، وأدلة وحكم عقلية ووجدانية تلامس عقل المسلم ووجدانه معًا، فعلى سبيل المثال:

١- استطاع كولن أن يقرب للأذهان فكرة وجودية الموت بصورة بسيطة دون تعقيدات أو تأويلات، وجعله دليلًا على وجود الله تعالى ومقدمة للوصول إليه.

٢- أعطى صورة غير ما في الأذهان عن الفزع والرعب من الموت، فالموت سياحة، وتحول إلى الأكمل والأفضل، وهو وصول إلى الأحباب والأصحاب وكذا فعل الأمر نفسه في الحديث عن القبر والساعة والبعث.

٣- درس حقائق كل من الملائكة والجن والشياطين دراسة جديدة مؤكِّدًا على جانب الروح في خلقهم، ورابطًا إياها بالمسائل الحديثة من تحضير الأرواح والتلثائي (التخاطر)؛ لإثباتها وإقناع المسلم المعاصر بوجودهم، وماهيتهم الروحية، وما ينبغي عليه تجاههم.

في التفسير العلمي للقرآن، أكد كولن على كون القرآن الأصل والعلم تابعًا وخادمًا له، فلا ينبغي في زهوة الانبهار بالعلم أن نلوي عنق الآيات أو نوولها حتى تتفق مع النظريات العلمية، فهذا تشويه وغض من قيمة القرآن.

nesemat.com

والروح للوصول إلى الحكمة، ولا بد أن تستند إلى الفيوضات الإلهية، وإلا ضلت طريقها وهدفها. يقول كولن: "الفلسفة الحقيقية هي معاناة فكرية وروحية نتيجة للتشويق الإلهي للإنسان لطلب الحكمة، ومن هنا يرى أن: "كل فلسفة لا تستند إلى الفيوضات الإلهية تعد فكرًا زائفًا"^(٣٥).

ويصطلح كولن على تسمية الفلسفة الإسلامية بالحكمة، وأظنه بهذه التسمية يروم إقامة فلسفة خاصة مرتبطة بديننا وتراثنا، فاستخدم المصطلح العربي حكمة، ولم يستخدم المصطلح اليوناني فلسفة بدليل نقده للفلاسفة الإسلاميين المقلدين لليونان، وكذا نقده للفلسفات والتيارات والمذاهب الغربية التي تخالف ديننا وتتعارض مع قيمنا وثقافتنا مثل الوجودية، والداروينية، والميكافيلية، وغيرها. أما عن القضايا التي ناقشها كولن فمن أهمها:

أ- المعرفة

يعطي كولن أهمية كبيرة للمعرفة بأنواعها، ويحث دومًا على الاهتمام بالتعليم، والارتقاء بالمعلمين؛ لأنهم من يبنون الأمة كلها، بل كان من أساسيات منهج كولن الذي سلكه وارتأه سبيلًا لنهضة الأمة التعليم، ومقاومة الجهل، والتزود بالمعارف المختلفة، ومواكبة العصر وعالم المعلومات.

ومن خلال البحث في نظرية المعرفة عند كولن تبين عدة حقائق:

١- المعرفة عند كولن ترتبط بنظرته إلى الوجود، فكلتاها يستخدم فيها المنهج نفسه في الربط بين الله، والإنسان، والكون.

٢- نظرة كولن إلى مصادر المعرفة متوازنة تجمع

بين عناصرها الوحي والحس والعقل والبصيرة، وهي نظرة الإسلام قبل كل شيء.

٣- دور الدين يكمن في معاونة الإنسان على فهم

ما وراء الحقائق العلمية من حقائق معنوية وروحية تبعث في النفس الأمن واليقين.

٤- ينبغي أن تظل حقائق الدين متعالية

ومتسامية عن إخضاعها أو تأويلها للتوافق مع أي حقيقة علمية، فالدين أصل والعلم تابع وخادم للدين.

٥- السبب الرئيس وراء اهتمام القرآن بعلم

الطبيعة، والعلوم الأخرى، هو الرغبة في دعوة الإنسان لمعرفة الله خالقه ﷻ.

٦- عدم الفصل بين الدين والعلم التي يتبناها

كولن هي دعوة ضد العلمانية الفكرية المنتشرة في العالم.

٧- الدعوة إلى اهتمام المسلمين بالعلوم وربطها

بالقرآن هي دعوة إلى أسلمة المعرفة، وهو ما دعا إليه كولن بالفعل، ولن يتقدم المسلمون إلا بتحقيق

الذاتية، والوجود والكيان الخاص بهم، وليس الاستيراد للعلوم القائمة على المادة والفكر الغربي.

مع منهجه العقدي في جعل الشرع مقياس كل شيء، إضافة إلى أنه مذهب أهل السنة وخاصة الأشاعرة. ٣- النفس في حاجة إلى تقويم وتهذيب وتعهّد؛ حتى تسمو فوق الغرائز، وتتوجه إلى السعادة، وتزاوّل الخير.

٤- السلوك أهم منتج نخلص إليه من الأخلاق سواء الفطرية أو المكتسبة، فهو الآلية المعبرة عن وجودها وتحققها.

٥- الإنسان المثالي عند كولن هو الإنسان الفاضل المستمسك بالفضائل الخلقية.

٦- التعليم هو الآلية المثلى في بناء الإنسان الفاضل وإعداده لخلافة الأرض وتعميرها، إذن فهناك جمع بين الفضائل الفكرية -كالعلم- جنباً إلى جنب مع الفضائل الخلقية.

٧- قواعد وأركان النظرية الخلقية عند كولن منبعها ومصدرها القرآن وتعاليمه.

ج- التصوف

يرى بعض الباحثين أن كولن هو "رومي تركيا الحديث" إشارة إلى تقارب فتح الله كولن الروحي من مولانا جلال الدين الرومي المدفون في "قونية" بتركيا، فكل منهما عاش حياة الزهد والروح، إلى جانب توافقهما في المنهج وهو الدعوة إلى السلام والمحبة بين الناس جميعاً، ومحاولة احتضان البشرية^(٣٧).

وقد ناقشت حقيقة كون فتح الله كولن صوفيّاً، ومفهوم التصوف ومنازله الروحية عنده، إضافة إلى موقفه من مظاهر التصوف ونظرياته وخرجت بعدة نتائج منها:

يقول كولن: "الفلسفة الحقيقية هي معاناة فكرية وروحية نتيجة للتشويق الإلهي للإنسان لطلب الحكمة، ومن هنا يرى أن: "كل فلسفة لا تستند إلى الفيوضات الإلهية تعد فكراً زائفاً".

٨- الدعوة إلى إبراز العلاقة بين الدين والعلم قد تكون نقطة انطلاق لحوار إسلامي مسيحي، وهو ما تبناه كولن.

ب- الأخلاق

الأخلاق من العناصر المهمة للغاية في فكر كولن إذ هي أصل من أصول الإسلام، وعليها يعوّل في بناء الحضارة، وتقويم الإنسان، وإعادة الروح من جديد في هذه الأمة، وهي الفارق والمميّز الحضاري لأمتنا عن حضارة الغرب المادية.

وكان حديث كولن عن الأخلاق حديث الفيلسوف المسلم الذي يستقي كل فضيلة، وكل خلق من مصادر الإسلام (الكتاب والسنة) إلى جانب الميراث الصوفي الإسلامي.

تحدث كولن عن الفضائل والرذائل، والنفس وسبل تقويمها، وقواعد النظرية الخلقية، والممارسة السلوكية للأخلاق، والإنسان المثالي.

ومن خلال حديثه حول الأخلاق يتبين أن:

١- الخير عند كولن مطلق وثابت، وفي هذا ضمان لمبادئ ومعايير واحدة بين الأمم في كل زمان ومكان.

٢- الفضائل مصدرها الشرع، فلا يمكن أن يقوم بنيانها على غير دين ترتبط به، وهو في هذا متوافق

كولن ليس صوفيًا كما يؤكد هو بنفسه والدارسين لحركته من الداخل والخارج، ولكن يمكن أن يقال عنه إنه صوفي بالمعنى، لتلبسه بمعاني التصوف المختلفة، واهتمامه بحياة القلب وتزكية النفس.

www.nesemat.com

١- كولن ليس صوفيًا كما يؤكد هو بنفسه والدارسين لحركته من الداخل والخارج، ولكن يمكن أن يقال عنه إنه صوفي بالمعنى، لتلبسه بمعاني التصوف المختلفة، واهتمامه بحياة القلب وتزكية النفس.

٢- كولن بكتابه "التلال الزمردية" يعتبر باحثًا في التصوف -وليس مجددًا أو مجتهدًا- على غرار القدامى والمحدثين في تنسيقه وموضوعاته، ويختلف عنهم فقط في العرض واللغة السهلة المناسبة للعصر، أما التجديد الحقيقي فهو مزج روح التصوف في سائر فكره حيث مزج بين العقل والقلب، وركز على الثمار المعنوية، وتمكن من التأثير في الوجدان، وهذا غاية ما يؤمل من طريق التصوف.

٣- مفهوم التصوف عند كولن موافق لمعاني التصوف عند مؤرخي التصوف والصوفية، ولكنه على أية حال انتهى إلى تعريف خاص به يتلاءم مع لغة العصر.

٤- المنازل الروحية عند كولن هي نفسها ما قرره القشيري في مقاماته وأحواله ولكن مع بسط بلغة تناسب العصر، فيحاول تبسيط المفاهيم الصوفية للجمهور، فمثلاً عندما يأتي بمعنى من المعاني الصوفية يعرفها في اللغة، وفي عرف السامعين قبل أن يعرفها عند أربابها من الصوفية، ويقوم بشرحها وإيراد معاني مختلفة لتوضيحها.

٥- وإلى جانب تأثيره بالقشيري فهو متأثر جدًا بالرومي فقل أن تجد معنى يتحدث عنه إلا ويورد من كلام (الرومي) أو من المثنوي الفارسي ما يدعمه،

هذا بخلاف تأثيره الواضح ببديع الزمان النورسي.

٦- يظهر حسه الفني والأدبي في جميع ما يكتب؛ حيث يظهر تأثيره الشديد بفن الشعر، فيورد كثيرًا من أشعار القدامى والمحدثين يؤيد بها فكرته، فمن القدامى: (الشافعي)، و(البوصيري)، و(زهير بن أبي سلمى)، و(علي بن أبي طالب)، و(رابعة)، ومن المحدثين: (نجيب فاضل)، و(يونس أمره).

٧- يهتم بالثمار العملية من وراء دراسة التصوف؛ لذا فإنه في كل معنى يذكر ثمرات الموضوع ونتائج العملية، كما يهتم بالقلب كثيرًا وسبيل حياته؛ حتى يحدث توازن بين الروح والبدن.

٨- يؤمن ببعض النظريات الصوفية كالإنسان الكامل والحقيقة المحمدية، وينتقد بعضها كوحدة الوجود، والحلول والاتحاد.

٩- يلجأ إلى تأويل أقوال الصوفية المخالفة للشريعة مثل قول ابن عربي في وحدة الوجود، وأقوال غيره في الحلول، وموقف التأويل هذا وعدم رمي الصوفية بالكفر والخروج عن الشريعة موقف لبعض رجالات الإسلام عبر العصور مثل: الجنيد وابن تيمية.

١٠- تأكيده كل حين على عدم تكفير الصوفية بظواهر أقوالهم هو موقف أصيل في فكره تجاه جميع

والبساطة، إضافة إلى إمامٍ بالقديم والحديث من هذا التراث، وصبغه بصورةٍ عصريةٍ تناسب العصر والجيل. وبذا يمكن أن يُعَدَّ من رواد التجديد ولا سيما في علم الكلام، أو ما يسمى الآن علم الكلام الجديد، فقد جدد في اللغة فكانت سهلة واضحة علمية، لتناسب العصر ومنطقه وأفهام أهله، وجدد في الأسلوب والعرض، فكان يجمع بين الروح والعقل "التأثير على الوجدان مع الإقناع العقلي"، فأكثر من استخدام العلم ومنجزاته؛ لخدمة قضايا العقيدة، فساقها بصفاها معتمداً على الكتاب والسنة كسند أول، وأكثر من ضرب الأمثلة العقلية والمنطقية، والشواهد من داخل تراثنا وخارجه، إضافة إلى أنه لم يتحزب لفريق أو مذهب، فقد وافق الجمهور كثيراً، وأحياناً نزل على رأى الماتريديّة، وفي أحيان أخرى نحى منحى الأشاعرة، ومع ذلك قد تجد له رؤية مستقلة واجتهاداً خاصاً يميل إليه بعيداً عن المذهبين السالفين.

٢- يقتصر كولن على ما له صلة، وأثر في العمل، وفي حياة الناس، ولا يبحث القضايا الجدلية المذمومة، أو التي لا يبنى عليها عمل، وهذا واضح في قضايا الإلهيات، والنبوات، والسمعيات التي ركز عليها.

٣- من خلال مطالعة ما كتب في القضايا الفكرية، أستطيع القول إنه موسوعي يلم بالتراث القديم، ويطالع الحديث في جميع المجالات العلمية والفكرية.

٤- جمع بين الأصالة والمعاصرة فقد أسس منهجه على الذاتية أو (التراث) مع مواكبة العصر ومتطلباته وتقنياته؛ ومن أجل ذلك دعا إلى أن نجدد ذواتنا في

أرى أن يتبنى علم الكلام الجديد التأكيد على خطورة التكفير وأنه ليس من أمر العامة -ولا طلبة العلم- إطلاق الأحكام، وإنما يسعنا ما وسع سلفنا من الاعتذار والتأويل للمخالف وسلامة الصدر للجميع.

المخالفين، وهو ما نحتاجه في زماننا المعاصر الذي صار التكفير فيه كالماء والهواء على ألسنة المتخالفين، وللتنبية على خطورة هذا الأمر أرى أن يتبنى علم الكلام الجديد التأكيد على خطورة التكفير وأنه ليس من أمر العامة -ولا طلبة العلم- إطلاق الأحكام، وإنما يسعنا ما وسع سلفنا من الاعتذار والتأويل للمخالف وسلامة الصدر للجميع.

إذن يعد كولن من رواد الفلسفة الإسلامية المعاصرة، تلك الفلسفة التي تهتم بالواقع والمشكلات المعاصرة ولا تنفصل عن الإنسان والحياة، وذلك واضح في جميع الموضوعات التي طرّقها إضافة إلى مساهمته الفعالة في إيجاد الحلول لبعضها؛ فقد اعتبر أن أعداء الحضارة هي الفقر والجهل والفرقة، فسعى بجهوده وجهود من اعتنق فكرته للقضاء على هذه المعوقات بإغاثة الفقراء والضعفاء وبناء المدارس ودور العلم المختلفة في كل بقاع الأرض، وإقامة المؤسسات لتحقيق الوحدة بين المسلمين أنفسهم والتقارب بينهم وبين غيرهم من أهل الديانات والحضارات الأخرى. وبعد هذه الرحلة الماتعة الهادفة في فكر كولن نخرج بعدة نتائج:

١- يتميز كولن في عرضه لقضايا العقيدة بالوضوح

دائماً ما يشفع كولن رؤيته في المسائل العقديّة بشرحها بطريقة علمية منطقية قريبة من مستوى إدراك الإنسان، فقد استخدم العلوم في إثبات وجود الله ﷻ وصفاته وفي إعجاز القرآن الكريم وغير ذلك.

www.nesemat.com

كل شيء في الفكر، والعلوم، وغير ذلك حتى نلحظ ركب الحضارة.

٥- تبنى الدعوة إلى إقامة فلسفة خاصة بالمسلمين بعيداً عن فلسفة اليونان والغرب وغيرهم، فلسفة تستمد طرقها ونظرتها من قيمنا وأصولنا، لا تقليدياً وترقيعاً من تراث غيرنا.

وختاماً ينبغي على المخلصين من هذه الأمة ترجمة دعوات كولن إلى واقع معيش للمساهمة في نهضة الأمة وريادتها وانبعاثها من جديد. ■

الهوامش

- ١١٨، دار النيل، ط: ٧، ٢٠١٢.
- (١٦٦) إبراهيم غانم: مقال الخدمة في خدمة عالمية الإسلام ص ١٩، ٢٠ مجلة حراء عدد ٤٢ سنة ٢٠١٤.
- (١٦٧) ينظر: ونحن نبني حضارتنا ص ٩٣، ٩٤، دار النيل ٢٠١٢.
- (١٦٨) ينظر: محمد جكيب: أشواق النهضة والانبعث قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن ص ٢١٦، دار النيل ٢٠١٣.
- (١٦٩) ينظر: ونحن نبني حضارتنا ص ٩٣.
- (٢٠) السابق ٩٣.
- (٢١) كولن: مقال محور أصول الدين من موقع herkul على شبكة الإنترنت بتاريخ ٢٠١٦/٤.
- (٢٢) محمد عبد الهادي أبو ريدة : الفلسفة الإسلامية وبعض قضايا العصر ج ١ ص ٥٦٧ تحقيق وتقديم: د/ فيصل بدير عون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١١.
- (٢٣) محمد جكيب: أشواق النهضة ص ٢١٩.
- (٢٤) السابق.
- (٢٥) محمد جكيب: أشواق النهضة ص ٢١٩.
- (٢٦) ينظر: محمد جكيب: أشواق النهضة ص ٢١٩، ٢٢٢.
- (٢٧) فتح الله كولن: أسئلة العصر المحيرة ج ١ ص ١٨٥.
- (٢٨) السابق ص ١٨٦.
- (٢٩) السابق ص ١٨٦، ١٨٧.
- (٣٠) ينظر: محمد جكيب: أشواق النهضة ص ٢٣٠.
- (٣١) السابق: ص ٢٢٠.
- (٣٢) السابق: ص ٢٢٠.
- (٣٣) السابق: ص ٢٢٩.
- (٣٤) ينظر: كولن، القدر في ضوء الكتاب والسنة ص ١٢٥ وينظر: الرد على شبهات العصر ص ٣٥.
- (٣٥) الموازين ص ١٦٤.
- (٣٦) ينظر: ماجول حسن خان: فتح الله كولن الرؤية والتأثير تجربة فاعلة في المجتمع المدني ص ٣٠، دار النيل- القاهرة ٢٠١٥.
- (١) ينظر: إبراهيم البيومي غانم: بحث معالم في سيرة حوجه أفندي محمد فتح الله (البسام) الأناضولي، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي ٢٠٠٩ ص ٢٣٠، ٢٥٢، دار النيل، ط: ١، ٢٠١١.
- (٢) يراجع: أرطغرل حكمة: فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر ص ٢٢.
- (٣) ينظر: إبراهيم غانم: بحث معالم في سيرة حوجه أفندي ص ٢٢٠.
- (٤) ينظر: السابق ص ٢٢٤.
- (٥) ينظر: أرطغرل حكمة: فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر ص ٣٣، ٣٤.
- (٦) ينظر: السابق ص ٣٧، ٥٤.
- (٧) ألف كولن قصيدة سماها أيام المخيمات، ومقالاً سماه زمن المخيمات ينظر : أرطغرل حكمة: فتح الله كولن قصة حياة ص ٧٣، ٧٩، وفريد الأنصاري: ينظر عودة الفرسان ص ٢٥٩.
- (٨) ينظر: أرطغرل حكمة: فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر ص ٦٠، ١٠٠.
- (٩) ينظر: فريد الأنصاري: عودة الفرسان ص ٣٢٥.
- (١٠) ينظر: فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر ص ١٠٦، ١١٠.
- (١١) أرطغرل حكمة: فتح الله كولن قصة حياة ص ٤١، ٥٠، ٨٠، ٩٨.
- وينظر: فريد الأنصاري: رواية عودة الفرسان سيرة محمد فتح الله كولن ص ١٥٣، دار النيل، ط: ٣، ٢٠١٢.
- (١٢) ينظر: عودة الفرسان ص ٣٣٠.
- (١٣) ينظر: إبراهيم غانم: بحث في سيرة حوجه أفندي ص ٢٤٠.
- (١٤) ينظر: علي أونال: فتح الله كولن ومقومات مشروعه الحضاري ص ٣٩٦، دار النيل- القاهرة، ط: ١، ٢٠١٥.
- (١٥) ينظر كولن: الموازين وكلامه عن أهمية كل فن من هذه الفنون ص ١١٢.

انتهاكات حقوق المرأة في تركيا

نسمة
للدراسات الاجتماعية والحضارية

أعد التقرير

التقرير الذي بين أيدينا يعطينا صورة عن طبيعة الوضع المزري الذي آلت إليه حقوق المرأة في تركيا، خاصة بعد محاولة انقلاب يوليو ٢٠١٦ المزعومة، كما يرصد بعض ممارسات السلطة الحاكمة من انتهاكات ضد داخل تركيا، وخاصة ما يتعرضن له داخل السجون من إساءات ومعاملات لا إنسانية، هذا بخلاف معاناتهن خارج السجون وما يتعرضن له من مضايقات وتشريد إجباري وتشنيت لشمّل الأسر التي تكون ضحيتها في الأعم الأغلب المرأة. كما يتناول التقرير ما تتعرض له هذه العائلات خارج تركيا من اختطاف قسري وترحيل غير قانوني، و تجاوزات حقوقية من قبل قنصلياتهم وسفاراتهم التي تتعارض كلياً مع حقوق المواطنة ولا تمت إلى الإنسانية بصلة.

كل ذلك مدعوم بأحدث البيانات والمعلومات الواردة في الإعلام المحلي والعالمي، وتقارير منظمات حقوق المرأة والطفل التي تؤكد جميعها على تراجع تركيا كثيراً في ملف احترام حقوق المرأة، واحتلالها مركزاً متقدماً في العالم بين الدول التي تمارس اضطهاداً ممنهجاً ضد النساء عموماً، ونساء المعارضة بشكل خاص.

نسمة (nesemat.com)
إصداره ورقية بحثية
متخصصة في الدراسات
الاجتماعية والحضارية في
إطار مجموعة من المحاور
المتعلقة بمشاريع الإصلاح
وقضايا التجديد وحوار
الأديان والثقافات والحضارات
وقيم نشر التسامح والعيش
المشترك والسلام العالمي،
ومشاريع التربية والتعليم
والتنمية المستدامة، ونبذ
العنف والتطرف والإرهاب.





مقدمة

يتعرض عدد من النساء التركيات لعمليات ممنهجة من التعسف والاضطهاد داخل تركيا وخارجها، وخاصة نساء الأقليات الإثنية، والنساء الناشطات في مجال المجتمع المدني وحقوق الإنسان، وفي مقدمتهن نساء حركة الخدمة، حيث تتخذ منهن السلطات التركية -برئاسة رجب طيب أردوغان- غرضاً لكل الإجراءات التعسفية التي تمارسها فيما بعد مسرحية الانقلاب المزعوم في ١٥ يوليو ٢٠١٦. ولا يعني هذا أن أوضاع النساء وخصوصاً نساء الأقليات والناشطات في منظمات العمل المدني في تركيا كانت أفضل حالاً قبل هذا الانقلاب المزعوم.

والأسئلة التي تطرح نفسها هنا، لِمَ لَمْ يتم تداول أوضاع المواطنين التركيات داخل السجون وخارجها؟ وما حقيقة ما يحدث لهن داخل السجون؟ وما الدوافع التي يتم بمقتضاها معاقبة النساء اللاتي يُشتبه في انتمائهن لحركة الخدمة؟ أو ما الحيثيات التي على أساسها تُعاقب النساء اللاتي يشتهن أن أزواجهن على علاقة بالخدمة؟ وكيف تعيش النساء المسجون أزواجهن؟ وهل الهروب من جحيم تركيا ممكن لهن؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سيحاول التقرير أن يجيب عنها طبقاً للمعلومات المتوافرة، التي تتناقلها وسائل الإعلام العالمية وتقارير المنظمات الحقوقية العالمية، وشهادات الشهود من الحالات التي تم تسجيلها بوساطة الاتصال الشخصي لمعدي التقرير مع بعض الضحايا الأحياء أومع ذوي الضحايا الذين قضا

تشير أدلة موثوقة إلى أن العديد من النساء المحتجزات في أعقاب محاولة الانقلاب يتعرضن بصورة روتينية للتعذيب وسوء المعاملة ويصل الأمر إلى حدِّ الاعتداء الجنسي.

nesemat.com

نحبهم نتيجة هذه الممارسات اللإنسانية، والذين رفض بعضهم التصريح بأسمائهم مما اضطرنا معه إلى إخفاء أسمائهم خشية تعرض ذويهم للتنكيل بهم. علماً بأن هذه المعلومات في أحيان كثيرة لا تضعنا أمام المشهد بصورة كاملة، فالسلطات التركية تخفي الكثير من البيانات عن أحوال وأعداد النساء داخل السجون، لا سيما وأن الجميع يشعر بالرعب خوفاً على مصيره إذا تحدث عما يجري داخل السجون التركية.

وضع المرأة في ظل "العدالة والتنمية"

قامت حكومة العدالة والتنمية التركية في أعقاب الانقلاب المزعوم يوليو ٢٠١٦ باعتقال عشرات الآلاف من النساء، بلغ ١٨,٠٠٠ امرأة، شملت كل فئات المجتمع من ربات بيوت إلى صحفيات ومعلمات، وأكاديميات وطبيبات ومهنيات ونساء أعمال، بزعم وجود صلات لهن بحركة الخدمة التي تتهمها الحكومة التركية بلا أي سندٍ قانوني بأنها جماعة إرهابية. وتشير أدلة موثوقة إلى أن العديد من النساء المحتجزات في أعقاب محاولة الانقلاب يتعرضن بصورة روتينية للتعذيب وسوء المعاملة ويصل الأمر إلى حدِّ الاعتداء الجنسي. وأكثر ما يدعو إلى القلق هو تعرُّض ١,٢٠٠ مواطن من سكان شرق تركيا من

أحجمت وزارة العدل التركية حتى الآن عن تقديم إحصاءات دقيقة عن عدد النساء المحرومات من حريتهن، رغم الطلبات المتكررة التي قدمتها عديد من المنظمات والهيئات المعنية بحقوق المرأة.

nesemat.com

وتؤكد عديد من التقارير أن النساء التركيات كثيرًا ما تعرّضن للتمييز داخل المجتمع التركي، فخلال شهر فبراير من العام ٢٠١٨ قُتلت ٤٨ امرأة على يد رجال^(٢). وحسب تقرير آخر، أنه وفي خلال الثمان سنوات الماضية قُتل قرابة ٢٠٠٠ امرأة تركية^(٣). هذه الأرقام تُمثل فقط الحالات التي تم رصدها والتبليغ عنها، ولكن المتوقع أن يكون العدد الفعلي أكثر من ذلك.

وقد أشار تقرير نشرته إحدى الصحف حول ما تعانيه النساء في تركيا من تمييز، إلى ما يقارب الخمس نساء أو أكثر يتعرضن للقتل يوميًا^(٤). وفي تقرير يرصد الزيادة المضطردة في أعداد قتل النساء التركيات، أظهر أن نسبة ضحايا القتل من النساء خلال عام ٢٠١٧ قد زادت ٢٥٪ عن عام ٢٠١٦، حيث وصل عدد الضحايا من النساء المقتولات إلى ٤٠٩ امرأة^(٥). كما صدر تقرير في ديسمبر ٢٠١٧ عن حركة النسوة الأحرار (TJA) تحت عنوان "انتهاكات حقوق المرأة داخل السجون في ظل حالة الطوارئ"^(٦)، وقد ذكر التقرير أن السجون التركية المخصصة للنساء قد اكتظت بالسجينات وفقدت قدرتها على الاستيعاب، ما أدى إلى تكديس السجينات داخل السجون، وقد قامت الحكومة التركية في سابقة خطيرة بسجن النساء في السجون المخصصة للرجال، لا سيما بعد أن وصل عدد السجينات إلى ١٨,٠٠٠ امرأة.

وطبقًا لدراسة إحصائية أجرتها جامعة Kadir Has (Has) بإسطنبول تبين أن ٦١٪ من النساء يُمثل تعرضهن للعنف أحد أكبر مشاكلهن، كما أفصحت الدراسة ذاتها أن عدد النساء اللاتي يتعرضن للعنف بصورة مستمرة

النساء والشيوخ والأطفال للقتل في عمليات قامت بها قوات الأمن، في الفترة ما بين يوليو ٢٠١٥ إلى ديسمبر ٢٠١٦. ومن الجدير بالملاحظة هنا أنه يوجد ما يُقارب نصف مليون مواطن مشرد من أصل كردي في جنوب شرق تركيا من النساء والأطفال والشيوخ^(١). كما تتعرض النساء اللواتي يتحدثن عن تجاوزات الحكومة التركية للتهديد والتخويف والاضطهاد والسجن، وفي عرض مستمر لا تزال النساء المدافعات عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة من الصحفيات وغيرهن من الناشطات، يواجهن تحديات سافرة من قبل الحكومة. وتُعَدُّ النساء الكرديات والنساء المنتميات لحركة الخدمة لا سيما المدافعات عن حقوق الإنسان منهن، أكثر النساء تعرّضًا لعبء القمع الحكومي، من خلال سلسلة من مراسيم الطوارئ التي أصدرتها الحكومة عقب الانقلاب المزعوم في يوليو ٢٠١٦. ففي ظل حالة الطوارئ التي استمرت لأكثر من عامين تم إغلاق كثير من المؤسسات والهيئات غير الحكومية المدافعة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل، إذ تمَّ وبصورة غير قانونية إغلاق ١,١٢٥ منظمة غير حكومية، و ٥٦٠ مؤسسة خيرية، و ١٩ اتحادًا تجاريًا نسائيًا لسيدات الأعمال.

خلال شهر فبراير من عام ٢٠١٨ قُتلت ٤٨ امرأة على يد رجال. وحسب تقرير آخر، أنه وفي خلال الثمان سنوات الماضية قُتلت قرابة ٢٠٠٠ امرأة تركية. هذه الأرقام تُمثل فقط الحالات التي تم رصدها والتبليغ عنها.

nesemat.com

إلى سجن كبير مفتوح، فكثير من النساء اللاتي كن على علاقة بالخدمة بأي شكل من الأشكال حتى أولئك المشتركات في وسائل الإعلام المحسوبة على حركة الخدمة من جرائد أو مجلات، أو من كانت لها حساب في بنك آسيا الذي كان مملوكاً لرجال أعمال محسوبين على الخدمة، أصبحن محل شبهة وتعرضن لأغلبهن للاعتقال تحت مسمى قانون "الشبهة المعقولة" المنافي للدستور، والذي صدر بموافقة الأغلبية البرلمانية التابعة للحزب الحاكم. وهكذا صار هذا القانون قبل محاولة الانقلاب الفاشلة سيفاً مسلطاً على رقاب كثير من المعارضين والمخالفين لتوجهات الحزب الحاكم، وفي مقدمتهم منسوبو حركة الخدمة من رجال ونساء وكذلك أعداد كبيرة من المعارضة الكردية. أما بعد محاولة الانقلاب فقد تكفلت قوانين الطوارئ التي فرضت على البلاد باعتقال كل من تسول له نفسه التفكير في المعارضة، وهكذا تحولت تركيا إلى دولة يُسيطر عليها مناخ الخوف لا سيما النساء والأطفال وعوائلهم.

تشريد العائلات بالقانون

ولبسط الحقيقة بصورة واضحة سيسلط التقرير الضوء

ارتفع من ٥٣٪ عام ٢٠١٦ ليصل إلى ٥٧٪ عام ٢٠١٧. وتواجه الباحثين عديد من العقبات في رصد ما تعانيه المرأة التركية من أوضاع غير إنسانية، ويأتي على رأس هذه العقبات، إصرار الرئيس التركي أردوغان الدائم في خطابه الموجهة للإعلام، على وجوب عدم ذكر أو إصدار أخبار متعلقة بما يتعرض له النساء والأطفال من عنف وتحرش، وهذا ما يؤكد عليه ويكرره مراراً كما فعل في خطابه الذي ألقاه في مارس ٢٠١٨^(٧).

الجدير بالملاحظة أن حزب العدالة والتنمية التركي يروج -منذ وصوله إلى سدة الحكم- لرسم صورة مُطية عن المرأة. فالتمييز ضد المرأة إذن ينفذ بصورة ممنهجة.

وقد أشار "المعهد التركي للإحصاءات" أن عدد النساء الأميات يوازي خمسة أضعاف عدد الرجال الأميين، كما أن النساء يتقاضين رواتب أقل من الرجال في العمل ذاته. في حين أن نسبة المشاركة السياسية للمرأة قليلة جداً، ولا تتخطى ٧،٤٪ من أعضاء الحكومة عام ٢٠١٥، والـ ٢،٩٪ في رئاسة البلديات والمجالس المحلية في عام ٢٠١٤، والـ ١٥٪ في البرلمان ٢٠١٥. كما أبرز المعهد في دراسته أن حوالي ٣٥٪ من النساء المتزوجات قد تعرضن إلى عنف في حياتهن الزوجية مرة واحدة على الأقل^(٨). وخلال الانتخابات البرلمانية التي أجريت في ٢٤ يوليو ٢٠١٨ بلغت نسبة البرلمانيات ١٣٪ فقط من إجمالي أعضاء البرلمان^(٩).

تركيا سجن كبير

لقد تحولت تركيا بالنسبة لملايين من المواطنين

تتعرض النساء اللواتي يتحدثن عن تجاوزات الحكومة التركية للتهديد والتخويف والاضطهاد والسجن، ولا تزال المدافعات عن حقوق المرأة من الصحفيات والناشطات يواجهن تحديات سافرة من قبل الحكومة.

nesemat.com

الحياة الذي كانت تعتمد عليه، مما اضطرها لقبول مساعدات من بعض الأقارب والجيران على حذر منهم، حتى لا يتعرضوا بدورهم للاعتقال نتيجة مد يد العون لها، كما اضطرت هي لتعلم الخياطة لتكفل لها ولأولادها بما تبذله من جهد بعض الليرات التي لا تسد رمق العيش ولا تكفي لاستمرار حياة كريمة^(١٠).

إن هذه الحالة تمثل نموذجًا لما يتجاوز ثمانين ألف حالة مشابهة تعرضن لشظف العيش وضيقة نتيجة فقدان العائل بالاعتقال أو الموت في غياهب السجون رغم أن بعضهن كن من مؤيدات الحزب الحاكم.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل وصل أن تعرضت هؤلاء النسوة إلى الاعتقال بالتهمة عينها التي اعتقل بها أزواجهن، وهكذا ظل الأطفال بلا عائل يعولهم من الأبوين، ومن كان من هؤلاء الأطفال رضيعًا التحق بأمه في السجن لينشأ بين أحضان نزيلات السجن المحبوسات على ذمة قضايا مختلفة. أما من لم تطالهم يد النظام بعد فالخوف المستمر والقلق الدائم هو الذي يسيطر على كل أوقاتهن من ليل أو نهار، فمع كل سريفة لسيارة شرطة أو مع كل طرقة على الباب تفزع هؤلاء النساء ظنًا منهن أن الشرطة قادمة لاعتقالهن.

هذا فضلًا عن حالة العزلة الاجتماعية القسرية التي فرضت عليهن؛ فكثير من جيرانهن وأقاربهن يبتعدون عنهن إما تأثرًا بالدعاية السيئة التي تبثها وسائل الإعلام في حقهن صباح مساء، وإما خوفًا على أنفسهم من أن يتهموا بأنهم موالون للخدمة أو منتمون لها.

على بعض الحالات التي وثقتها الصحافة والتقارير الإعلامية، فمن ذلك "س" الذي كان مدرسًا للتاريخ في أحد مدارس الخدمة، بعدما فصل من وظيفته الحكومية التي كان يعمل بها قبل أربعة أعوام من محاولة الانقلاب بتهمة انتمائه لحركة الخدمة؛ تحكي زوجته أنه عقب حدوث محاولة الانقلاب اقتحمت الشرطة البيت، وقيّدوا يديه وطرحوه أرضًا، وانها لو عليه بالضرب في محاولة لإجباره على الاعتراف على زملاء له بأنهم إرهابيون، ثم اقتادوه بعد ذلك إلى مكان غير معلوم، وقد جعل هذا المشهد الزوجة تتساءل في حيرة وأسى عن سر هذه المعاملة السيئة من نظام كانوا يدلون بأصواتهم لصالحه في الانتخابات، ثم صار يعاملهم على أنهم إرهابيون بدون أي أدلة. وبعد خمسة أيام من البحث والتحري عن مكان زوجها المفقود وقع ما كانت تخشاه، فقد كان زوجها يعاني من داء السكري، ويجب أن يحصل على دوائه بانتظام حتى لا يتعرض للوفاة، وبالفعل توفي الزوج نتيجة إهمال الشرطة -في المخفر الذي كان معتقلًا فيه- إعطائه الدواء اللازم رغم نداءاته المتكررة ومعاناته أمام أعينهم.

وبذلك فقدت المرأة وأطفالها عائلها الوحيد في

تكفلت قوانين الطوارئ التي فرضت على البلاد باعتقال كل من تسول له نفسه التفكير في المعارضة، وهكذا تحولت تركيا إلى دولة يُسيطر عليها مناخ الخوف لا سيما النساء والأطفال وعوائلهم.

www.nesemat.com

وظيفته بالتَّهْمِ عيها^(١١).

لقد تم القبض في نهاية مارس من العام ٢٠١٨ على ٧٠ امرأة لأنهن يُقدمن مساعدات مالية لعائلات المقبوض عليهم، وتم توصيف التهمة بأنها تقديم مساعدات مالية لأفراد ينتمون لمنظمة إرهابية^(١٢). وطبقًا للتقرير الذي أعدته "جمعية العدالة من أجل الضحايا" تحت عنوان "الخسائر الفردية والاجتماعية التي تسببت فيها حالة الطوارئ في عامها الثاني" أظهرت نتائج استطلاع تم إجراؤه على عينة من المشاركين أنه وفي خلال حالة الطوارئ كان يشعر ٨١٪ من المشاركين في هذه العينة بالخوف والرعب وهم في منازلهم إذا طرق الباب أي طارق، كذلك بين التقرير أن ٩٨٪ فقدوا الثقة مطلقًا في القضاء^(١٣).

ورغم فصل الحكومة التركية أكثر من ١٥٠ ألف موظف من وظائفهم بحجة انتمائهم لجماعة الخدمة دون أي دليل أو محاكمة فقد أصدرت الحكومة قانونًا جديدًا يمنعهم من السفر للعمل بالخارج ومنعهم أيضًا من العمل في تركيا ولو بالقطاع الخاص، مما حدا بصحفي متخصص في الشؤون التركية أن يعلق على الخبر في تغريدة له على تويتر بتاريخ ٧ نوفمبر ٢٠١٨ قائلاً: "تخيل هذه القسوة وهذا الظلم... أليس هذا

ومما زاد الأمر سوءًا أن الحكومة قد قررت مكافأة مالية لمن يبلغ عن أحد المنتمين للخدمة ممن لا تطاله يد الشرطة، من خلال إنشاء خط ساخن لهذا الغرض، بعد نشره بشكل مستمر عبر قنوات ووسائل الإعلام المختلفة. ولذلك فإن أي مشكلة تنشأ بين الجيران أو بين أطفالهم قد تؤدي بأن يقوم أحدهم بالتبليغ عن الآخر بتهمة الانتماء إلى الخدمة انتقامًا منه أو رغبة في الحصول على هذه المكافأة المادية، لا سيما في ظل غياب العدالة وعدم تطبيق القانون والاكتماء بمجرد الشبهة لإلقاء القبض على أي مواطن.

ذوو الاحتياجات الخاصة ليسوا استثناء

امرأة أخرى تم توثيق معاناتها وهي "فاطمة كويون" تبلغ نسبة إعاقتها الجسدية ٨٠٪، ويعاني زوجها أيضًا من إعاقة بنسبة ٤٥٪، ورغم ذلك فقد كان هذا الزوج المعاق هو السند والتمكأ الذي تعتمد عليه فاطمة في أغلب شؤون حياتها. زوج فاطمة هذا اعتقلته السلطة التركية بوشاية من أحدهم، ورغم الحالة الصحية التي يعانيها هو وزوجته لم ترحمه السلطات وزجت به وبأخيه الأصغر في غياهب المعتقلات.

تعيش فاطمة الآن بعد اعتقال زوجها في ظروف معيشية غاية في الصعوبة، فهي تسكن وأطفالها في بيت مستأجر مع أبيها الذي يبلغ من العمر ٦٥ عامًا، يعتمد عليهم في شؤون حياته، وليس لهم من عائل سوى ما يعطيه لهم أحد أشقاء زوجها الذي يعمل عامل إنشاءات باليومية بعدما فقد هو الآخر

زوجي المنزل قبل عام خوفاً من ملاحقة الشرطة له. ورفع قضية طلاق، حتى لا تستمر الشرطة في مضايقاتي بسببه. ولكنه تراجع عنها حالياً. ونظراً لعجزتي عن دفع إيجار المنزل الذي كنت أقيم أنا وأطفالي فيه فقد انتهى بي المطاف إلى كوخ صغير استأجرته. لقد ترك هذا الواقع الأليم أثراً سيئاً في نفوس الأولاد. لم تكن في الكوخ أبواب ولا نوافذ. ولدي شهود على ذلك. لم يكن لدينا غاز طبيعي ولا أنبوبة غاز طيلة ٨ أشهر. فقط طبخنا البطاطا في فرن حديدي صغير وأكلنا الخبز القديم. ذهبت للعمل باليومية؛ فاشتغلت في أعمال أجرتها اليومي حوالي ٤٠ ليرة. وقد سقطت في موقع الإنشاءات فكسرت ذراعي. علاقتنا مع جيراننا معدمة. وكثيراً ما تقوم الشرطة ورجال الدرك باقتحام كوشي بشكوى من المختار وفرع حزب العدالة والتنمية الحاكم في الحي"^(١٥).

٣- من أكاديمية مرموقة إلى امرأة مضطهدة

تبلغ "أوغيت أوكتيم تانور" من العمر ٨٢ عاماً، وهي أستاذة في علم النفس وأول أخصائية في علم النفس العصبي في تركيا، كانت "أوغيت أوكتيم تانور" أستاذة شرف في جامعة إسطنبول. أما الآن، فقد خسرت الكثير من المزايا التي كانت تتمتع بها كموظفة في الدولة، ومنعت من السفر إلى الخارج، كل ذلك بتهمة "الترويج للدعاية الإرهابية". لم تكن تلك المرة الأولى التي تعاني منها "تانور" من الاضطهاد فقد هربت قبل ذلك مع زوجها خارج البلاد أثناء انقلاب ١٩٧١ خوفاً من الاعتقال والسجن. وتقارن تانور بين معاناتها في

لقد تم القبض في نهاية مارس من العام ٢٠١٨ على ٧ امرأة لأنهن يُقدمن مساعدات مالية لعائلات المقبوض عليهم، وتم توصيف التهمة بأنها تقديم مساعدات مالية لأفراد ينتمون لمنظمة إرهابية.

قراراً بموتهم؟ الموت البطيء والمهين"^(١٤).

ضحايا من النساء يتحدثن عن معاناتهن

إن النساء التركيات وهن يتعرضن للضغوط الاجتماعية الشديدة يتعذبن أكثر من مرة، فهي الأم وهي الزوجة وهي المعيلة في أحيان كثيرة ولعل بعض الأمثلة توضح ذلك:

١- ينتظرونني أمام باب الحمام

"عاني أطفالي كثيراً من المتاعب، لم يكن زوجي بجاني، كان صعباً للغاية أن تفعل كل شيء بمفردك، أن تكون رجلاً وامرأة في آن واحد. كان لدي خوف دائم من الاعتقال. وبالرغم من أن أعمار أولادي بين الـ ١٢ و١٣ عاماً، فإنهم ينامون معي. وإذا نهضت من الفراش للذهاب إلى الحمام أو لأي شيء آخر تعالت صرخاتهم منادين عليّ: "أين أنت يا أمه؟" ومن شدة خوفهم ينتظرونني أمام باب الحمام. وعلى الرغم من أنني لم أرغب في إظهار خوفي لهم؛ إلا أنهم كانوا يشعرون به دائماً". هذا ما جاء على لسان أحد الضحايا، وهو مثال يعبر عن حالة عامة سائدة في بيوت كثيرة كانت ضحاياها من نساء الخدمة.

٢- كوخ بلاد أبواب أو نوافذ

وفي حالة أخرى أصعب تقول الضحية: "لقد ترك

"من شدة خوف أولادي ينتظرونني أمام باب الحمام. ورغم أنني لم أرغب في إظهار خوفاي لهم، فإنهم كانوا يشعرون به دائماً".

www.nesemat.com

يحاولون الهروب من حالة الرعب الدائم التي يعيشونها داخل تركيا، وذلك عن طريق الهجرة غير الشرعية؛ فقد منعت الدولة مئات الآلاف من المواطنين من السفر وألغت جوازات سفر العديد منهم لا سيما الذين تم فصلهم من العمل. لقد كان دافع هؤلاء للهروب من ذلك الجحيم هو عدم استطاعتهم الحصول على فرصة عمل داخل تركيا بإيعاز من السلطة الحاكمة، بالإضافة إلى فقدهم الدفء الاجتماعي حيث يتهرب منهم أقاربهم وجيرانهم خوفاً من عقاب السلطات. إلا أن مخاطر الهروب عديدة فالكثير من الأشخاص يموتون أثناء محاولة الهروب من هذا الاضطهاد المستمر والمنظم بقيادة السلطة الحاكمة في تركيا وسنذكر بعض الأمثلة لذلك.

١- لم يتعرف على هويتهما أحد

"نور مادن" وزوجها "حسين مادن" حاولا الفرار من تركيا بأبنائهما الثلاثة، واللجوء إلى اليونان عن طريق بحر إيجه، ولكن الفاجعة حصلت بغرق أفراد العائلة جميعاً أثناء محاولة الفرار. وكان هذا خلال شهر نوفمبر من عام ٢٠١٧، حيث أعلنت السلطات اليونانية أنها عثرت على جثتين لفتاة في عمر ١٣ وصبي في نفس العمر ماتا غرقاً، وقد تكاملت فصول

تلك الأحداث الراهنة وأحداث انقلاب ١٩٧١م فتقول: "ذلك الزمن كان أفضل من هذا، لأن القضاء في الماضي كان يمكن الوثوق به، وكانت هناك محاكم مدنية يمكن الاعتماد عليها في تبرئة المتهمين ورفع الاضطهاد عن كاهل المضطهدين. أما الآن فالقضاء مضغوط عليه ولم يعد هناك أي فصل بين السلطات كما هو الحال في أي نظام ديمقراطي يحترم حقوق مواطنيه. أنا أخشى حقيقة على مستقبل بلادي"^(١٧).

٤- دعوة علنية إلى اغتصاب نساء المعارضة

إن الضغط النفسي والاجتماعي الذي تعاني منه نساء تركيا اليوم لم يعد في مقدور أحد تحمُّله مما دفع العديد من النساء في مأساة يندى لها جبين الإنسانية للإقدام على الانتحار، فمن الأمور التي تُعد بمثابة رعبٍ آخر يسيطر على النساء في تركيا، الدعوة إلى اغتصاب النساء المنتميات لحركة الخدمة، فقد أفاد ثلاثة مشتبه بهم متهمون بمحاولة اغتصاب ست معلمات في غرب مدينة إزمير، أمام المحكمة في ١٨ فبراير ٢٠١٧ أنهم أرادوا إجبار المعلمات على مغادرة المدينة لاعتقادهم أن الضحايا كانوا على صلة بحركة الخدمة^(١٧).

وقبل الاستفتاء على التعديلات الدستورية في ١٦ أبريل ٢٠١٧ صرح موظف ببلدية إسطنبول بأن المصوتين بـ"نعم" يحق لهم اتخاذ أزواج المصوتين بـ"لا" إماءً لهم، وفتح تحقيق ضد الموظف وتم فصله مؤقتاً من العمل.

الهروب من الجحيم والموت غرقاً

إن كثيراً من الرجال والنساء المضطهدين في تركيا

رجلان وامرأتان، وثلاثة أطفال ماتوا جميعًا غرقًا^(١٩).

٣- مراد فقد كل أسرته

أما "مراد أكتشاباي" فقد تم إنقاذه في شهر يوليو من عام ٢٠١٨ هو وخمسة آخرون، بعدما غرق القارب الذي كان يقله مع زوجته "خديجة أكتشاباي" وأطفاله الثلاثة؛ "أحمد أسعد" ذي ٧ سنوات، و"مسعود" ذي ٥ سنوات و"أراس" ذي العام الواحد، أثناء محاولتهم الفرار من تركيا، حيث فقدهم جميعا مرة واحدة، في واحدة من أكثر الحوادث مأساوية^(٢٠).

٤- شمل أسرة "أسماء" لم يلتئم

"أسماء أولوداغ" ٣٥ عامًا، هربت إلى اليونان ومعها ثلاثة أطفال أعمارهم ٣، ٧، و١٠ سنوات لتلحق بزوجها في ألمانيا. كانت "أسماء أولوداغ" قد قضت ثلاثة أشهر معتقلة قبل أن تطلق السلطات سراحها لكنها بقيت تحت الإشراف القضائي، وكان زوجها قد سبقها إلى الهروب فانتقل من اليونان ليستقر بألمانيا. كانت الأسرة تحاول أن تُعيد لم شملها والإقامة في ألمانيا، لكن القدر لم يمهل "أسماء" حيث وافتها المنية بعدما عجزت أن تتحمل مشاق الرحلة، فأصيبت بصدمة قلبية فارقت على إثرها الحياة، ولم تتحقق أمنيتها في لم شمل أسرتها^(٢١).

هذه هي بعض النماذج التي تم التعرف عليها من خلال البحث في هوياتهم، لكن هناك الكثيرين ممن غرقوا في نهر مريج دون أن تكون معهم هويات تدل عليهم، ودون أن يعلم أحد بمغادرتهم تركيا ومن ثم فليس هناك بلاغات عن فقدهم. يقول الدكتور "بافلوس

صرح موظف بلدية إسطنبول بأن المصوتين بـ"نعم" يحق لهم اتخاذ أزواج المصوتين بـ"لا" إماءً لهم، وفتح تحقيق ضد الموظف وتم فصله مؤقتًا من العمل.

المأساة حيث لم يبلغ عن فقدهما أحد كما لم يتعرف أحد على هويتها^(١٨).

إن هذه الحادثة تطلعتنا على أمر في غاية الخطورة، وهو أن الأفراد الذين يحاولون الهرب أو يفقدون ذوقهم لا يبلغون السلطات عن غيابهم أو فقدهم خوفًا من تعرضهم للاعتقال. فحالة الرعب السائدة داخل المجتمع التركي بلغت حدًا ليس له نظير في تاريخ تركيا الحديثة.

٢- قوارب الموت

وفي حادثة أخرى خلال شهر فبراير عام ٢٠١٨ غرقت في نهر مريج "عائشة عبد الرزاق" مع طفلها "أنس" ذي ١١ عاما و"خليل منير" ذي ٣ أعوام عند محاولة الهروب إلى اليونان. كانت "عائشة" مدرسة فُصلت من عملها، ولم تكف الحكومة بهذا الفصل، بل ألغت رخصة التعليم الخاصة بها شأنها شأن سائر المعلمين والمعلمات الذين فصلتهم، والذين بلغ عددهم حتى إصدار هذا التقرير ٥٥ ألف معلم ومعلمة. والجدير بالذكر أن القارب الصغير الذي كان يقلهم كان به ٨ أشخاص، شخص واحد فقط هو من استطاع أن ينجو من الغرق بينما السبعة الآخرون،

لقد بلغ عدد الأتراك الذين لجأوا إلى أوروبا فقط ٤١,٥٠٠ تركي خلال العامين الماضيين، ووفقاً لما تداولته الصحف اليونانية فقرابة ١٠ أترك يعبرون نهر مريج إلى اليونان بصورة شبه يومية.

nesemat.com

وبعدما دفعا للمهرب كل ما يملكونه إذ به يتركهم في وسط النهر ليمضوا الليل كله في إحدى الجزر الصغيرة التي تبعد عن اليونان مسافة ٣٠ متراً وفي الصباح قرر الزوجان أن يعبرا النهر سباحة^(٢٤).

٦- المعاناة لا تنتهي في الخارج

إن هؤلاء الفارين يجدون أنفسهم في بلد آخر يختلف في ثقافته عن بلدهم، وفي بعض الأحيان يتوجب عليهم التقدم بطلب اللجوء في إحدى الدول، ويمضون فترة من شهرين إلى ثلاثة شهور في مخيمات إيواء اللاجئين، في وقت يفتقدون فيه فرص العمل وليس لديهم موارد مالية، والمساعدات التي تقدمها لهم بعض الدول لا تكاد تفي متطلبات الحياة.

إن هؤلاء اللاجئين من النساء والرجال الهاربين من جحيم حزب العدالة والتنمية الحاكم، يظنون أنهم بهذا الفرار قد باتوا في مأمن من البطش والظلم، لكن السلطات التركية تأبى إلا أن تُضيق عليهم الخناق في منفاهم الإجباري أيضاً. فالقنصليات التركية لا تقدم خدماتها لكل من تشبه في أنه على علاقة بالخدمة، وتمارس السلطات التركية عن طريق عملاء لها في الخارج عمليات اختطاف قسرية، حيث تم تسجيل

بافلديس" الطبيب الشرعي في المستشفى العام في "أليكساندروبولي" والذي عمل في العديد من حالات المهاجرين المتوفين: "أكبر عدد من المهاجرين المدفونين المجهولين في اليونان ممن غرقوا في نهر مريج"^(٢٣). لقد بلغ عدد الأتراك الذين لجأوا إلى أوروبا فقط ٤١,٥٠٠ تركي خلال العامين الماضيين، ووفقاً لما تداولته الصحف اليونانية فقرابة ١٠ أترك يعبرون نهر مريج إلى اليونان بصورة شبه يومية، وطبقاً للشرطة اليونانية فإن عدد الفارين إلى اليونان عبر نهر مريج وصل إلى ٤٠٠٠ تركي في شهر أبريل ٢٠١٨.

الجدير بالملاحظة هنا أن الشرطة كانت قد أصدرت تقريراً في مارس ٢٠١٨ صرحت فيه بأن عدد الفارين الأتراك بلغ ١,٢٦٢ تركياً، مما يعني أنه خلال شهر واحد فقط قد فرّ قرابة ٢,٧٣٨ مواطناً تركياً من بلادهم بطريقة غير شرعية معرضين أنفسهم وعائلاتهم لخطر الموت، هرباً من التعذيب النفسي والبدني والازدراء داخل بلادهم^(٢٣).

٥- عبور النهر سباحة

في بعض الأحيان قد يدفع الشخص حياته أو حياة زوجته أو أبنائه ثمناً للهروب ولكن حتى هذا الثمن الباهظ تكون له تكلفة مادية، فبعد أن قررت "ز.ج" هي وزوجها "أ.ج" الهروب إلى اليونان تواصلوا مع أحد المهربين الذي اتفق معهم على ٢,٥٠٠ يورو تكلفة تهريب الفرد الواحد خارج الحدود. ورغم صعوبة تدبير مثل هذا المبلغ عليهما، فإنهما جمعا كل مدخراتهما من أجل الفرار بأنفسهما، فقد باتا مقتنعين بأن الحياة في تركيا أصبحت مستحيلة،

خلال شهر واحد فقط قد فرّ قرابة ٢,٧٣٨ مواطناً تركياً من بلادهم بطريقة غير شرعية معرضين أنفسهم وعائلاتهم لخطر الموت، هرباً من التعذيب النفسي والبدني والازدراء داخل بلادهم.

nesemat.com

ما دعا السلطات إلى احتجاز النساء في سجون أُعدت للرجال بصورة أساسية، وبالطبع فإن هذه السجون غير مجهزة لتلبية احتياجات النساء، وهو الأمر الذي يُمثّل عقوبة إضافية تطبّق على النساء، فضلاً عن أن أمن السجن يكون في يد الرجال غالباً، بالإضافة إلى أنهن يتعايشن مع النزلاء من الرجال السجناء وهكذا تعيش النساء في بيئة خطيرة حيث يكثر التحرش الجنسي بهن وأحياناً يصل الأمر إلى درجة اغتصابهن.

أ- على النساء ألا يقاومن

بالرغم من أن سجن "سيليفري" المغلق رقم ٩ قد صُمّم خصيصاً للسجناء من الرجال فقد تم احتجاز النساء السجينات فيه. ومما يثير التعجب ويدل على مدى تدني القيم الدينية والإنسانية أن مأمور السجن يحرص على تذكير المحامين الذين يمثلون النساء بهذه الرسالة لإبلاغها للنزيلات: "أبلغوا السجينات ألا يقاومن، فهذا سجن للرجال، وأمن السجن من الرجال، ونحن غير مسؤولين عما يمكن أن يحدث".

ب- الاغتصاب والتحرش أدوات للتحقيق

بعد أحداث الانقلاب المزعوم تزايدت أخطار انتهاك حقوق الإنسان في تركيا، وتزايدت بصورة خاصة جرائم الاغتصاب، بل لقد سجّلت منظمات حقوق الإنسان في تقاريرها المختلفة أن الاغتصاب والتحرش الجنسي يُستخدم في السجون كأحد أنواع التعذيب وبصور شائعة أثناء التحقيقات.

فقد صرح "نيلس ميلر" المقرر الخاص للأمم المتحدة المعني بمراقبة أعمال التعذيب وغيرها من

عدد من هذه العمليات لأفراد من الخدمة في ١٨ دولة على مستوى العالم^(٢٥). كما تمارس أنواعاً من الضغوط على عديد من الدول الضعيفة أو الصديقة لإعادة الأتراك المنتسبين للخدمة، وتقوم بملاحقات عابرة للقارات في قرابة ٤٥ دولة.

وفي تصريحات المتحدث باسم الرئاسة التركية خلال حديث له أجراه مع الصحفيين يوم ٢١ سبتمبر ٢٠١٨ أكد على أن الحكومة "ستتوسع في عمليات الاختطاف غير القانونية هذه للمنتسبين للخدمة"^(٢٦)، حتى من يقيم منهم في الولايات المتحدة^(٢٧) - على حد تعبيره- متجاهلاً أن الولايات المتحدة دولة كبيرة وتحترم القانون على أراضيها.

إن النساء هن أكثر من يعانين في كل الأحوال، فهن يعانين سواء تم اعتقال أزواجهن أو هربن مع عائلاتهن أو تعرضن للتهديد والإبعاد والاضطهاد، أو هربن ووجدن أنفسهن في بلد مختلف يتحدث لغة لا يفهمونها فيصحن غريبات داخل أوطانهن وخارجها.

أوضاع النساء داخل السجون التركية

في تركيا ستة سجون فقط خاصة بالنساء، ومع تزايد القمع والاعتقال المتزايد للنساء، لم تعد هذه السجون كافية لاحتواء هذا الكم الهائل من النساء المعتقلات،

سجّلت منظمات حقوق الإنسان في تقاريرها المختلفة أن الاغتصاب والتحرش الجنسي يُستخدم في السجن كأحد أنواع التعذيب وبصور شائعة أثناء التحقيقات.

www.nesemat.com

أغسطس ٢٠١٦ بتهمة لا دليل عليها، بسبب موقع التواصل الاجتماعي تويتر. أرسلت عائشة رسالة من السجن تم تسريبها إلى صحيفة يومية خلال شهر أكتوبر ٢٠١٦، شرحت فيها أنها تعرضت لسوء المعاملة والتحرش الجنسي، كما ذكرت بعض أوضاع السجن وما يحدث فيه، وكان من بعض ما ذكرت محاولة قاضية سابقة الانتحار من خلال قطع معصمها نتيجة لما تعرّضت له من سوء معاملة، ولكن بعد ما نشرت الصحيفة اليومية رسالتها أمرت سلطات السجن بحبسها انفرادياً لمدة ١٩ يوماً كاملة.

ذكرت عائشة في رسالتها أيضاً تعرض امرأة ستينية للتفتيش دون ملابس مرتين، وفي محاولة لتذكير الناس بقضيتها قالت في نهاية رسالتها: إنها تخاف من أن تُنسى داخل السجن.

وفي السابع من فبراير ٢٠١٧ نشر الموقع الإخباري (TR724)، تقريراً خاصاً حول الاتهام الموجه إلى عائشة باريلداك وهو إهانة القضاة والمدعين العموميين. الغريب في الأمر أن القانون الجنائي التركي لا توجد به جريمة بهذا المسمى، كما أنها تواجه تهماً بكتابة "قصص ذاتية" بالإضافة إلى تهم متعلقة بما تنشره على حسابها الشخصي بموقع "تويتر"، إلا أن المدعي العام

أشكال المعاملة القاسية واللاإنسانية بعد زيارته الرسمية الأولى لتركيا في نوفمبر ٢٠١٦ قائلاً: "لقد حصلت أنا وفريقي على عديد من الشهادات المثيرة للقلق حول التعذيب وغيره من أشكال سوء معاملة السجناء الذكور والإناث الذين يُشتبه في أنهم أعضاء أو متعاطفون مع حزب العمال الكردستاني، كما رصدت التقارير الواردة التي اطلعنا عليها معظم حالات سوء المعاملة من جانب الشرطة التي تحدث أثناء الاعتقال، وكذلك أثناء الاستجواب للحصول على اعترافات قسرية. كما أفادنا عديد من النزلاء بأنهم اعتقلوا بناء على اتهامات كاذبة صدرت من متهمين آخرين وهم تحت التعذيب، كما اشتكى كثير من نزلاء السجن من المعاملة الوحشية والسلوك المهين المتبع معهم في أماكن احتجازهم الحالية، خاصة من قبل الحراس الذكور الذين يتحرشون جنسياً بالمعتقلات أثناء النقل، وينكرون حق الخصوصية أثناء الفحوص الطبية. ولكن هؤلاء الذين تحدثوا معنا عن سوء المعاملة أو ما تعرضوا له من تحرش لم يرفعوا قضايا ولم يسجلوا شكاوى، نظراً لفقدتهم الثقة في المنظومة القضائية، وخوفاً مما قد يتعرضون له فيما بعد من قبل سجانهم، وخوفاً أيضاً على أفراد عائلاتهم وأقاربهم وما قد يتعرضون له"^(٢٨).

ج- رسالة عائشة نور باريلداك

من أشهر القضايا التي خرجت للعلن في هذا الصدد قضية عائشة نور باريلداك الكاتبة الصحفية بجريدة زمان اليومية، فقد سُجنت اعتباراً من ١١

الذين تحدثوا معنا عن سوء المعاملة أو ما تعرضوا له من تحرش لم يرفعوا قضايا ولم يسجلوا شكاوى، لفقدهم الثقة في المنظومة القضائية، وخوفًا مما قد يتعرضون له فيما بعد من قبل سجنائهم.

nesemat.com

قدم حزب الشعب الجمهوري (CHP) استجوابًا برلمانيًا لوزير العدل آنذاك "بكير بوزداغ" حول وفاة خمس نساء في ظروف مشبوهة داخل سجن "كوجالي" خلال النصف الثاني من عام ٢٠١٦، ولم يتم فتح تحقيق حول سبب الوفاة^(٢٩).

١- حالة "سويم ج" ١٦ أغسطس ٢٠١٦

كانت "سويم" قد قبض عليها في تحقيقات متعلقة بحركة الخدمة في مدينة "دنيولي"، وأقدمت على محاولة الانتحار من خلال قطع عنقها بسكين في ١٦ أغسطس ٢٠١٦، وكان الدافع لإقدامها على محاولة الانتحار هو عدم تقبلها فكرة القبض على زوجها^(٣٠).

٢- حالة "مدينة أونل" ٢٦ أغسطس ٢٠١٦

حاولت "مدينة أونل" الانتحار عن طريق تناول جرعة زائدة من الدواء في ٢٦ أغسطس ٢٠١٦ بعد اعتقال زوجها "أوميت أونل" الذي كان يعمل مدعيًا عامًا، بتهمة وجود صلة مزعومة بحركة الخدمة^(٣١).

٣- حالة "ب.ن.م" ٢٤ أكتوبر ٢٠١٦

وهي طالبة في الثانوية العامة انتحرت بالفعل في ٢٤ أكتوبر ٢٠١٦ حيث قفزت من أعلى سور قلعة "بوبيات" شمال تركيا، وطبقًا لما ذكرته التقارير الإخبارية، فقد انتحرت بسبب تعرضها لمضايقات في المدرسة نتيجة لاعتقال والدها تحت زعم ارتباطه بحركة الخدمة، وكان والدها قبل أن يتم اعتقاله قد فصل من عمله في مدرسة "الشهيد أرصوي جورسو الثانوية" بمدينة "بوبيات" في الأول من سبتمبر ٢٠١٦.

٤- حالة "زهرا إيلي" ٧ نوفمبر ٢٠١٦

احتجزت زهرا إيلي بسجن "جبه" للنساء وأنهت

فشل في التفريق بين الكتابة غير الموضوعية والكتابة من وجهة نظر ذاتية. الغريب أيضًا أن القانون الجنائي التركي لا يعتبر تلك الاتهامات من قبيل الجرائم.

كما صرح الموقع الإخباري بأن "عائشة باريلداك" حُبسَت حبسًا انفراديًا لمدة ٨٠ يومًا كاملة، ثم أصبح الحبس الانفرادي جزئيًا؛ حيث يتم حبسها انفراديًا من الساعة الخامسة مساءً حتى الصباح. كما تزايدت التهم الموجهة إليها حيث اتهمتها المحكمة بأنها أيدت محاولة الانقلاب المزعومة من خلال حسابها على "تويتر".

وفي الثاني من مايو لعام ٢٠١٧ قضت المحكمة بإطلاق سراح "عائشة باريلداك" لعدم كفاية الأدلة الموجهة ضدها، ولكنها مُنعت من السفر وكان عليها أن تذهب إلى قسم الشرطة أسبوعيًا لتؤكد على عدم سفرها، وبينما كانت عائلة "عائشة باريلداك" تنتظر إطلاق سراحها كاملًا، طالب مدعي عام أنقرة باعتقالها بدعوى أن هيئة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (BTK) حصلت على أدلة جديدة ضدها، وقررت المحكمة اعتقالها قبل أن يطلق سراحها، الأمر الذي مثل صدمة كبيرة لعائلة عائشة باريلداك وأصدقائها، كما أثار قلقهم على تدهور الحالة النفسية لعائشة باريلداك.

د- حالات الانتحار داخل السجن

"حليمة جولسو" كانت مريضة، وزادت معاناتها في المعتقل بسبب ما تعرضت له من تعذيب، وبعد طول معاناة في المعتقل، مع الحرمان التام من أدويتها، وما يلزم من رعاية صحية قضت نحبا.

nesemat.com

حياتها بإشعال النار في جسدها احتجاجًا على اعتقال السياسيين الأكراد بحسب ما ورد على لسان زميلتها في الحبس، وبحسب ما ورد في جريدة "ميليت"، حيث تم اتهامها بأنها من أفراد حزب العمال الكردستاني (PKK)، وقامت السلطات التركية بفتح تحقيق حول حادثة وفاتها^(٣٢).

هـ- سوء الرعاية الصحية

أما عن سوء الرعاية الصحية وعدم تقديمها للسجينات كنوع من أنواع العقاب، ففي حالات عديدة كشف المحامون وأفراد عائلات الضحايا ونشطاء حقوق الإنسان مزاعم خطيرة، تتعلق بالتمييز وسوء معاملة النساء أثناء الحمل والولادة، ولا سيما فترة ما بعد الولادة. وتتراوح حالات التمييز وسوء المعاملة المزعومة بين القبض على النساء الحوامل، وحرمان النساء المحتجزات من الخدمات الطبية، واعتقال النساء مباشرة بعد الوضع. وهذه الحالات المدرجة أدناه تُعدُّ أمثلة توضيحية لنمط واسع من الانتهاكات الخطيرة لحقوق المرأة، الأمر الذي تؤكدُه أيضًا تقارير وسائل الإعلام بما في ذلك وسائل الإعلام الموالية للحكومة.

١- قضية فاطمة جوناي

في ٢٨ يناير ٢٠١٧ دخلت (فاطمة جوناي) مستشفى "جامعة باشكانت" للتعليم والأبحاث في مقاطعة أنطاليا الجنوبية، وهي ربة بيت احتُجز زوجها. وأثناء وجودها بالمستشفى لإجراء عملية الوضع طلبت الشرطة من المستشفى إخراجها حتى يمكن احتجازها واقتيادها إلى مركز الشرطة

للاستجواب، وفي صباح اليوم التالي لوضعها لطفلها احتجزت بالفعل، بموجب قوانين مكافحة الإرهاب وأُتهمت بارتباطها بحركة الخدمة. ثم أُعيدت إلى المستشفى في اليوم التالي بعد صدور تعليمات قضائية بإعادتها للمستشفى ووضعها تحت الحراسة القضائية.

٢- قضية فاطمة كايا

وضعت (فاطمة كايا) وليدها في جنوب مدينة "مرسين" في ٣٠ ديسمبر ٢٠١٦. وفي ٣ يناير ٢٠١٧ نقلت إلى المستشفى بسبب نزيف ما بعد الولادة، وبعد أن دخلت المستشفى داهمت الشرطة جناح الطوارئ وقاطعت علاجها واحتجزتها واقتادتها إلى مقر الشرطة لاستجوابها بأمر من المدعي العام (تانسيل شون)، الذي أمر بفصل الطفل عن الأم وسمح لها فقط بالتواصل مع الطفل في فترات محددة للرضاعة الطبيعية، رغم تأكيد الأطباء على أهمية الرضاعة الطبيعية للطفل، بسبب معاناة المولود الجديد من الصفراء. كما حُرمت السيدة (كايا) من الدواء أثناء احتجازها، وظلت تعاني من مشاكل صحية حتى بعد إطلاق سراحها بسبب انقطاع علاجها.

٣- قضية فيليز يابوز

في ٧ فبراير ٢٠١٧ كانت (يابوز) في جناح التوليد

أصبح يعاني من مشاكل نفسية كثيرة^(٣٤).

٦- قضية حليلة جولسو

أُعتقلت "حليلة جولسو" هي ومجموعة من السيدات الأخريات اللاتي كن يقدمن مساعدات غذائية؛ حيث كن يصنعن الكفتة ويوزعنها على عوائل وأطفال المعتقلين من حركة الخدمة. "حليلة جولسو" كانت مريضة، وزادت معاناتها في المعتقل بسبب ما تعرضت له من تعذيب، وبعد طول معاناة في المعتقل، مع الحرمان التام من أدويتها، وما يلزم من رعاية صحية قضت نحبها. استدعت الشرطة عائلتها لتسلمها جثة هامة في ٢٠ فبراير ٢٠١٨ بمدينة مرسين جنوبي البلاد.

و- أطفال معتقلون مع أمهاتهم

هناك قرابة ٧١٠ طفلاً، ٦٤٪ منهم لم تتجاوز أعمارهم ثلاث سنوات في السجون مع أمهاتهم^(٣٥)، الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم ١٨ عامًا أعدادهم تصل للآلاف داخل السجون التركية، الأمر الذي يسترعي الانتباه إلى أحوال الأطفال وحقوقهم المفقودة، وكيف يؤثر هذا على صحتهم النفسية وعلى صحة أمهاتهم أيضاً، ولأهمية حقوق الأطفال سنتناول حقوق الأطفال في تقرير مستقل.

ز- اعتقال النساء لتخويف ذويهم

يستهدف اضطهاد المرأة من خلال إساءة استخدام نظام العدالة الجنائية جميع الفئات العمرية من سن ١٨ إلى ٨٦ سنة، ويهدف أساساً إلى خلق جو من الخوف والترهيب، مما ييسر حملة الحكومة المنظمة

بمستشفى جنوب مقاطعة مرسين، واقتادتها الشرطة إلى الحجز بعد ثماني ساعات فقط من الولادة، لتنقل على كرسي متحرك من المستشفى إلى مركز الشرطة حيث تم استجوابها. الجدير بالذكر أن (ياووز) كانت من بين ١٥٠ ألف موظف حكومي فصلتهم الحكومة بسبب صلات مزعومة بحركة الخدمة. أما عن الوضع الحالي للسيدة فلا توجد أي معلومات عنها.

٤- قضية مروة آيدانيز جوكيلماز

مروة تعمل طبيبة وكانت حاملاً في نهاية شهرها الثامن، وفي الرابع من شهر مارس ٢٠١٨ قامت السلطات باعتقالها، وتم إجراء تحقيقات معها بتهمة استخدامها تطبيق بايلوك للتواصل الاجتماعي، ثم احتجزتها السلطات التركية في سجن "باكركوي" حيث الازدحام الشديد، وقد أصيبت بأحد الفيروسات، حتى كادت أن تضع حملها، ولكنها وضعت الطفل في النهاية بالسجن. الجدير بالذكر أن "مروة" قد اعتقل زوجها أيضاً، وهو الآن معتقل في سجن أزمير^(٣٦).

٥- قضية أمينة آي

هي امرأة في شهرها الرابع من الحمل، أُلقت السلطات القبض عليها وعلى زوجها واعتقلا في سجن مدينة غازي عنتاب في الرابع من يوليو ٢٠١٨، ثم أرسل زوجها بعد ذلك إلى سجن مدينة "أدي يمان"، أما هي فاقتيدت إلى سجن مدينة "بتليس" قسم الإرهاب لأنها استخدمت تطبيق "بايلوك" للتواصل الاجتماعي. "أمينة" لديها طفلة عمرها ثلاث سنوات تقوم برعايتها داخل السجن، أما ابنها الأكبر ذو السبع سنوات فيرعاه عمه، ولكنه نتيجة للأحداث المؤسفة التي مرت بهم

أدنى مرتبة بالنسبة لحقوق المرأة؛ فوفقاً لاحصائيات تقرير معهد (GIWPS) فإن تركيا قد احتلت المرتبة ١٠٥ في مجال حقوق المرأة، حيث لاتنال المرأة حقوقها وتتعرض للتمييز كثيراً" كما أشار التقرير أيضاً إلى مقولة لرئيس الدولة التركية، رجب أردوغان، التي قال فيها: "لا يمكنكم المساواة بين الرجل والمرأة، هذا مخالف للفطرة البشرية". وهذا يدل على عقلية السياسة الحاكمة لتركيا تجاه المرأة"^(٢٧).

والعجيب أيضاً أن هذه العقلية التي تقود تركيا الآن وتنظر إلى المرأة نظرة دونية بحجة أن هذا أمر ديني لا تطبق التعليمات الدينية "التي تؤمن بها" في احترام المرأة حتى في حالة الحرب، إذ تحرم المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، وتطبق هذا المبدأ (المساواة) في الاضطهاد والتنكيل ليس على المرأة فقط بل على كافة قطاعات المجتمع. ■

ضد السياسيين والمعارضين بوجه عام. كما يستهدف الاضطهاد شريحة من المتعلمين تعليماً عالياً بين النساء. منهن الأكاديميات والمعلمات والطبيبات والقاضيات. ويتم احتجاز النساء بصورة متزايدة لـ "إقناع" أزواجهن الهارين من الاضطهاد بتسليم أنفسهم إلى الشرطة أو احتجازهم للتوقيع على شهادات كاذبة.

وزارة العدل تتعمد طمس الحقيقة

أحجمت وزارة العدل التركية حتى الآن عن تقديم إحصاءات دقيقة عن عدد النساء المحرومات من حريتهن، رغم الطلبات المتكررة التي قدمتها عديد من المنظمات والهيئات المعنية بحقوق المرأة. وكثيراً ما تدعي الحكومة أنه لا توجد بيانات محددة عن عدد النساء في السجون، أو عن كيفية وضعهن في سجون الرجال، وتدعي أيضاً أنها بحاجة إلى العمل على عدة قواعد بيانات لتجميع هذه الأرقام^(٢٨). ولكن يبدو أن الحكومة تخفي عمداً معلومات عن هذه المسألة.

كلمة أخيرة

إن تركيا التي كانت تنتظر لأكثر من عقد من الزمن أن تنتمي إلى الأسرة الأوروبية ويمارس فيها المواطنون حقوقهم الديمقراطية والسياسية والإعلامية بكل حرية باتت اليوم أكبر سجن للحريات وبات علماءها ومثقفوها ونخبها وإعلاميوها، يظهرون في وسائل الإعلام مقيدي اليدين كالقتلة والمجرمين يستوي في ذلك الرجال والنساء. وهذا التردّي في الحقوق والحريات وضع تركيا في

الهوامش

- (1) OHCHR, Report on the human rights situation in South-east Turkey, July 2015 to December 2016, para 14.
- (2) <http://www.hurriyetdailynews.com/opinion/melike-karakartal-hypocrisy-on-womens-rights-in-turkey-128583>
- (3) <http://www.hurriyetdailynews.com/nearly-2-000-women-killed-in-eight-years-in-turkey-123079>
- (4) <https://www.boell.de/en/2017/11/02/violence-against-women-turkey-looking-where-others-look-away>
- (5) <https://www.dailysabah.com/turkey/2018/01/02/violence-against-women-rises-sharply-in-turkey-409-women-killed-in-2017>
- (6) <https://stockholmcf.org/report-on-violation-of-women-prisoners-rights-turkish-jails-turned-into-prisoners-camp/>
- (7) <https://www.middleeasteye.net/news/out-sight-out-mind>

- Turkey-coup-Gulen-Erdogan-US-arrests
- (26) <https://hizmetnews.com/23888/foreign-affairs-turkish-governments-global-purge-targeted-opponents-least-46-countries/#.W74OdmhKhPY>
- (27) <https://stockholmf.org/turkish-govt-says-operations-targeting-gulen-movement-could-extend-to-us/>
- (28) OHCHR news, Preliminary observations and recommendations of the United Nations Special Rapporteur on torture and other cruel, inhuman and degrading treatment or punishment, Mr. Nils Melzer on the Official visit to Turkey – 27 November to 2 December 2016, December 2, 2016.
- (29) http://stockholmf.org/wp-content/uploads/2017/03/Suspicious-Deaths-And-Suicides-In-Turkey_22.03.2017.pdf.
- (30) This case was first reported by the Stockholm Center for Freedom. http://stockholmf.org/wp-content/uploads/2017/03/Suspicious-Deaths-And-Suicides-In-Turkey_22.03.2017.pdf.
- (31) This case was first reported by the Stockholm Center for Freedom. http://stockholmf.org/wp-content/uploads/2017/03/Suspicious-Deaths-And-Suicides-In-Turkey_22.03.2017.pdf.
- (32) This case was first reported by the Stockholm Center for Freedom. http://stockholmf.org/wp-content/uploads/2017/03/Suspicious-Deaths-And-Suicides-In-Turkey_22.03.2017.pdf.
- (33) <https://www.turkishminute.com/2018/08/17/pregnant-women-children-subjected-to-severe-rights-violations-in-turkeys-prisons/>
- (34) <https://www.turkishminute.com/2018/08/17/pregnant-women-children-subjected-to-severe-rights-violations-in-turkeys-prisons/>
- (35) <https://ahvalnews.com/human-rights/babies-behind-bars-children-struggle-turkish-prisons>
- (36) Turkish Parliament Human Rights Commission Subcommittee meeting, (2016, January 28), https://www.tbmm.gov.tr/develop/owa/komisyon_tutanaklari.goruntule?pTutanakId=1546.
- (37) <https://anfarabic.com/1mr-wlhy/> % D 8 % A 7 % D 8 % B 1 % D 8 % A 7 % D 8 % B 3 % D 8 % A 9 - % D 8 % A A % D 8 % B 1 % D 9 % 8 3 % D 9 % 8 A % D 8 % A 7 - % D 9 % 8 8 % D 8 % A 7 % D 8 % A D % D 8 % A F % D 8 % A 9 - % D 9 % 8 5 % D 9 % 8 6 - % D 8 % A 3 % D 8 % B 3 % D 9 % 8 8 % D 8 % A 1 - % D 8 % A 7 % D 9 % 8 4 % D 8 % A F % D 9 % 8 8 % D 9 % 8 4 - % D 9 % 8 1 % D 9 % 8 A - % D 9 % 8 5 % D 8 % A C % D 8 % A 7 % D 9 % 8 4 - % D 8 % A D % D 9 % 8 2 % D 9 % 8 8 % D 9 % 8 2 - % D 8 % A 7 % D 9 % 8 4 % D 9 % 8 5 % D 8 % B 1 % D 8 % A 3 % D 8 % A 9 - 38963
- erdogan-asks-media-ignore-domestic-abuse-499406044
- (8) https://nakedbana2.wordpress.com/2016/04/19/women-rights-in-turkey/#_ftn18
- (9) <https://www.superhaber.tv/24-haziran-seciminde-kadin-milletvekili-sayisi-kac-oldu-hangi-partide-kac-kadin-vekil-var-haber-119265>
- (10) <https://mondediplo.com/2018/04/05/turkish-repression>
- (11) <https://hizmetnews.com/22954/disabled-teacher-husband-removed-job-brothers-arrest/#.W7xvzGhKhPZ>
- (12) <https://hizmetnews.com/24127/turkish-govt-detains-70-women-alleged-financial-support-jailed-gulen-followers/#.W7xxxGhKhPY>
- (13) <https://ahvalnews.com/tr/ohal/ohal-kalkti-ama-kapiyicalan-postaci-olmayabilir>
- (14) <https://twitter.com/AlsharifSKY/status/1060272139612360704>
- (15) <https://ahvalnews.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B9%D9%88%D8%B1-%D8%A8%D8%A5%D9%86%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%86-%D9%84%D9%86-%D9%8A%D8%BA%D9%8A-%D9%91%D8%B1%D9%87-%D8%B1%D9%81%D8%B9-%D8%AD%D8%A7%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%A6%D8%AD%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D8%AA>
- (16) http://www.bbc.com/arabic/resources/idd-sh/erdogans_turkey_arabic
- (17) Source: TurkeyPurge, <http://turkeypurge.com/men-ac-cused-of-attempting-to-rape-6-teachers-we-thought-they-were-gulenists>.
- (18) <https://stockholmf.org/turkish-family-of-five-got-drowned-in-aegean-sea-as-trying-to-flee-from-erdogan-regimes-persecution/>
- (19) <https://turkeypurge.com/teacher-2-children-dead-while-4-others-missing-after-failed-attempt-to-escape-turkeys-post-coup-crackdown-to-greece>
- (20) <https://www.politurco.com/another-family-has-gone-missing-in-evros-river-trying-to-escape-from-erdogans-persecution.html>
- (21) <https://hizmetnews.com/24317/gulen-linked-womandies-in-greece-as-she-waits-to-join-husband-in-germany/#.W72152hKhPY>
- (22) <https://www.icrc.org/en/document/tragedy-evros-perilous-river-crossing-greece>
- (23) <https://www.politurco.com/turkish-refugees-crossing-evros-river.html>
- (24) <https://hizmetnews.com/24359/heartbreaking-stories-of-turkish-refugees-in-greece/#.W73Qc2hKhPZ>
- (25) <https://www.presstv.com/DetailFr/2018/04/05/557542/>



فاروق مرجان

فاروق مرجان، صحفي وكاتب تركي، عمل لسنوات في مجلة "Aksyon" التركية، كما عمل في راديو "Dünya" وكذلك في صحيفة "Zaman" التركية. صدر له عديد من الكتب منها: الدولة العميقة، جريمة نسيم مالك، جريمة أوزير جريه، عودة المقاتل، السيف والحكم، حرب مخفية خلف الستار، فتح الله كولن، لا تراجع عن الديمقراطية وغيرها من الكتب وبعضها ترجم للغة الإنكليزية.

الإسلام والديمقراطية

هل يمكن التوفيق بين الإسلام والديمقراطية؟ هل يمكن أيضاً للمسلم أن يكون ديمقراطياً؟ هل يمكن للمسلمين أداء الشعائر الدينية بشكل كامل في ظل النظام الديمقراطي؟ ما نوع النظام الذي يتصوره الإسلام؟ هل نظام الحكم الديني موجود في الإسلام؟ ما المقصود بـ "النظام الإسلامي"؟ هذه الأسئلة وأسئلة عديدة أخرى عن العلاقة بين الإسلام والديمقراطية طرحت على الأستاذ كولن في حوارات ولقاءات إعلامية متعددة، تابعها الكاتب الصحفي فاروق مرجان واستخرج منها موقف الأستاذ كولن من الديمقراطية ورؤيته حول العلاقة بين الإسلام والديمقراطية، التي أكد فيها على عدة رسائل قوية لتركيا والعالم أجمع منها:

- لا بديل عن الديمقراطية.
- إدارة الدولة خلال فترة الخلفاء الراشدين كانت إدارة جمهورية.
- من يدعون أن "الدين والديمقراطية لا يمكن التوفيق بينهما" مخطئون.
- يعامل المؤمنون الذين يمارسون شعائرهم الدينية وكأنهم لا يستحقون التمتع بعشر الحقوق الديمقراطية التي يتمتع بها الملحدون.





باعتبارها أنسب الإدارات في عصرنا هذا. يعتبر المسلمون الأصوليون أن القرآن الكريم هو دستور المسلمين، وهم يرفضون الأنظمة القانونية الحديثة؛ أما بالنسبة لكون القرآن الكريم هو دليل ومرشد يعلمنا كيفية ممارسة الشعائر الدينية بالطريقة الأمثل. وبالتالي، فإن الإسلام والمسلمين ليس لديهم أي مشاكل مع الدساتير الحديثة، طالما أنها دساتير ديمقراطية وتكفل حرية المسلمين في ممارسة شعائرهم الدينية.

رسائل قوية عن الديمقراطية في خطاب كولن

دعونا نتذكر خطاب فتح الله كولن في ٢٩ يونيو/حزيران ١٩٩٤، في فندق ديديمان بإسطنبول أثناء الاحتفال بإنشاء جمعية الصحفيين والكتاب؛ حيث قدم كولن في خطابه في تلك الليلة أربع رسائل قوية لتركيا والعالم أجمع وهي:

- ١- لا بديل عن الديمقراطية.
- ٢- يعامل المؤمنون الذين يمارسون شعائرهم الدينية وكأنهم لا يستحقون التمتع بعُشر الحقوق الديمقراطية التي يتمتع بها الملحدون.
- ٣- يمكن أن يُطلق على إدارة الدولة خلال فترة الخلفاء الراشدين أنها إدارة جمهورية.
- ٤- من يدعون أن "الدين والديمقراطية لا يمكن التوفيق بينهما" مخطئون.

وقد تم تخصيص طبعة شهر يوليو ٢٠٠٥ من مجلة العالم الإسلامي التي نشرت في الولايات المتحدة الأمريكية لإصدار خاص يتناول على وجه التحديد

لا يتصور الإسلام إقامة دولة ثيوقراطية (تقوم على نظام الحكم الديني)، ولا يفرض نوعًا محددًا من الحكومة على الدولة؛ وتعد هذه هي إحدى القضايا الرئيسية التي يُعتبر المسلمون الأصوليون مخطئين بشأنها. لقد أبدى كولن، بصفته عالمًا مسلمًا، اهتمامًا كبيرًا وجدياً بهذا الخطأ الجسيم في التفسير والحكم؛ وهذا هو السبب الذي يجعل كولن دائماً هدفاً للإسلاميين الأصوليين.

يرى كولن أن النظام الجمهوري بالنسبة له هو النظام الذي يتوافق وينسجم مع الإسلام في جوهره، وأن الإسلام لا يتعارض بأي حال مع الديمقراطية؛ ويعتقد كولن أن الديمقراطية والنظام الجمهوري هما أفضل أشكال الحكم ويضمنان أنسب وضع مؤسسي للمسلمين لممارسة شعائرهم الدينية وصون عقيدتهم. كما لا تتعارض المبادئ العامة للإسلام مع الديمقراطية ولا مع ما يقره الإسلام بشأن الإدارة الشرعية.

يعتبر الإسلام أن الفرد هو العنصر الأساسي فيه، وبالتالي فإن تجربة إيمان المرء وعقيدته هي على رأس أولويات الإسلام؛ وتتعلق الغالبية العظمى من التعاليم القرآنية بممارسات الشخص المسلم للإسلام. كما لا يوجد شكل قاطع من أشكال الحكم منصوص عليه ومحدد بدقة، ويتم تحديد أنواع الإدارة والحكم وفقاً للاحتياجات والمتطلبات التي تفرضها ظروف الوقت والزمان. تكشف التجربة الإنسانية في الوقت الحالي عن الحكومات الديمقراطية والجمهورية

إن المبادئ التي تُشكل أساس الديمقراطية متوافقة مع القيم الإسلامية؛ ويمكن الاستشهاد بمبادئ الشورى، وحرية الاعتقاد وغيرها أمثلة على المبادئ التي يعتنقها الإسلام والديمقراطية على حد سواء.

www.nesemat.com

السيادة قد سُلبت من البغاة الظالمين والديكتاتورين ومنحت لأفراد المجتمع. وإلى حد ما، فإن عصر الخلفاء الراشدين ﷺ في الإسلام يوضح تطبيق هذا الطابع الديمقراطي المتعلق بالديمقراطية.

"فمن الناحية الكونية، ليس هناك أدنى شك في أن الله ﷻ هو صاحب السيادة على الكون برمته؛ حيث تخضع خططنا وأفكارنا دائماً لحكم وقدرة القوي القهار سبحانه وتعالى. ومع ذلك، لا يعني هذا أننا لا نتمتع ولا نمتلك أي إرادة أو رغبة أو اختيار؛ فالبشر أحرار في اختياراتهم وفي حياتهم الشخصية، كما أنهم يتمتعون بحرية الاختيار فيما يتعلق بتصرفاتهم الاجتماعية والسياسية. وقد يقوم البعض بإجراء أنواع مختلفة من الانتخابات لاختيار المرشحين والمدبرين التنفيذيين، وليس هناك طريقة واحدة لإجراء الاختيار أو الانتخاب؛ فهذا خاضع لرؤيتنا، فقد كان هذا الاعتقاد صحيحاً حتى في عصر النبوة، وقت حياة النبي ﷺ، وخلال زمن الخلفاء الراشدين الأربعة. كان اختيار الخليفة الأول أبو بكر الصديق مختلفاً عن اختيار الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ومختلفاً عن اختيار الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومختلفاً عن اختيار الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رضوان الله

أفكار فتح الله كولن وحركة الخدمة؛ وقد تضمن هذا العدد من المجلة تفاصيل مقابلة شخصية مطولة أجريت مع فتح الله كولن من قبل البروفيسور زكي ساريتوبراك والمؤلف على أونال.

وقد سُئل كولن: هل يمكن التوفيق بين الإسلام والديمقراطية؟ وكيف ترى عدم إقامة حكم ديمقراطي في العديد من دول العالم الإسلامي؟ وهل ترى أن عدم وجود الديمقراطية يُمثل عجزاً بالنسبة للدول الإسلامية؟ وقد أجاب كولن باستفاضة على هذه الأسئلة؛ وفيما يلي مقتطفات منها:

"نعم، من المؤلم أن نرى في العالم الإسلامي -وخاصة في بلدي تركيا- أفراداً يتحدثون عن الإسلام والديمقراطية ويزعمون أنهم ينطقون ويتحدثون باسم الدين قد وصلوا إلى فهم يفيد بأن الإسلام والديمقراطية لا يمكن التوفيق بينهما. ويمتد هذا التصور بعدم التوافق المتبادل بين الإسلام والديمقراطية ليشمل الشعوب المطالبة بالديمقراطية أيضاً؛ وتستند الحجة المقدمة على فكرة أن الدين الإسلامي قائم على حكم الله في حين أن الديمقراطية قائمة على رأي الإنسان ومنظوره، وبهذا فهما متعارضان. وهكذا أضحت الديمقراطية ضحية لمثل هذه المقارنة السطحية بين الإسلام والديمقراطية.

لا يُقصد بعبارة "السيادة ملك للأمة دون قيد أو شرط"، أن السيادة قد أخذت من الله ﷻ ومنحت للبشر. بل على العكس من ذلك تعني هذه العبارة أن السيادة منحها الله ﷻ للبشر؛ ويعني ذلك أن

خلال زمن الخلفاء الراشدين كان اختيار الخليفة الأول أبو بكر الصديق مختلفاً عن اختيار الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ومختلفاً عن اختيار الثالث عثمان بن عفان ومختلفاً عن اختيار الرابع علي بن أبي طالب ﷺ جميعاً.

www.nesemat.com

العديد من الاستخدامات المختلفة وأنها قد خضعت لكثير من التعديل والتنقيح. وبعبارة أخرى، فغالبًا فيما مضى كما هو الحال في عصرنا هذا، يتم إضافة صفات مثل الاجتماعية والليبرالية والمسيحية أو الأصولية قبل مصطلح الديمقراطية (وفقًا للغة الإنجليزية كبادئة)؛ وفي بعض الحالات قد لا تعتبر واحدة من هذه الأشكال من الديمقراطية الأنواع الأخرى شكلاً من أشكال الديمقراطية.

عليهم جميعاً). ولا يعرف الطريقة الصحيحة للاختيار والانتخاب سوى الله ﷻ".

الإسلام يفضي إلى الديمقراطية

"إن مبادئ وشكل الحكومة التي تُشكل أساس الديمقراطية متوافقة مع القيم الإسلامية؛ ويمكن الاستشهاد بمبادئ الشورى، وحرية الاعتقاد، وحماية حقوق الأفراد والأقليات، واختيارات الشعوب في انتخاب الأفراد الذين سيحكمونهم، وخضوع الحكام للمساءلة عن أفعالهم وتصرفاتهم، وعدم قمع الأغلبية أو الأقلية كأمثلة على القيم والمبادئ التي يعتنقها الإسلام والديمقراطية على حد سواء. يمكنني القول بسهولة إنه من المبادئ العامة للإسلام بالنسبة للحكم ألا تمنع الحكومة تطبيق الديمقراطية في المجتمع المسلم".

كان السؤال التالي الذي طرحه الصحفي الألماني كما يلي: "لكن لم تطبق معظم هذه المبادئ في التاريخ الإسلامي، فما السبب في ذلك؟ دعونا ننظر إلى إجابة كولن على هذا السؤال مرة أخرى:

بعد مرور سبع سنوات من تاريخ هذه المقابلة، أجري الصحفي الألماني راينر هيرمان، مؤلف كتاب "تركيا بين الدولة الدينية والدولة المدنية... الصراع الثقافي في تركيا"، مقابلة مع كولن. وقد نُشر جزء من هذه المقابلة في صحيفة فرانكفورت العامة اليومية بتاريخ ٦ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٢. وكان السؤال التالي أحد الأسئلة التي طرحها راينر هيرمان على كولن: "هل الإنجازات الأساسية مثل الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان هي فقط أشياء ابتكرها الغرب أم هل يمكن قبولها باعتبارها قيماً عالمية وتطبيقها في المجتمعات الإسلامية؟"

في رده على هذا السؤال، أشار كولن إلى مفهوم "الديمقراطية الدينية": "لقد حدث تقدم كبير في مسائل مثل الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان في وقتنا هذا؛ ولكن لا تعتبر أي من هذه القيم قد ظهرت في الغرب وفي العصر الحديث فقط. ونرى أن الديمقراطية خلال عملية نموها وتطورها يكون لها

أجاب كولن "من المسائل الأخرى التي ينبغي دمجها في الديمقراطية هو أن يتم إعداد وتهيئة الأرض المناسبة للبشرية لتلبية احتياجاتها فيما يتعلق باحتياجات الإنسان في الدار الآخرة، سواء كانوا مؤمنين

في البلاد التي تتوافر فيها حرية ممارسة الشعائر الدينية والحقوق والحريات الأساسية في المقام الرئيسي وقبل كل شيء آخر، فإن الجهود المبذولة لإقامة دولة إسلامية تعتبر غير مفيدة ولا حاجة لها.

www.nesmat.com

جاهدين ليجعلوا من أنفسهم أشخاصًا يتسمون بالكمال. يمكن للناس أن يمارسوا دينهم بالطريقة التي يشاؤون في بلدٍ ديمقراطي يتيح لهم التمتع بمعتقداتهم الدينية بحرية. في بلدٍ كهذا، يتم إجراء الانتخابات الحرة بما يتوافق مع المبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان العالمية والحريات، ويمكن للناس أن يعبروا عن اختياراتهم عبر الإداء بأصواتهم في الانتخابات، وتقديم مطالبهم لممثليهم بحرية تامة واستخدام الحقوق الديمقراطية الأخرى المتاحة لهم، يمكنهم القيام بذلك بشكل فردي أو جماعي من خلال المشاركة في أنشطة منظمات المجتمع المدني. إنني أرفض دائماً فكرة التعامل مع الدين باعتباره أيديولوجيا سياسية (Politic). كما أرى أن على المسلم أن يتصرف وفقاً للأخلاق الإسلامية سواء في البعد المدني والمجتمعي، أو في الشأن العام والمجال الإداري. أي يجب أن يلتزم بقيم الإسلام الأخلاقية في كل مكان وُجد فيه؛ فالسرفقة والرشوة والنهب والكسب غير المشروع والكذب والنميمة والغيبة والزنا والانحطاط الأخلاقي.. هي ذنوب وأمور غير شرعية في كل السياقات. ولا يمكن ارتكاب هذه المعاصي لأي غرض كان، سياسياً أو غيره، ولا يصح لأحد الإفتاء بارتكابها.

أو غير ذلك. كتهميد الطريق لأداء صلواتهم، وصيامهم والذهاب إلى الكنسية أو المعبد أو إلى دور العبادة حسب دياناتهم. يجب أن تخصص الديمقراطية مكاناً لذلك في ثنائياها، لكي تكون عالمية. وإلا، فسوف تصبح نظاماً يعمل فقط حسب أهواء ورغبات بعض الناس؛ وهذا من شأنه أن يحد من هذه المسألة بشكل كبير. عندما تكتسب الديمقراطية هذه المساحة العريضة، فسيجد كل شخص مكاناً لنفسه داخلها؛ وربما في يوم من الأيام سوف يتحدث المسلمون أيضاً عن "الديمقراطية الإسلامية" أو "الديمقراطية الدينية". ولأن الإنسان قد خُلق للأبدية، فإن البشر لا يمكن أن يرضوا عنها بديلاً؛ وقد يكون هناك أولئك الذين لا يؤمنون بها، ولكن مشاعر الناس الذين يؤمنون بالديمقراطية يجب أن يتم وضعها في الاعتبار وتبليتها باحترام."

العلاقة بين الدولة الدينية والديمقراطية

رداً على سؤال طرح في المقابلة التي أجراها كولن مع صحيفة الشرق الأوسط، مفاده: "هل تعتقد بضرورة أن يُمنح الإسلام مساحة أكبر في المجال العام وفي السياسة؟" قال كولن: "إنه في البلاد التي تتوافر فيها حرية ممارسة الشعائر الدينية والحقوق والحريات الأساسية في المقام الرئيسي وقبل كل شيء آخر، فإن الجهود المبذولة لإقامة دولة إسلامية تعتبر غير مفيدة ولا حاجة لها... إن الإسلام -كدين- هو مجموعة من المبادئ والممارسات التي تستند إلى الوحي الإلهي، وترشد البشر إلى الخير المطلق من خلال إرادتهم الحرة، وتبين لهم كيف يسعون

إنني أرفض دائماً فكرة التعامل مع الدين باعتباره أيديولوجيا سياسية. كما أرى أن على المسلم أن يتصرف وفقاً للأخلاق الإسلامية سواء في البعد المدني والمجتمعي، أو في الشأن العام والمجال الإداري.

www.nesemat.com

أضراراً وخسائر لا يمكن تلافيتها. والحقيقة أنه إذا تمت السيطرة على سلطة بلد ما قسراً وأجبر الناس على التدين، فإن هذا سيجعل منهم مُناقضين، يراؤون السلطة داخل بلدهم ويتظاهرون بالتدين لتحقيق منافع شخصية، ولكن ما إن يسافروا إلى الخارج حتى ينغمسوا في حياة مناقضة للدين ومفتوحة على ألوان شتى من الذنوب والآثام. ففي مثل هذا البلد يضعف احترام القانون وينتشر النفاق والرياء. وإن نظرة فاحصة لتجارب متنوعة في بلدان مختلفة ستدلك على أن كلماتي المجردة هذه لها في الواقع ما يؤازرها." (٢٤) مارس ٢٠١٤، صحيفة الشرق الأوسط).

العلاقة بين الديمقراطية والإسلام والتجربة التركية

كان السؤال التالي الذي طرحه مراسل صحيفة الشرق الأوسط يرتبط ارتباطاً مباشراً بالعلاقة بين الديمقراطية والإسلام والتجربة التركية: "هل تعتقد أنه يمكن التوفيق بين الإسلام والديمقراطية في تركيا؟ وكيف يمكن أن يؤثر التوفيق بينهما بشكل ناجح على طلب تركيا الحصول على عضوية الاتحاد الأوروبي؟"

لقد أكد كولن في رده على هذا السؤال مجدداً على اعتقاده بأن الديمقراطية هي النظام الأكثر ملاءمة للمبادئ الإدارية الإسلامية قائلاً: "لقد خضعت تركيا للحكم الديمقراطي منذ عام ١٩٥٠، على الرغم من أوجه القصور بها. إن الخطوات التمهيديّة لنقل حكم بلادنا وتحويله إلى الديمقراطية تمت من جانب

ثم إن هذه المعاصي تُعتبر جنایاتٍ حتى في إطار المعايير المتعارف عليها عالمياً. وإذا فقد الفرد نزاهته الأخلاقية في هذا الجانب، فإن دوره في الشأن العام أو في أي حزب سياسي، عديم الجدوى. وكأي إنسان عادي، يُسعدني أن أرى هذه المبادئ الأخلاقية وقد تحوّلت إلى سلوك لدى جميع من يشغلون مناصب في الشأن العام أو في المجال السياسي. في الواقع إن المشاكل المذكورة أعلاه هي المصدر الرئيسي للشكاوى في المؤسسات الإدارية والسياسية في كل مكان حول العالم. واسمحوا لي أن أقول بكل وضوح؛ إذا كان المسلمون في بلدٍ ما يمارسون شعائرهم الدينية بحرية، ويتمكنون من إنشاء مؤسساتهم الدينية بلا عوائق، ويستطيعون أن يلقنوا قيمهم الدينية لأبنائهم ولمن يرغب في تعلّمها، ولديهم الحرية الكاملة في التعبير عنها في النقاشات العامة، ويعلنون عن مطالبهم الدينية في إطار القانون والديمقراطية، فإن حاجتهم إلى إقامة دولة دينية باتت غير ضرورية. والتاريخ يشهد على أن حركات التمرد والثورات والانقلابات وأحداث العنف دائماً ما تجرّ البلاد إلى الفوضى والمآسي، وتجعلها في نهاية المطاف تفقد كل مكتسباتها في مجال الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتكبّد الشعوب

كدليل على أن الإسلام والديمقراطية متوافقان، قال كولن: " يحق للمسلمين في البلدان التي تمثل لمعايير الاتحاد الأوروبي أن يعتزوا بدينهم وأن يؤديوا شعائرهم الدينية ويظهروها وتشجيع غيرهم على اعتناقها. "

www.nesemat.com

يُسمح فيه للشعوب بمناقشة وتطبيق وجهات نظرهم الشخصية والاجتماعية والسياسية بحرية فهو بلد مناسب لروح الإسلام. إذا كان بإمكان الناس التعبير بحرية عن معتقداتهم وآرائهم، فيمكنهم آنذاك الاعتزاز بدينهم وأداء واجباتهم وطقوسهم الدينية والتمتع بحرياتهم مثل شراء الممتلكات بحرية، وليس من المفترض أن يقوم المسلمون أو غيرهم من ممارسي الديانات الأخرى بتغيير النظام في هذا البلد.

"أما في البلدان التي لا تستطيع الشعوب فيها التمتع بهذه الحريات، فينبغي عليهم أن يحاولوا الحصول عليها من خلال الوسائل الديمقراطية ولكن دون اللجوء مطلقاً إلى العنف. إنني أعتقد أن الإسلام والديمقراطية يمكنهم التعايش سوياً بشكل سلمي ليس فقط في تركيا ولكن أيضاً في البلدان الإسلامية الأخرى، أو على نحو أدق، في البلدان التي يسود فيها الإسلام. ونلاحظ للأسف أنه في البلدان التي يتم فيها تشويه صورة الديمقراطية، تتزايد بها انتهاكات حقوق الإنسان، وتسود فيها الاضطرابات الأخلاقية والقانونية، والمنازعات والصراعات الدينية والعرقية بشكل كبير. وفي الوقت الحالي، تتطور الديمقراطية لتصبح أصلاً وعرفاً شائعاً، كما كانت، بالنسبة للجنس البشري برمته."

السلطين العثمانيين الذين كانوا خلفاء في نفس الوقت. في عام ١٨٧٦، شكّل النواب غير المسلمين ثلث أعضاء أول برلمان منتخب بصورة ديمقراطية.

"من الخطأ أن ننظر إلى الإسلام باعتباره متعارضاً مع الديمقراطية والعكس بالعكس؛ وقد يمكن القول إن الديمقراطية هي النظام الذي يتناسب ويتوافق بشكل تام مع مبادئ الحكم الإسلامي سواء من حيث إمكانية تعرض الحكام للمساءلة أمام الشعوب المحكومة وكونها تتعارض مع الاستبداد، والذي يُعرفه الإسلام على أنه شكل من أشكال الحكم الجائر. كما أن الإسلام يتوافق بسهولة مع حقوق الإنسان والانتخابات الديمقراطية والمساءلة وسيادة القانون ومع المبادئ الأساسية الأخرى.

وعندما قلت "ليس هناك بديل عن الديمقراطية؛" فإن ذلك ليس أمراً مثاليًا، ولكن تعتبر الديمقراطية أفضل النظم المتاحة أمامنا، ففي عام ١٩٩٤ أبدت جماعات معينة اعتراضها على قولي هذا، غير أن هناك العديد من الاستخدامات والتطبيقات والأشكال المختلفة للديمقراطية، ونستطيع القول إن الديمقراطية هي الشكل المثالي للحكم؛ ولا تزال الديمقراطية تمر بمراحل الكمال، فالبلد الذي تكون فيه الحريات مكفولة ومحمية مثل حرية الحياة وحرية التعبير وحرية التملك وحرية بناء الأسرة وحرية العقيدة، ولا تقيد فيه حقوق الأفراد والحريات إلا في حالات استثنائية مثل الحروب؛ ويتعامل فيه مع الأقليات كمواطنين متساويين في الحقوق دون أي تمييز، كما

"حتى لو كان المتعصبون المناهضون للإسلام يضعون العراقيل أمام عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، فإن المكاسب التي حققتها تركيا خلال محاولة الحصول على عضويتها الكاملة في الاتحاد الأوروبي لا تزال تمثل مكاسب مهمة للغاية بالنسبة للديمقراطية في تركيا. ومع ذلك، فقد بدأت تركيا مؤخرًا في التراجع تدريجيًا عن تطبيق معايير الديمقراطية المطبقة في الاتحاد الأوروبي" (صحيفة الشرق الأوسط، ٢٤ مارس/آذار ٢٠١٤).

يمكن تحقيق الديمقراطية الكاملة من خلال الأخلاق الإسلامية

عندما أجري مراسل صحيفة لوموند الفرنسية مقابلة مع كولن بتاريخ ٢٨ أبريل/نيسان ١٩٩٨، سُئل كولن "ما رأيك في الإسلام والديمقراطية؟"

بعد أن أشار كولن إلى أن الإسلام ليس على خلاف مع الديمقراطية ومع العلمانية إلى حد كبير، لفت كولن الانتباه إلى نقطة مهمة للغاية قائلاً: "يمكن التوفيق بين الإسلام والديمقراطية بصورة جيدة من خلال الأشخاص الفاضلين الذين هم على دراية جيدة بأخلاقيات الإسلام."

وقال كولن "إن الإسلام يحتل مكانة محورية في هذا البلد (تركيا)؛ ويمكن للمسلمين التحدث عن الديمقراطية والعلمانية وفقًا لفهمهم الخاص. وأياً كان شكل الحكم في البلاد، حتى لو كان هو الشكل الأمثل للديمقراطية، فإن الأهم من ذلك هو أن يكون الشخص إنسانًا صالحًا. إنها مسألة وجود أشخاص فضاء ومخلصين من الناحية الأخلاقية؛ وقد أضاف

أعتقد أن الإسلام سوف يثري ويعزز مفهوم الديمقراطية من خلال الاستجابة للاحتياجات العميقة للبشر مثل الرضا والافتناع الروحي، والذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال ذكر الله الواحد القهار."

وكدليل على أن الإسلام والديمقراطية متوافقان، قال كولن: "يحق للمسلمين في البلدان التي تمثل لمعايير الاتحاد الأوروبي أن يعتزوا بدينهم وأن يقوموا بأداء شعائرتهم الدينية وإظهارها وتعزيزها وتشجيع غيرهم على اعتناقها."

"إن واجبنا الأساسي كأفراد وكمجتمع هو الاعتزاز بديننا وإظهاره. إن تركيا لا توصف بأنها دولة ديمقراطية بالكامل؛ وقد حصل المسلمون الملتزمون، الذين تعرضوا للاضطهاد في الماضي مثل الطالبات المسلمات اللاتي منعن من ارتداء الحجاب في حرم الجامعات، على حقوق كثيرة نتيجة لطلب الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وفي هذا الصدد، فقد أدت محاولة انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي إلى الحصول على عديد من المزايا والفوائد لتركيا؛ وكجزء من هذه العملية، تم إدخال إصلاحات ديمقراطية كبيرة إلى البلاد؛ وإذا تم الحفاظ على هذه الإصلاحات الديموقراطية وتمكن النظام الديمقراطي في تركيا من تحقيق الالتزام بمعايير الاتحاد الأوروبي فيما يتعلق بسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان والحريات، فإنني أعتقد أنذاك أن الهوية الإسلامية لتركيا لن يُنظر إليها كعقبة أمام عضويتها الكاملة في الاتحاد الأوروبي."

أرى أن الإسلام يقدم تعليمًا وتدريبًا
ديمقراطيًا جيدًا للغاية، ويمكن التوفيق
بين الديمقراطية بشكل تام مع الأشخاص
الفاضلين الذين خضعوا للتدريبات الأخلاقية
الإسلامية.

www.nesemat.com

"على الرغم من أن العلمانية تنطوي في الأساس
على الانضباط القانوني، إلا أنك إذا كنت تحاول
استبعاد الدين منها، وإذا كنت تحاول تطبيق أو
فرض نوع من العلمانية التي تجبر الأفراد على التخلي
عن دينهم، فسوف تتسبب في ظهور صراعات في
المجتمع؛ ومن هنا، سوف يؤدي ذلك إلى ظهور عديد
من الأشخاص المناهضين للعلمانية والديمقراطية.
ومن واجبنا أن نشير إلى خطأ الأشخاص الذين
يتسببون في مثل هذه الاضطرابات بنفس القدر
بالنسبة لأولئك الذين يحاولون فرض التغيير."

وكلما سُئل كولين إذا كان من الممكن التوفيق بين
الإسلام والديمقراطية أم لا، فإنه في الغالب يبدأ بتعريف
الدين والإسلام، ويذكر مراحل تطور الديمقراطية
على مر التاريخ؛ ويقوم في نهاية المطاف بمناقشة
الديمقراطية التي لا تنغلق على القيم الإسلامية. وتعتبر
هذه الديمقراطية ذات بُعد ديني، حيث إنها لا تأخذ
في الاعتبار فقط حياة المرء الدنيوية ولكن أيضًا حياته
في الدار الآخرة؛ إنها تلك الديمقراطية التي لا تتنكر
للقيم الدينية. وفيما يلي نستعرض الجواب النموذجي
الذي ذكره كولين في مجلة العالم الإسلامي:

"فيما يتعلق بمسألة الإسلام والديمقراطية، ينبغي

علماء مثل مؤلف كتاب المدينة الفاضلة (السير/
توماس مور) والفارابي إلى ما سبق المدن الفاضلة،
وتم الانتقال خطوة إلى الأمام في هذه المسألة.

"غير أن الإنسان يجب أن يحتل دائماً مرتبة
الأولى، في حين يجب أن تأتي المدينة والحضارة
والدولة والبلدة في مرتبة تلي مرتبة البشر؛ وبالنسبة
للمدنية، فإن وجود البشر الفاضلين الجديرين
بالثقة أمرٌ في غاية الأهمية. وأرى أن الإسلام يقدم
تعليمًا وتدريبًا ديمقراطيًا جيدًا للغاية، ويمكن التوفيق
بين الديمقراطية بشكل تام مع الأشخاص الفاضلين
الذين خضعوا للتدريبات الأخلاقية الإسلامية.

"الإسلام ليس على خلاف مع الديمقراطية؛ وحتى
إلى حد كبير، إذا نظرتم إلى القوانين العثمانية المقننة
من الناحية القانونية، فسجد أن كثيراً من الناس
ينظرون إلى الحقبة العثمانية باعتبارها حقبة من
حقب العلمانية؛ طالما أنها لم تكن متناقضة مع القواعد
الأساسية التي تتعلق بالعقيدة والعبادة، وقد تم اللجوء
إلى ابتكارات جديدة في سن القوانين والتشريعات...
التي لم يرد بشأنها نصوص صريحة في القرآن والسنة
والمصادر الرئيسية للتشريع. وبمرور الوقت، ومع
ظهور قضايا جديدة، في حال كانت هناك أشياء لم
يُرد بشأنها نص واضح وصريح في المصادر الرئيسية
للتشريع، يتم إصدار تشريعات وقوانين جديدة مع
مراعاة ألا تتعارض مع هذه المصادر.... وعندما يُنظر
إليه من هذا المنظور، فإن الإسلام ليس على خلاف
مع الديمقراطية والعلمانية (طالما أنها ليست قمعية).

إذا كنت تحاول فرض نوع من العلمانية تجبر الأفراد على التخلي عن دينهم، فسوف تنسب في ظهور صراعات في المجتمع؛ تؤدي إلى ظهور عديد من الأشخاص المناهضين للعلمانية والديمقراطية.

www.nesemat.com

العميقة للبشر مثل الرضا والافتناع الروحي، والذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال ذكر الله الواحد القهار" (عدد يوليو ٢٠٠٥ من مجلة العالم الإسلامي).

ما الذي يعنيه كونك عندما يقول بأنه يتوقع أن تقوم الديمقراطية بحل المشاكل التي تتعلق بالحياة في الدار الآخرة؟ يُشير كونك في هذه المقولة إلى حرية العبادة. ووفقاً للدين الإسلامي، يمكن للمرء الاستمتاع بحياة ممتعة ومرضية بعد الموت إذا عاش المرء حياة فاضلة وصالحة في الدار الدنيا مع مراعاة مراقبته لله ﷻ.

كانت حرية العبادة على مر التاريخ بمثابة أحد المشاكل الرئيسية التي تواجه المؤمنين بأي عقيدة دينية؛ وفي كثير من الأحيان، كان على الناس إخفاء صلواتهم خشية أن يتعرضوا للتعذيب أو حتى للقتل إذا تم رؤيتهم وهم يؤديون شعائرهم الدينية. ومن بين الحريات الأخرى، نجد أن المجتمعات الديمقراطية تحمي حرية العبادة كحق أساسي من حقوق الإنسان. وقد عبر كونك عن هذه الآراء من قبل خلال المقابلة التي أجراها مع صحيفة التايمز في الولايات المتحدة الأمريكية في شهر مارس عام ٢٠٠٤:

"يمكن تفسير ما نسميه بالديمقراطية بشكل مختلف؛ فهناك العديد من الديمقراطيات المختلفة في العالم. وخلال الأوقات التي كانت فيها الشيوعية قائمة، كانوا يطلقون عليها أيضاً اسم الديمقراطية؛ وتطلق أمريكا على نفسها دولة ديمقراطية كما هو الحال في إنجلترا وبلجيكا. توجد أنواع مختلفة من

على المرء أن يتذكر أولاً أن الإسلام هو دين إلهي وسماوي في حين أن الديمقراطية هي شكل من أشكال الحكومة والإدارة التي وضعها البشر. إن المقاصد الرئيسية للدين هي التي تتعلق بالمواضيع العالمية مثل الإيمان والعبودية لله ومعرفة الله وفعل الخير والإحسان؛ ويدعو القرآن الكريم في مئات الآيات الناس إلى الإيمان وعبادة الله الواحد الحق. كما يحث القرآن الكريم الناس على تعميق وترسيخ اعتقادهم وعبوديتهم لله ﷻ بطريقة تمكنهم من تحقيق وعيهم بمفهوم الإحسان. ويعتبر "الاعتقاد والإيمان والقيام بأعمال الخير" من بين الموضوعات التي أكد عليها القرآن الكريم تأكيداً قاطعاً. كما يُذكر القرآن الكريم الناس مراراً وتكراراً بضرورة الحفاظ على بناء علاقة وطيدة مع الله ﷻ وأن يعبدوا الله ويعملوا كأنهم يرونه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

"قد يؤدي تعريف الإسلام على هذا النحو دوراً هاماً في العالم الإسلامي من خلال تقوية وتعزيز الأشكال المحلية للديمقراطية وتوسيع نطاقها بطريقة تساعد البشر على فهم العلاقة بين العالمين المادي والروحاني؛ وأعتقد أن الإسلام سوف يثري ويعزز مفهوم الديمقراطية من خلال الاستجابة للاحتياجات

في عصرنا هذا، لا تزال الديمقراطية تناول الوصول إلى الكمال. وعلينا أن نحاول بناء ديمقراطية تكون لديها القدرة على تلبية المطالب البشرية التي لن تتحقق إلا في رضا الله ﷻ ووعده الحياة الآخرة في الجنة.

www.nesemat.com

الثراء والسعة التي يمكن أن يضيفها الإسلام إلى الديمقراطية؛ وفي عصرنا هذا، لا تزال الديمقراطية تحاول الوصول إلى مرحلة الكمال. وينبغي علينا أن نحاول بناء ديمقراطية تكون لديها القدرة على تلبية كافة مطالب البشرية التي لن تتحقق في أي شيء إلا في رضا الله ﷻ ووعده الحياة الآخرة في الجنة.

"يجب طرح هذه المسألة على طاولة النقاش وفتح باب المناقشة حولها. أعتقد أن الديمقراطية يجب أن تكون شاملة بما فيه الكفاية لتلبية الرغبات الروحية والمادية للجنس البشري؛ ويجب أن يكون البشر قادرين على العيش بحرية وفقاً لما يؤمنون به ويجب على الديمقراطية تمهيد هذه البيئة المناسبة لهم" (تم نشر هذا الجزء من المقابلة من قبل براين نولتون في صحيفة نيويورك تايمز في ١١ يونيو/حزيران ٢٠١٠).

الحقبة الإسلامية الأولى كانت جمهورية

شدد كولن على أن عصر الخلفاء الراشدين، الحقبة الأولى في التاريخ الإسلامي، كانت في الواقع حقبة جمهورية وديمقراطية غير معترف بها؛ وفي حالة الخلفاء الراشدين الذين كانوا قادة دولة إسلامية

أشكال الديمقراطية في شتى أنحاء العالم، فهناك الديمقراطيون المسيحيون والديمقراطيون البوذيون وحتى الديمقراطيون اليهود. يمكن للشعوب أن تكون ديمقراطية وأن يكون لهم فهمهم ومعتقداتهم وفلسفتهم الخاصة في الوقت ذاته؛ وليس هناك أي عيوب تنجم عن مزج العادات والتقاليد الإسلامية بالديمقراطية. وفي رأيي، يمكن أن توجد مثل هذه الديمقراطية.

"بل يمكن حتى إضافة ما يلي إلى الديمقراطية: لا تتكون احتياجات المرء من حاجاته الدنيوية فقط. واسمحوا لي أن أمتنع بفوائد حرية الفكر وحرية الكسب، ولكن اسمحوا لي أيضاً أن يكون لي جانب آخر يربطني بالحياة الأبدية والآخرة؛ لقد خلقت من أجل الآخرة، ولن أرضى بأي بديل عن الحياة الأبدية والآخرة. إذا كان يجب أن تكون الديمقراطية ديمقراطية كاملة، فإنها تحتاج إلى إدراج أشياء معينة تساعد على تحقيق هذه الرغبة وتحتاج إلى تقديم الدعم المناسب لتحقيق ذلك؛ ويعني ذلك أن الديمقراطية تتطلب بعداً دينياً، كما أنها تحتاج إلى جانب مفتوح لحساباتنا الخاصة بالدار الآخرة لأجل حساباتنا التي لم يتم الوفاء بها. لماذا لا توجد مثل هذه الديمقراطية؟" (زمان، ٢٤ مارس ٢٠٠٤).

البعد الإسلامي في الديمقراطية

نستعرض فيما يلي بعض التصريحات التي أدلى بها كولن في مقابلة أجراها في عام ٢٠١٠ مع صحيفة نيويورك تايمز: "... ينبغي النظر بالتأكيد إلى حجم

أعتقد أن الديمقراطية يجب أن تكون شاملة بما فيه الكفاية لتلبية الرغبات الروحية والمادية للجنس البشري؛ ويجب أن يكون البشر قادرين على العيش بحرية وفقاً لما يؤمنون به ويجب على الديمقراطية تمهيد هذه البيئة المناسبة لهم.

www.nesemat.com

الديمقراطية موجودة دائماً في الماضي على الرغم من أنها لم يطلق عليها هذا الاسم. يمكننا حتى التحدث عن الجمهورية ووجود الديمقراطية بدون اسم خلال فترة الخلفاء الراشدين.... ربما كان هناك تداخل بين هذين النظامين، ومن الممكن التوفيق بينهما. ولهذا السبب، يمكن الاعتقاد بأن الديمقراطية والجمهورية يمكن أن يُشكلا أساساً مناسباً للإسلام والفكر الإسلامي وإمكانية ممارسة الشعائر الإسلامية. وفي رأيي أن اعتقادنا بأنهما ضد الإسلام هو بمثابة تفسير خاطئ وكذلك نهج خاطئ..."

كما أكد على ذلك كولن في مقابلة أجراها مع قناة "تي آر تي" (هيئة الإذاعة والتلفزيون التركية، القناة الوطنية لتركيا) بتاريخ ٢ يونيو/حزيران ١٩٩٥ "إن الإسلام كان جمهورية في فتراته الأولى؛ ولا يمكن الادعاء بخلاف ذلك".

في ٢٧ فبراير/شباط ١٩٩٨، ظهر كولن في برنامج تليفزيوني على قناة إن تي في يقدمه طه آكيول وجينكيز كاندار بشكل مشترك بينهما. وخلال عرض البرنامج، سأل كاندار "ماذا يمكن أن تقول عن الإسلام والديمقراطية؟" في الوقت الحالي، يبدو أن هناك إجماعاً بأن تركيا تمر بفترة سياسية مضطربة. كيف يمكنك تقييم الوضع الحالي والمستقبل القريب في تركيا؟ ما نوع الاقتراحات التي يمكن أن تقدمها؟" كان رد كولن مستفيضاً ومدروساً: "لم أر مطلقاً الديمقراطية باعتبارها معارضة لروح الإسلام؛ بل إنني قلت في البداية (في حوار بتاريخ ٢٩ يونيو/

كبيرة في فترات سابقة، كان من الضروري الحصول على موافقة شعبية على انتخابهم لمنصب خليفة المسلمين. وكانت هذه هي الطريقة التي أصبح بها أبو بكر الصديق الخليفة الأول للمسلمين بعد النبي الكريم ﷺ؛ كما تولى الخلفاء الثلاثة التالون هذا المنصب بموافقة المجتمع، وهذا هو جوهر الديمقراطية والجمهورية. إن انتقال الخلافة من الأب إلى الابن، كما هو الحال في نظام الأسرة الحاكمة، ليس ما يقره الإسلام؛ ومع ذلك، فقد ظهرت هذه الأنظمة القائمة على الأسرة الحاكمة في وقت لاحق في التاريخ الإسلامي، وهي لا تكاد تمثل الروح الحقيقية لنظام الحكم الإسلامي. بالنسبة لكولن وغيره من العلماء، فإن فترة الخلفاء الراشدين الأربعة الأولى تعكس نمطاً أكثر دقة عن نظام الحكم الإسلامي.

ورداً على الأسئلة التي طرحها يالكان دوغان من صحيفة كنال دي تي في ١٦ أبريل/نيسان ١٩٩٧، شرح كولن قائلاً: "الديمقراطية هي حكم الشعب، وهي شكل عميق من أشكال "الجمهورية"؛ بل هي روح (الجمهورية)، إنها البُعد الأكثر إنسانية في الجمهورية. ولهذا السبب، بدرجة ما... كانت

نحن ورثة الإرث الثقافي الغني... مهمتنا هي تقييم هذا الفكر مرة أخرى وجلبه لآفاق جديدة، والتعبير عنه بصوت مرتفع وواضح في المنصات التي يمكن الاعتراف به فيها لصالح البشرية جمعاء.

www.nesemat.com

الإسلامية مثل حماس أو الأنشطة مثل (التي يطلق عليها) الجهاد الإسلامي، ناهيك عن التعاطف معها، والتي ظهرت في منطقة الشرق الأوسط، ولا سيما بعد سقوط الاشتراكية. إن المصطلحات التي تستخدمها تختلف عن مصطلحات الأصولية في الشرق الأوسط والتي يُشار إليها باسم الإسلام السياسي.

وقد أجب كولن على هذا السؤال على النحو التالي: "لقد ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية وانتقل إلى السهوب الآسيوية حيث أصبح متمركزاً في الشعور والفكر؛ وبعد ذلك اتخذ الإسلام منعطفاً آخر للانتشار في طريقه نحو الأناضول وآسيا الصغرى التي تولت دور الأم وقامت بنقل أشياء معينة إلى آسيا الكبرى، والتي ستسمح لها في يوم من الأيام أن تحقق إرثها الخاص... لقد نشأ الإسلام وتطور في الأساس في آسيا فيما يتعلق بعلم الفقه والشريعة والفكر الديني والفكر الصوفي؛ ومن آسيا انتشر الإسلام وانتقل إلى شتى أنحاء العالم.... نحن ورثة الإرث الثقافي الغني؛ غني للغاية لدرجة أنه لا يتعين علينا الشعور بأي حاجة لبعض التيارات الصغيرة التي تشكلت هنا وهناك في الوقت الحاضر.

وأضاف قائلاً: "... يبدو لي أن هذا الفكر الغني

حزيران ١٩٩٤) إن هذه العملية قد تم البدء فيها بالفعل ومن المستحيل الرجوع عنها أو أن يكون هناك بديل عنها... الديمقراطية لها أنواع مختلفة. هناك الديمقراطيون الاجتماعيون والديمقراطيون المسيحيون والديمقراطيون الليبراليون في هذا العالم... "أتمنى أن تتطور الديمقراطية في يوم ما إلى حد أنه في مثل عملية التطور هذه يتم إعداد وتهيئة الأجواء بحيث يمكن تلبية كافة احتياجات الأفراد المادية والروحانية والاحتياجات الأخرى. ويعني ذلك، أنه كما هو الحال في استجابتها لاحتياجاتي الفردية حتى نهاية الحياة وإتاحة الفرص التي لا تضر بالآخرين، فمن الضروري أن تسهل مروري المنشود خلال مرحلة القبر وحياة البرزخ. بل ينبغي أن تمهد الطريق لدخولي إلى الجنة من خلال الفرص التي تم منحها لي."

"عندما قمت بمشاركة وتبادل هذه الأفكار مع أحد الأكاديميين الأمريكيين، أشار إلى أنها تمثل تعريفاً ممتازاً للديمقراطية. ومع مراعاة هذه الاعتبارات، أين نحن من الديمقراطية؟ أعتقد أنه من الخطأ الحكم على الوضع الحالي على أساس فهم أي شخص ما."

الإسلام السياسي أو تسييس الإسلام

سأل طه أكيول كولن على وجه التحديد عن الإسلام السياسي والديمقراطية قائلاً: "أنت تمثل الإسلام الذي تمتد جذوره في هذه الأراضي؛ وحسب فهمي، فليس لديكم أي علاقة أيديولوجية بالجماعات أو الحركات التي تسمى جماعات الإسلام الأصولي أو الإسلام السياسي أو الإسلام المتعصب أو الجماعات

تكون فيه السياسة في المقدمة يعتبر تصرفاً خاطئاً
وضرراً لنسبة ٩٨٪.

"هذا وتشمل نسبة ٩٨٪ مبادئ العقيدة مثل
الإيمان بالله، والإيمان بيوم القيامة، والإيمان بالكتب
السموية، والإيمان بالأنبياء والرسل، والإيمان بالملائكة،
وأركان الإسلام مثل الصلاة والزكاة المفروضة والصيام
والحج ويلها جميع المبادئ الأخلاقية الأخرى؛ ويتم
الالتزام بجميع هذه القيم والأركان في (تركيا). علاوة
على ذلك، تتضمن هذه النسبة العديد من المسائل
التي نشترك فيها مع الأديان الأخرى؛ ويمكن لكل فرد
أو أسرة ممارسة هذه المبادئ من تلقاء أنفسهم ولا
يمكن لأحد أن يقول أي شيء من حيث قيامهم بذلك."
"بينما تتعلق نسبة ٢٪ المتبقية الأخرى بالحكم

والإدارة. إن غض الطرف عن نسبة ٩٨٪ من أجل
عرض نسبة ٢٪ على أنها هي الإسلام، على أساس
أولئك الأفراد الذين ينظرون إلى الإسلام على أنه
نظام سياسي ومن ثم يتحدثون عن الإسلام السياسي،
يتناقض مع حقيقة الإسلام."

"إن مصطلح الإسلام السياسي لم يستخدمه
المسلمون الراغبون في جعل الإسلام قاعدة أساسية
لحركات التحرر والاستقلال الوطني التي يقودونها،
والذين اعتبروه في هذا الصدد أيديولوجية أكثر
من كونه ديناً؛ وقد ظهر هذا التعبير إما من خلال
وسائل الإعلام الغربية التي كان عليها أن تبحث
عن مسمى للحركات التي أسسها هؤلاء المسلمون
أو من قبل الدوائر الأخرى. ومع كل ذلك، لا يزال

الديمقراطية والجمهورية يمكن أن يُشكلا
أساساً مناسباً للإسلام والفكر الإسلامي
وإمكانية ممارسة الشعائر الإسلامية. وفي
رأيي أن اعتقادنا بأنهما ضد الإسلام هو
بمثابة تفسير خاطئ وكذلك نهج خاطئ"

المتجذر والحديث لا يدع حاجة لأي تيار آخر في أي
مكان في العالم. إن مهمتنا هي تقييم هذا الفكر مرة
أخرى وجلبه لآفاق جديدة من خلال توليف وتحليل
جديدين، والتعبير عنه بصوت مرتفع وواضح في
المنصات التي يمكن الاعتراف به فيها لصالح البشرية
جمعاء."

تسييس الدين مُضر بنفس درجة العداوة للدين

يعتبر الإسلام السياسي أو تسييس الإسلام أحد النقاط
المحورية في المناقشات حول الإسلام والديمقراطية؛
لقد كان لكون رأي ثابت في هذه المناقشة: لا يعتقد
كون أن الدين يجب أن يكون مسيحاً؛ وقدم الرد
التالي على سؤال مراسل صحيفة لوموند الفرنسية
نيكول بوب: "ما رأيك في الإسلام السياسي؟"

"يشمل الإسلام بنسبة ٩٨٪ حياة الفرد والأسرة
والقيم الأخلاقية والروحية الأساسية التي يمكن أن
يتبناها المجتمع؛ في حين يتعلق ٢٪ فقط من الإسلام
بشؤون الدولة. ومن ثم، فإن تجاهل نسبة ٩٨٪
المذكورة دون الإشارة إلى أن هذا من الإسلام، والإشارة
فقط إلى نسبة ٢٪ على أنها من الإسلام في الوقت الذي

سوف يكون هدفنا هو نقل التفسيرات الحقيقية للإسلام إلى الشعوب من أجل إرساء الديمقراطية بمفهومها الكامل وبموافقة الجميع والعمل على منع تسييس الإسلام.

www.nesemat.com

المسلمون يتعاملون مع هذه المسألة في إطار الدين أو الشريعة؛ وإذا كانوا يقصدون بالشريعة أنها نسبة ٢٪ التي سبق وذكرتها، فهم يرتكبون خطأ فادحًا. كما أن أولئك الذين ينظرون إلى الشريعة على أنها يُقصد بها نفس نسبة ٢٪ فهم أيضًا مخطئون.

"إن الحديث بطريقة مهذبة وتجنب الفحش والأذى في القول والبعد عن الوقاحة والعدوانية في الفعل يمثل قاعدة من قواعد الشريعة، وقد أكد عليها القرآن بشكل متكرر؛ كما أن احترام الناس وإكرام ضيافتهم ولو أن يتبسم المرء في وجه أخيه كما أوضح النبي ﷺ، وكذلك إخراج الماء من البئر وتقديمه لأي إنسان أو حيوان يشعر بالظماً أو إفراغه في دلو أي شخص بالقرب منك أو إماطة الأذى من طريق المسافرين أو المارة... كل ذلك من متطلبات الشريعة الإسلامية

والدين الإسلامي. ونحن نفعل كل ذلك بنية العبادة وبوعي تام وبسعادة تنفيذاً لأوامر الدين الحنيف. هذه هي الجوانب الفعلية للدين التي يجب مراعاتها وإبرازها لأن الدين ككل، عبارة عن مكون جامع من الخير والفضيلة؛ وأن كل جميل هو مستمد من الدين وكل ما هو بغيض وكرهه فهو ليس من الدين في شيء. قال رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" (أخرجه أحمد) ووصفه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)".

وعندما يكون هذا هو الدين الحق، ثم نجد

أن نسبة ٢٪ من الدين يتم عرضها بصفة مستمرة وبشكل متعمد على أساس أخطاء بعض الناس فما هذا إلا تسييس للدين ككل والتعامل معه على أنه أيديولوجية سياسية، وهو ما يمثل أكبر إساءة للدين الإسلامي. وفي هذا الصدد، فقد كنا ضد تسييس الدين منذ زمن طويل واعتبرنا أن ذلك يضر بالدين بنفس القدر الذي يفعله العداء المتأصل للدين.

من أجل التمتع بالديمقراطية الكاملة

التقى الصحفي والمؤلف الكندي فريد أ. ريد بفتح الله كولن في ٣٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٩؛ وفي هذه المقابلة، شدد كولن على عدة نقاط. أشار كولن إلى أن الأشخاص أصحاب التفكير الديني يتعين عليهم أن يُظهروا للعالم أجمع أن الإسلام لا يتعارض مع الديمقراطية:

"إذا كانت الديمقراطية توفر الظروف المناسبة للمسلمين وغيرهم للعيش في وئام مع بعضهم البعض، ففي هذه الحالة ينبغي علينا أن نُشجع أنفسنا على إقامة الديمقراطية وبذل كل الجهود الممكنة لتحقيق الديمقراطية الكاملة بمعناها الغربي في أوطاننا؛ وهذا أمرٌ في غاية الأهمية لسببين وهما:

والعمل على منع تسييس الإسلام."

تسييس الدين يطمس روح الإسلام

أشار كولن في مقابلة أجراها مع تلفزيون كانال دي بتاريخ ١٦ أبريل/نيسان ١٩٩٧ إلى وجود خطر متأصل في السياسة؛ ويشير كولن مرة أخرى إلى أن السياسيين لديهم القدرة على استغلال أي شيء من أجل المصالح السياسية، وظل كولن ثابتاً على رأيه بأن السياسيين يتقدمون بمطالبهم وكأنهم الممثلون الحصريون للدين وهذا يعد بمثابة استغلال للدين، وأن عيوب ونقائص السياسة تؤثر سلبيًا على الدين بدورها؛ "إنهم يقولون إن الدين ميسس، وأن قبول مثل هذا القول يعني أن بعض الدوائر تسييس الدين. إن تسييس الدين يعد أكثر خطورة على الدين من النظام؛ وفي الواقع، يعني ذلك طمس روح الدين لأن الدين للجميع؛ بل هو أسمى شيء يحترمه ويبجله الجميع ومن خلاله يجد كل شخص الهدوء والسعادة الدنيوية. الدين هو اسم لصلة الجميع بالله ﷻ.

"إن تسييس الدين يعني أن يصبح الدين عرضة للخطر؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن أولئك الذين يدعون إلى الدين ضمن نطاق الاعتبارات السياسية يسعون لاستغلال كل شيء لصالح سياساتهم وآرائهم وأهدافهم السياسية. في حين أن السياسيين يستغلون كل شيء باسم سياستهم، ومن ثم يطمسون صورة الدين تحت ما يقدمونه من وصف."

"وبعبارة أخرى، إذا كانوا يتعاملون مع هذه

إن غض الطرف عن نسبة ٩٨% من أجل عرض نسبة ٢% على أنها هي الإسلام، على أساس أولئك الأفراد الذين ينظرون إلى الإسلام على أنه نظام سياسي ومن ثم يتحدثون عن الإسلام السياسي، يتناقض مع حقيقة الإسلام."

"أولاً، لكي نتمكن من ممارسة شعائرتنا ومعتقداتنا الدينية بسلام، وثانيًا، حتى تتمكن الأجيال الجديدة من أن تعيش حياتها وتتعامل مع الآراء السائدة بسلام. إذا كان الإسلام دين اعتقاد وعبادة وأخلاق، فلا يمكن لأي شخص في أي بلد ديمقراطي الاعتراض على هذا النظام؛ غير أن تجاهل هذا النظام وجعل الإسلام يبدو فقط شكلاً من أشكال الحكم والإدارة ليس سوى تفسير خاطئ للإسلام وعلى هذا النحو، يمثل ويرمز لمواقف ومشروعات سياسية معينة. وأعني أننا بحاجة إلى أن نعرض الإسلام على شرائح أكبر من المجتمع كظاهرة ترتبط إلى حد كبير بالاعتقاد والتطبيق العملي والأخلاق؛ ويتعين علينا أن نُظهر أن الإسلام لا يتعارض أو يختلف مع الديمقراطية."

"ولتحقيق هذه الغايات، ينبغي على الناس أن يتحلوا بالإيثار والعطاء؛ ولكي تتمكن الأجيال القادمة من العيش في سلام وهدوء ينبغي أن يكون لدى الناس القدرة على التخلي عن ملذاتهم ومتعهم الشخصية... وسوف يكون هدفنا هو نقل التفسيرات الحقيقية للإسلام إلى الشعوب من أجل إرساء الديمقراطية بمفهومها الكامل وموافقة الجميع

لن يكون من الفهم الصحيح للإسلام الادعاء بأن السياسة من المبادئ الحيوية والأساسية للدين ومن بين أركانه وركائزه الراسخة.. والذين ربطوا تلقي الرسائل القرآنية بهذه المسائل قد يتسببون في سوء فهم الآيات.

www.nesemat.com

المسألة مفاهيم مثل "نحن متدينون، سوف نمثل الدين، سوف ننقل الدين إلى التطبيق العملي، سوف نجعل الدين يسود الحياة ككل"، فإن أخطاءهم سوف تُنسب إلى روح هذا الدين العالمي؛ وسوف يتم طمس الصورة الصحيحة للدين، وهذا خطر آخر" (كانال دي، ١٦ أبريل ١٩٩٧).

ليس هناك شكل واحد من أشكال الحكم في الإسلام

في مقابلته التي تم نشرها في مجلة العالم الإسلامي في عام ٢٠٠٥، سئل كولن "في وقت أصبح فيه الإسلام السياسي منتشرًا للغاية، ما آراؤك حول العلاقة بين الإسلام والسياسة؟"

تطرق كولن في رده على هذا السؤال إلى نقطتين: ١- أن الإسلام لا يفرض هيكلًا موحدًا للدولة وهناك عديد من أنظمة الحكم المختلفة للدولة والتي يمكن تقفي أثرها في التاريخ الإسلامي.

٢- أن الإشارة إلى القرآن فقط بغرض إيجاد مادة للخطاب السياسي تعد بمثابة عدم تجيل وتقديس للقرآن الكريم بصفته كلام الله ﷻ، وبفضل الحكماء من السياسيين الذين يستمدون إلهامهم من القرآن الكريم ومن خلال إثراء الروح البشرية، فإن السياسة تتوقف عن كونها مجرد مقامرة أو لعبة شطرنج.

وشرح كولن ذلك في هذه النقاط: "أرى أن الناس قد ذهبوا بعيدًا للغاية أو ليس بعيدًا بما فيه الكفاية من حيث فهم العلاقة بين الإسلام والسياسة؛ فقد قال البعض إن الإسلام ليس له علاقة بالسياسة، في

حين يرى البعض الآخر أن الدين هو السياسة ذاتها متجاهلين بذلك الجوانب المتنوعة والغنية للدين." "يتضمن القرآن الكريم آيات تتعلق بالإدارة والسياسة، كما تحتل ممارسات وأفعال النبي ﷺ مكانة هامة في هذا الصدد. على سبيل المثال، المصطلحات القرآنية "أولي الأمر" (الحكام)، و"الطاعة" (طاعة أولي الأمر)، و "الشورى"، و"الحرب"، و"الصلح" (السلام) هي كلها أمثلة على بعض الإشارات القرآنية فيما يتعلق بالقرارات السياسية والقانونية؛ وبالإضافة إلى ذلك، هناك آيات قرآنية تتعلق بالمؤسسات القانونية وبعضها يشير أيضًا إلى السياسة والحكم.

"ومع ذلك، لا يمكن في الإسلام تقييد مفهوم الحوكمة والسياسة ضمن نموذج واحد، على عكس مبادئ الإيمان وأركان الإسلام؛ حيث يوضح لنا التاريخ أنه كان هناك عديد من أنواع الحكومات في العالم الإسلامي منذ عصر النبي ﷺ".

"لن يكون من الفهم الصحيح للإسلام الادعاء بأن السياسة من المبادئ الحيوية والأساسية للدين ومن بين أركانه وركائزه الراسخة؛ ورغم أن هناك بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بالسياسة، وهيكل

إن تسييس الدين يعد أكثر خطورة على الدين من النظام؛ وفي الواقع، يعني ذلك طمس روح الدين لأن الدين للجميع؛ بل هو أسمى شيء يحترمه ويجله الجميع ومن خلاله يجد كل شخص الهدوء والسعادة الدنيوية. الدين هو اسم لصلة الجميع بالله ﷻ.

www.nesemat.com

الذي يأتي بالأوامر الإلهية من الخالق ﷻ وتُفسر عالم الغيب والأمور المرئية وغير المرئية؛ فالقرآن الكريم هو شرح لمدلولات الأسماء الإلهية على وجه الأرض وفي السماوات، وهو صفة طيبة لمختلف المشاكل المنتشرة في العالم الإسلامي. بل يعتبر القرآن الكريم دليلاً فريداً على السعادة والنعيم في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة؛ كما يعتبر دليلاً عظيماً للمسافرين في هذا العالم الذين يتحركون نحو الدار الآخرة، بل هو مصدر لا ينضب من الحكمة. ولا ينبغي أن يقتصر التعامل مع هذا الكتاب الإلهي العظيم عند مستوى الخطاب السياسي، ولا ينبغي اعتباره كتاباً يتحدث عن النظريات السياسية أو أشكال الحكم في الدولة. إن النظر والتعامل مع القرآن الكريم باعتباره أداة للخطاب السياسي هو بمثابة إهانة وعدم تجيل واضح للكتاب المقدس، وعقبة تمنع الناس من الاستفادة من هذا المصدر العميق للفضل والنعمة الإلهية. ليس هناك شك أن القرآن الكريم قادر، من خلال إثراء للنفس البشرية، على إلهام الحكماء من السياسيين ومن خلال جهودهم تجاه عدم جعل ممارسة السياسة وكأنها نوع من المقامرة أو مجرد لعبة شطرنج.

فيما يتعلق بالتعامل مع القرآن الكريم كأيدولوجية سياسية، تشير السطور التالية المقتبسة من مقالة كتبها كولن لصحيفة فايننشال تايمز لما يلي: "إن وجهة النظر الضيقة المتمثلة في السعي إلى السلطة السياسية باسم الدين تتناقض مع روح الإسلام. عندما

الدولة وأشكال الحكم، إلا إن الأشخاص الذين ربطوا تلقي الرسائل القرآنية بهذه المسائل قد يتسببون في سوء فهم الآيات. وقد يعتبر سوء الفهم هذا نتيجة لحماسهم الدينية والقيود المفروضة على اعتباراتهم المنفردة بشأن الاعتماد المفرط على التجارب التاريخية، واعتقادهم بأن مشاكل المجتمعات الإسلامية يمكن حلها بسهولة أكبر من خلال السياسة والحكم. وتعتبر جميع هذه الطرق والنهج ذات معنى ومغزى ضمن سياقاتها؛ ومع ذلك فإن الحقيقة لا تكمن في هذه النهج والطرق بمفردها.

"على الرغم من أن المرء لا يستطيع أن يتجاهل آثار الحكم والإدارة في تنظيم العلاقات المشتركة بين الأفراد والأسر والمجتمعات، إلا أن هذه العلاقات - في إطار القيم القرآنية - تعتبر قضايا ثانوية؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن القيم التي نطلق عليها المبادئ الأساسية مثل الإيمان والخضوع (الإسلام) وفعل الخيرات (الإحسان) وقبول الأخلاق الإلهية من جانب المجتمع هي المراجع التي تشكل جوهر القضايا الإدارية والاقتصادية والسياسية.

"القرآن الكريم هو ترجمة ونقل لكتاب الوحي،

إن حدوث تشويه أو تحريف في الإسلام ليست مسألة موضع خلاف، لأن الإسلام كان قادراً على حماية أصوله وبالتالي فإن الإصلاح (بمعنى إعادة الهيكلة من لا شيء) ليس ملائماً لطبيعة الإسلام.

nesemat.com

يختلط الدين والسياسة، يعاني كلاهما والدين هنا أكثر. (١٠ مارس ٢٠١٤، صحيفة فايننشال تايمز).

الإصلاح الديني

إن أحد المسائل التي يتم طرحها في المناقشات التي أجريت حول العلاقة بين الإسلام والديمقراطية هي مسألة "الإصلاح الديني". هل يحتاج الإسلام إلى إصلاح أو يمكن أن يخضع لإدخال أي إصلاحات عليه؟ وقد تناول نيكول بوب من صحيفة لوموند الفرنسية هذا في عام ١٩٩٨: "هناك مناقشات تتعلق بالإصلاح في تركيا وفي أماكن أخرى في العالم الإسلامي؛ وهي المناقشات حول إذا كان الإسلام -مثلته في ذلك مثل المسيحية- يمكن أن يخضع للإصلاح أم لا."

وردًا على ذلك، أوضح كولن أن الإسلام لم يخضع لعملية إعادة تشكيل تتطلب إدخال أي إصلاحات عليه، ولكن هناك تجديد في الدين الإسلامي: "لقد كان هناك إصلاح منذ ألف وخمسمائة سنة بعد عصر المسيح (نبي الله عيسى عليه السلام)؛ ونجد أن المنشورات التي نشرها باحثون مثل موريس بوكايل وحتى الباحثين المسيحيين أنفسهم، على سبيل المثال، منشورات مثل الموسوعة الكاثوليكية قد لفتت الانتباه إلى وجود بعض الاختلافات بين الأناجيل. ويُرجع البعض هذه الاختلافات إلى حقيقة أن الأناجيل قد دُوت في فترة معينة بعد المسيح عليه السلام؛ فهذه المنشورات تشير إلى خضوع كتابة الأناجيل لعملية مشابهة لعملية جمع وتدوين الأحاديث

النبوية في تاريخ الدين الإسلامي.

"على المستوى الشخصي، فإنني أشعر بعدم الارتياح إزاء هذه المسائل التي يجري تناولها بمثل هذه الطريقة، مع كامل احترامي للمسيح عليه السلام والإنجيل ككتاب إلهي مقدس. وكنقطة مستقلة، يعتبر دور الكنيسة في المسيحية مهمًا أيضًا للغاية؛ وبسبب هذا الدور، فإن آراء الكنيسة تعتبر ذات ثقل ديني مختلف.

أدت التطورات التي حدثت على مر الزمن إلى اتباع نهج مختلفة بين المسيحيين بشأن هذه النقطة، كما ظهرت حركات الإصلاح في دول مثل ألمانيا وإنجلترا. وكما هو معروف، اتخذت بعض هذه الإصلاحات موقفًا ضد تطبيقات واستخدامات معينة مثل الانغماس في المملذات، وتعرضت بعض التعبيرات والعبارات الواردة في الكتاب المقدس للانتقادات في إطار العلوم النامية.

"في الدين الإسلامي، ظهرت وجهات نظر وآراء متباينة تدريجيًا فيما يتعلق بالمسائل من الدرجة الثانية أو الثالثة من حيث الأهمية، وفيما يتعلق بالمسائل التي كانت مادة أساسية للفقه والمدارس

أوضح كولن في مقابلة له نشرتها صحيفة حرية اليومية في عام ١٩٩٥: "إن حدوث تشويه أو تحريف في الإسلام ليست مسألة موضع خلاف، لأن الإسلام كان قادرًا على حماية أصوله وبالتالي فإن الإصلاح (بمعنى إعادة الهيكلة من لا شيء) ليس ملائمًا لطبيعة الإسلام" (صحيفة حرية، ٢٦ يناير/كانون الثاني ١٩٩٥).

وردًا على سؤال الصحفي الألماني راينر هيرمان: "هل يمكن للإسلام أن يكون حديثًا وعصريًا، أم هل هي مسألة تتعلق بأسلمة العالم الحديث، كما ادعي النقاد؟" وأجاب كولن: "هذه المسألة تتجاوز النزاع كما يتضح من مفهوم الديمقراطية الحديثة، ليس هناك تعريف ذو بُعد واحد نظرًا لاختلاف التفسيرات والتطبيقات السياسية والاجتماعية والفلسفية والثقافية؛ وتشير مصادر الحداثة إلى هذه المبادئ مثل أهمية المنطق والعلم والأفراد الذين ينتقون من قوة الآخرين أو الدولة، وحرية الاعتقاد والفكر، وحماية حقوق الإنسان، وسيادة القانون والحكم الديمقراطي."

"لا تُشكل أي من هذه المبادئ تناقضًا مع القيم الإسلامية؛ كما أن قيام المسلمين بتنفيذ هذه المبادئ على المستوى الفردي أو الحكومي لا يعني أن الإسلام يخضع لعملية تحديث بهذه الطريقة. وبدلاً من ذلك فإن هذه التطبيقات والاستخدامات هي عبارة عن جهود لتفسير تلك الجوانب من الإسلام والتي تكون متاحة ومفتوحة للتفسير وفقاً للمبادئ التي هي نتاج الحداثة، والتي لا تتعارض مع المبادئ

إن النظر والتعامل مع القرآن الكريم باعتباره أداة للخطاب السياسي هو بمثابة إهانة وعدم تبجيل واضح للكتاب المقدس، وعقبة تمنع الناس من الاستفادة من هذا المصدر العميق للفضل والنعم الإلهية.

التشريعية المختلفة؛ ومع ذلك، لم تكن أي من وجهات النظر هذه قادرة على أن تزعزع أسس الإسلام بسبب نقل متن القرآن الكريم بدون تغيير أو تحريف، وكذلك تسجيل وتدوين السيرة والأحاديث النبوية في فترة مبكرة. وهكذا ظل الجزء الأكبر من المبادئ الإسلامية في الدين الإسلامي كما هو دون تغيير أو تحريف.

"ومع ذلك هناك تجديد في الإسلام؛ فقد تم تصحيح بعض الأخطاء التي ظهرت مع مرور الوقت من قبل شخصيات عظيمة تُعرف باسم المجددين مع الحفاظ على المبادئ الإسلامية الأساسية. إذا كانت هناك بعض الانحرافات في وقت ما، فقد تم الرجوع في نهاية المطاف إلى هذه المبادئ الأساسية، كما تم إدخال التفسيرات الجديدة التي تستلزمها ظروف العصر والظروف السائدة بالنسبة لجوانب الإسلام التي كانت مفتوحة للتفسير والنقاش.

"لكن هذه ليست إصلاحات، لأن الإصلاحات تأتي بعد التشويه أو التعديل؛ ولا يمكن القول بأن هذا التشويه أو التعديل الذي يتطلب إجراء إصلاحات قد حدث في الدين الإسلامي."

هناك تجديد في الإسلام؛ فقد تم تصحيح بعض الأخطاء التي ظهرت مع مرور الوقت من قبل شخصيات عظيمة تُعرف باسم المجددين مع الحفاظ على المبادئ الإسلامية الأساسية.

www.eseemat.com

وواضحة، وفي المسائل التي لا توجد فيها أحاديث صحيحة نقلها صحابة النبي ﷺ. وكانت تلك المراسيم والقرارات التي تم سنها من قبل شيوخ الإسلام في هذه الفترة وعلماء المسلمين العظماء.

"غير أن هناك قضايا أخرى قبلها الإسلام على الرغم من أنها ليست ضمن العادات والتقاليد، ومن المحتمل أن نكون قد اقتبسنا هذه المسائل من أمة أخرى وقبلناها بدون مناقشة؛ وقد تخضع هذه المسائل للتغيير في أي وقت من الأوقات."

"ومن الأمثلة على ذلك مسألة الملابس والثياب؛ وليس هناك حاجة إلى أن يكون اللباس كما كان بالضبط في عهد النبي الكريم ﷺ، حيث كانت هذه هي تقاليد المجتمع في ذلك الوقت. فقد كانوا يرتدون عباءات بدون أزرار، وملابسهم لم تكن تغطي صدورهم...لم يكن هناك الجلابيب التي نرتديها اليوم، ولم يكن هناك معاطف مثل التي لدينا اليوم. ويمكن لهؤلاء الأفراد الذين يرغبون في القيام بذلك أن يحذو حذوهم، وليس هناك ضرر في القيام بذلك؛ ولكن إذا تم فرض هذا اللباس باعتباره جزءاً من الإسلام، ففي هذه الحالة سوف تكون الأمور أكثر

الأساسية للدين الإسلامي."

"ومن ناحية أخرى، لا يمكننا التصرف على أساس افتراض أن الإسلام يقر كل وجميع طلبات الحداثة التي واجهها في تفسيراته وتطبيقاته؛ وتتضمن الأمثلة على ذلك التعامل مع الجنس البشري والكون من منظور مادي تام، وتطبيق العلمانية باعتبارها فرضاً لمعتقدات التفكير والحريات المطلقة بلا قيد وضابط أو الادعاءات بشأن انتهاء الدين وزواله أو الاستعاضة عنه بالمنطق والعلم.

"على النقيض من ذلك، لا يمكن أن يطلق على المسلمين، الذين يعززون توجههم الخاص إلى الحداثة ويقدمون تفسيراتهم بشأن مسائل معينة، "أسلمة الحداثة" (مقابلة أجراها راينر هيرمان في ٦ ديسمبر ٢٠١٢).

اختلاف الأحكام الدينية مع مرور الوقت

تعد مسألة "هل القواعد القانونية تتغير أم لا وفقاً لاحتياجات الزمان وتغيره" واحدة من أكثر الموضوعات المثيرة للجدل ضمن إطار الإسلام والديمقراطية؛ وقد ناقش كولن هذه المسألة باستفاضة في مقابلته التي أجراها مع برنامج تلفزيوني هولندي: "موجب الاستناد إلى القانون المدني العثماني، تتغير الأحكام الدينية مع تغير الزمن."

"هناك أشياء يمكن أن تتغير، ففي النظام القانوني العثماني، هناك مراسيم وأحكام تشكل أغلبية فيما يتعلق بتلك العادات والتقاليد وفي المسائل التي لا توجد فيها أحكام وردت في نصوص قرآنية صريحة

إن وجهة النظر الضيقة المتمثلة في السعي إلى السلطة السياسية باسم الدين تتناقض مع روح الإسلام. عندما يختلط الدين والسياسة، يعاني كلاهما والدين هنا أكثر.

صعوبة وينفر الناس من الدين.

"لا يمكن حتى وصف هذه الأشياء على أنها مسائل ثانوية أو فرعية للدين؛ وهذه هي العادات والتقاليد. في الواقع، ووفقاً لما ذكره البعض، يمكن حتى القول بأن العمامة هي أيضاً من الأمثلة على تلك العادات والتقاليد. على سبيل المثال، كان من المعتاد ارتداء العمامة بين المسلمين خلال عصر النبوة، كما أن رسول الله ﷺ كان يرتدي العمامة أيضاً. وعلى الرغم من انتشارها، لا توجد أي أحاديث بشأن ارتداء العمامة في كتب مثل صحيح البخاري ومسلم والترمذي؛ وكانت الإشارة إلى العمامة في سنن أبي داود مرتبطة بوقت دخول النبي ﷺ إلى مكة في يوم الفتح، حيث كان النبي ﷺ يرتدي العمامة فوق خوذته؛ ولا يمكننا معرفة فوائد العمامة.

"ربما كانت العمامة شيئاً مثل الخوذة التي نرتديها عند ركوب دراجة نارية في عصرنا هذا، وكان يتم ارتداؤها عن قصد؛ كما أن البعض يقولون إن ذلك هو ما كان سائداً بالفعل في ذلك الوقت. إذا كنت تقول في الوقت الحالي إن ارتداء العمامة أمر ضروري لتصبح مسلماً، فأنت في هذه الحالة تجعل الأمور أكثر صعوبة. وأنت بهذا تضع الفروع قبل

الأصول والتفاصيل قبل المبادئ الأساسية. وعلاوة على ذلك، فقد ذكر الحق ﷻ في القرآن الكريم، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢) ويعني ذلك أن الأشياء التي يراها الله ﷻ عظيمة يجب أن يُنظر إليها على أنها عظيمة وتستحق التبريل، في حين أن الأشياء التي يراها الله ﷻ صغيرة أو لا تُذكر أو التي لا يوليها المولي ﷻ اهتماماً كبيراً، ينبغي أن تترك ضمن سياقها وحسب. ورغم ذلك، إذا منحت الأمور التي لم يتم إعطاؤها أهمية كبيرة ولم يركز عليها النبي ﷺ -مثل إقامة الدولة- فوق الفرائض الدينية وفوق الاعتقاد والعبادة والصلاة والصيام والصلاة والزكاة المفروضة والحج والتصرف بطريقة إنسانية ومحبة واحترام الآخرين، فإنك تكون قد عطلت التوازن الإلهي الراسخ في هذه الحالة.

"كما أن تعطيل التوازن البيئي يمثل عائقاً، فإن تعطيل توازن الدين الذي ينظم حياة البشر أيضاً يمثل عائقاً. وفي هذا الصدد، فإن منح الأولوية للمسائل والأمور، التي يمكن وصفها بالتفاصيل والقضايا الثانوية، يمكن أن يرتقي إلى تدمير التوازن والانسجام في الدين، ولا ينبغي السماح بذلك. يجب أن تظل التفاصيل كما هي دون تغيير، وعلى هذا النحو يجب أن يتم اعتماد المبادئ الأساسية على هذا النحو كأساسيات.

"إن الأصل والركن الأساسي في الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ ويعتبر أبو حنيفة أن الشخص الذي ينطق بهذه الشهادة

الأشياء التي يراها الله ﷻ عظيمة يجب أن يُنظر إليها على أنها عظيمة وتستحق التبجيل، في حين أن الأشياء التي يراها الله صغيرة أو لا تُذكر أو التي لا يوليها اهتمامًا كبيرًا، ينبغي أن تترك ضمن سياقها وحسب.

المحدودة للقرآن والسنة، التي تعالج وتتناول المشاكل غير المحدودة للبشر. وقد بدأ هذا النشاط المبارك في عصر النبي ﷺ وتطور في القرنين الثالث والرابع الهجريين تحت اسم الاجتهاد والرأي، والاستدلال، والقياس والاستنباط؛ وظلت هذه الحلول قائمة على مر الزمن في إطار ممارسة النظم الحيوية للإسلام وقد كانت مثمرة للغاية.

"وقد بدأت هذه الثقافة التشريعية الأصلية والغنية والفريدة من نوعها في العالم الإسلامي في التلاشي لأسباب منها: أن نظام الحياة الإسلامي النشط قد تم استبعاده من المجال العام، وكذلك عدم وجود عقول نشطة ماثلة لتلك العقول التي كانت موجودة في الفترات الأولى في التاريخ الإسلامي، والافتقار إلى الروح الملهمة، والافتقار إلى المفكرين الأفذاذ وانحسار وضعف المعرفة بالقرآن والسنة. وقد تم الاستعاضة عن هذه العقول النجيبة بتلك العقول التي تفتقر إلى القدرة على التفسير المنطقي، فضلًا عن ندرة الذكاء؛ كما أنهم متأخرون بشدة في معرفتهم بالقرآن والسنة وغير مؤهلين للإلهام والإبداع. وبما أن هذه الأعماط من الشخصيات قد أصبحت مصدر السلطة في الدوائر

مؤمنًا في كتابه الفقه الأكبر. ويمكن لهذا الشخص أن يدخل الجنة وهذا هو الشرط؛ وبالنسبة لهذه المسألة، فقد تم عرضها بهذا التوسع؛ إنه إذا شاء الله ﷻ، فإنه سوف يُدخل هؤلاء الأشخاص الذين يؤمنون بالخالق ﷻ، وفقًا للعقيدة الماتريديية (نسبة إلى أبي منصور الماتريدي)، الجنة. كما سُدخل الله ﷻ (وفقًا لعقيدة الأشعرية) هؤلاء الأشخاص الذين يعتقدون بأن الله ﷻ لم يرسل رسولًا للجنة، أو لم يتم تبليغ رسالة هذا الرسول على النحو الواجب إلى هؤلاء الأشخاص. وبدلاً من إدانة الناس وإصدار الأحكام المشددة بحقهم، فإنني أعتقد أنه سيكون من الأنسب للدين الإسلامي أن تتناول الأمور من منظور رحمة الله ﷻ التي لا نهاية لها" (مقابلة مع التلفزيون الهولندي بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٩٥).

معايير تفعيل منهجية الاجتهاد

طرح ساريتوبراك وأونال في مقابلة مجلة العالم الإسلامي عام ٢٠٠٥، سؤالاً أكثر تعمقاً في نفس السياق: "لقد تم مناقشة موضوع الاجتهاد (التفسير المستقل) بعمق على صفحات مجلة العالم الإسلامي لفترة طويلة؛ واعتقد البعض أن باب الاجتهاد قد أُغلق، وقد تسبب ذلك بطبيعة الحال في ركود التفسير وتوقفه. فما المعايير المطلوبة حتى نستخدم منهجية الاجتهاد؟" ورد كولن قائلاً:

"إن الإسلام، كونه الدين الخاتم والعالمي، يمثل الخلاصة لحلول المشاكل الإنسانية في كل العصور وفي شتى الأماكن؛ وتستند هذه الحلول على النصوص

يمكن للمرء أن يرى عدة أسباب وراء فقدان روح الاجتهاد وإغلاق الباب أمام الاجتهاد ومنها: القمع السياسي، والصراعات الداخلية، وإساءة استخدام مبدأ الاجتهاد، والثقة الشديدة في النظام التشريعي والقانوني الحالي، وعدم الإصلاح.

www.nesemat.com

المؤهلين للاجتهاد؛ وما دام المجتمع لا يزخر بمثل هؤلاء العلماء الأجلاء الذين يمكنهم القيام بالاجتهاد، فلا يمكن تجاهل حجة أولئك الذين يعارضون مبدأ الاجتهاد.

"في الوقت الحالي، ترتبط قلوب الناس وأذهانهم عموماً بالحياة الدنيوية؛ كما أن قلوبهم وأذهانهم في الوقت الراهن متباينة إلى حد كبير ويتم صرف الأذهان عن الأشياء غير المادية. فالدين والتدين لم يعودا من المسائل والقضايا الرئيسية بالنسبة للشعوب كما كان الحال في عصر المسلمين الأوائل. وعلى النقيض من ذلك، فإن الناس محايدون تجاه الدين أو التدين؛ أي أن تكون متديناً أو غير متدين قد أصبح سواء. فالعديد من الناس في هذا الزمان لديهم نفور كبير حيال مسائل الإيمان ويتجاهل العديد منهم مبادئ الدين وأساسه؛ ويتم النظر إلى أركان الإسلام ومبادئ الإيمان نظرة شك وريبة. لقد انهار الدين بالنسبة للعديد من المسلمين، ولا يبذل كثير من المسلمين أي جهد للعيش في إطار الإسلام. وفي ظل هذه الظروف، يمكن للمرء أن يرى مدى صعوبة أن يتم استخدام هذا الجانب الحيوي من

الدينية، فقد استبدلت مبادئ الاجتهاد الخصبة والثرية بالتقليد والحفظ والنسخ.

"يمكن للمرء أن يرى عدة أسباب وراء فقدان روح الاجتهاد وإغلاق الباب أمام الاجتهاد ومنها: القمع السياسي، والصراعات الداخلية، وإساءة استخدام مبدأ الاجتهاد، والثقة الشديدة في النظام التشريعي والقانوني الحالي، وعدم الإصلاح وحالة العمى التي تسبب فيها النظام الرتيب المهيمين في الوقت الحالي؛ وكانت جميعها من أسباب هذه الخسارة الواقعة. وعلاوة على ذلك، فقد كان المؤمنون المؤهلون للاجتهاد على أساس ذكائهم وقدراتهم في بعض الأوقات يتم إدراجهم عن طريق الخطأ بين مجموعات المهترقين الذين كانوا يسيئون استخدام الاجتهاد."

الإسلام، ألا وهو الاجتهاد، على النحو الصحيح." "على الرغم من كل هذا، كانت هناك حركة إحياء بارزة للدين والتدين في العالم الإسلامي اليوم؛ وأتمنى -بمشيئة الله- أن يؤدي هذا التطور إلى ظهور الأفراد المؤهلين لفتح باب الاجتهاد في المستقبل القريب. وأنا مقتنع بأنه عندما يحين الوقت المناسب،

"في الواقع، لم يتم إغلاق باب الاجتهاد مطلقاً من قبل أي شخص؛ ومع ذلك، فقد كان يميل بعض العلماء إلى إغلاق باب الاجتهاد أمام الأشخاص الذين يرغبون في تعزيز رغباتهم الخاصة وتفسيراتهم واعتمادها كتوجيهات معمول بها. وقد تم إغلاق باب الاجتهاد تلقائياً في وجه هؤلاء الأفراد غير

في الوقت المناسب، سيشكل أصحاب الأرواح المتدفقة والمفكرين الأفاضل مجموعات تضم المتخصصين وسوف يحملون مسؤولية الاجتهاد. وأتمنى أن تتمكن هذه المجموعات من خلال التشاور فيما بينها من سد الفجوة التي ظهرت منذ فقدان روح الاجتهاد" (مجلة العالم الإسلامي، عدد شهر يوليو ٢٠٠٥).

www.nesemat.com

ما المقصود بالشرعية؟

تعتبر الشريعة بلا شك أحد المفاهيم الأكثر إثارة للنقاش من حيث علاقة الإسلام بالديمقراطية؛ وقد أثارت الشريعة على مدار سنوات طويلة، مفهوم وفكرة "الدولة الدينية". وفي الواقع، كانت الشريعة أحد المصطلحات التي تستخدم في كثير من الأحيان بالتبادل مع مصطلح "الدولة الدينية". هذا وقد طرح مراسل صحيفة نيويورك تايمز برايان نولتون سؤالاً على كولن في المقابلة التي أجراها معه في عام ٢٠١٠ حول هذا الموضوع: "هل ينبغي أن تقوم الدولة التي يحكمها المسلمون على مبادئ الشريعة؟"

أجاب كولن قائلاً: "إذا كفلت الدولة حرية الاعتقاد ومنحت الناس حقوقاً متساوية في العيش كما يرغبون وحقوق التعلم وإدارة شؤون حياتهم وفقاً لما تمليه عليهم ضمائرهم، فإنها لا تتعارض بأي حال مع تعاليم القرآن الكريم ومبادئه."

وأضاف كولن: "إذا كانت هناك دولة من هذا القبيل، فليس هناك حاجة إلى إقامة نظام بديل. وإذا كان النظام لا يمنح حقوق الإنسان والحريات الكاملة،

كما هو الحال في بعض البلدان التي تسمى بالبلدان الديمقراطية في الوقت الراهن، فيتعين في هذه الحالة مراجعة هذا النظام وتجديده وإصلاحه وفقاً للمعايير والقوانين الدولية وحقوق الإنسان من جانب الأجهزة التشريعية والتنفيذية (في هذه الدولة)."

"في تركيا أيضاً على سبيل المثال، وببساطة كنتيجة للديمقراطية، طلب الشعب فرصة للعيش بحرية وفقاً لمعتقداتهم في المدارس وفي أي مكان آخر؛ لقد طلب الناس الحق في أن يكونوا كما هم عليه بحق، هذا هو الحق الأساسي لكل إنسان" (تم نشر جزء من هذه المقابلة في صحيفة نيويورك تايمز في ١٢ يونيو ٢٠١٠).

كما استفسر مراسل صحيفة لوموند الفرنسية نيكول بوب عن هذه المسألة قائلاً: "كلمة الشريعة هي كلمة أخرى تتصف بحساسية شديدة في تركيا؛ فما المقصود بالشرعية؟" وأجاب كولن قائلاً: "في الواقع، مصطلح الشريعة هو مصطلح مرادف للدين؛ فكل أساسيات الاعتقاد وجميع المبادئ الأخلاقية الأخرى تتضمنها الشريعة. الشريعة ليست ذلك الجزء من الدين الذي يتعلق بالحكم، وهو

(ﷺ)؟ وعلى سبيل المقارنة مع عيسى ﷺ، قال الصحفي: "في الغرب يقول الناس إن النبي محمد ﷺ قد أسس دولة في حين أن عيسى ﷺ ظل بعيداً عن السياسة وترك إلى القيصر الأشياء التي تخص القيصر. فهل تحقيق الهيمنة العالمية من بين تعاليم الإسلام؟"

وردًا على هذا السؤال، شرح كولن المبادئ الأساسية التي يجب أن تقوم عليها الدولة الإسلامية: "إذا كان من الضروري وجود إدارة في الإسلام، فليس هناك مشكلة في أن يتم تأسيس الدولة الإسلامية بما يتوافق مع المبادئ والضوابط الإسلامية، بما في ذلك الأخلاق والمبادئ الإسلامية. لم تتح أمام عيسى ﷺ وتلاميذه الفرصة لإقامة دولة؛ ولو كانت أتاحت لهم مثل هذه الفرصة، لكان عيسى ﷺ قد أسس دولة مثل سيدنا داوود وسليمان عليهما السلام من قبله؛ حيث أسس داوود وسليمان دولة في عصر الملوك الذين ورد ذكرهم في العهد القديم. كما أنشأ موسى ويوشع بن نون مثل هذا النظام، وهناك علاقة بين عيسى وزكريا ويحيى في هذا الصدد."

"لم يحصلوا على مثل هذه الفرصة؛ ولكن بعد ذلك، عندما اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين العظيم المسيحية باعتبارها الدين السائد في الإمبراطورية الرومانية، حكم هذا الإمبراطور وفقاً لتعاليم المسيحية."

"نعم، لقد أنشأ الرسول الكريم ﷺ نظامًا للحكم في عصره، لكن النظام نفسه قد تأسس في عصر الخلفاء

لم تتح أمام عيسى ﷺ وتلاميذه الفرصة لإقامة دولة؛ ولو كانت أتاحت لهم مثل هذه الفرصة، لكان عيسى ﷺ قد أسس دولة مثل سيدنا داوود وسليمان عليهما السلام من قبله.

الأمر الذي يُشكل ٢٪ فقط من مجموع الدين ككل؛ فالأشخاص الذين يرونها كذلك مخطئون إلى حد كبير، كما أن هذا الفهم يولد الكراهية وعدم الارتياح لدى بعض الناس الآخرين تجاه هذا المصطلح. "الشريعة ليست شيئاً ينفرد به الإسلام وحسب، فهناك أيضًا الشريعة اليهودية والشريعة المسيحية وهي متضمنة في الكتب المقدسة؛ كما عبر عنها المسيح ﷺ: "أنا لم آت لأبطل الشريعة وإنما لأحققها في الواقع." هذه الجملة المذكورة في الأناجيل؛ والشريعة هي شكل من أشكال التطبيق العملي للدين، بل هي الدين نفسه، وبمعنى آخر، فإن الشريعة أقرب إلى تعريفها الاجتماعي. ولكن كما ذكرت من قبل، فإن المسائل التي تتعلق بالإدارة والحكم لا تشكل حقيقة سوى ٢٪ من الشريعة، وتتعلق هذه النسبة بالأشخاص الذين يضطعون بأمر الإدارة والحكم في المقام الأول، ومن هنا، فهي لا تهم كل فرد من أفراد المجتمع."

نظام الدولة الذي أسسه النبي محمد ﷺ

سأل الصحفي الألماني راينر هيرمان كولن قائلًا "ما نوع نظام الدولة الذي أسسه النبي محمد

لقد استسلم بعض الحكام لمشاعرهم وارتكبوا بعض أعمال الظلم والوحشية وهم يختبئون خلف ستار الإسلام؛ وفي بعض الأحيان يتم ارتكاب جرائم القتل باسم الإسلام بسبب أخطاء في الحكم والتقدير.

www.nesemat.com

الراشدين؛ وكما يوحي اسمهم، كان الخلفاء الراشدون الأكثر استقامة ويسرون على الطريق المستقيم. في حين لا يمكن أن يُقال الشيء نفسه بالنسبة للأمويين والعباسيين في عهدهم أو للعثمانيين والدول الإسلامية في آسيا؛ ولا يمكننا القول بأن الإنصاف والعدالة والاستقامة والعدالة الاجتماعية قد تم تطبيقها بشكل متساوٍ على جميع الناس."

"لقد استسلم بعض الحكام لمشاعرهم وارتكبوا بعض أعمال الظلم والوحشية وهم يختبئون خلف ستار الإسلام؛ وفي بعض الأحيان يتم ارتكاب جرائم القتل باسم الإسلام بسبب أخطاء في الحكم والتقدير. وقال كولن "إن أكثر أشكال العنف وحشية يتم ارتكابها في عصرنا الحالي؛ كما هو الحال بالنسبة للانتحاريين والهجمات الانتحارية... حيث يكون الضحايا من الأبرياء. وكما يبين الحق ﷺ في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا صَبَرْتُمْ لَهَوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦) لا يفعل تنظيم القاعدة وحزب الله شيئاً سوى إظلام وتشويه الجوانب النقية والناصعة في الإسلام؛ وكل هذا ينبع من عدم المعرفة الصحيحة بالقرآن الكريم" (فرانكفورتر الجيمين زيتونج، ٦ ديسمبر ٢٠١٢).

هل الدولة هدف للمسلم؟

في مقابلة أجراها مع صحيفة ميليت في عام ٢٠٠٥، سئل كولن: "هل يجب أن تكون الدولة هدفاً بالنسبة للمسلم؟" أكد كولن في جوابه على نقطة واحدة على وجه التحديد، وأوضح الطرق المختلفة التي تم من خلالها انتخاب الخلفاء الراشدين الأربعة

لشغل هذا المنصب والآثار الكبرى المترتبة على ذلك: "كما أعتقد أيضاً أن الناس يمكنهم ممارسة ٩٥٪ أو ربما ٩٧٪ من شعائر دينهم دون أن يسببوا أي قلق، شريطة أن يتم الحفاظ على الإطار الذي رسمته الديمقراطية وألا يتم تضيق مجالات النشاط بمثل هذه الأشياء مثل "المجال العام"؛ وذلك لأن الدين يضطلع بدور ما في مواقف معينة في الحياة الاجتماعية وفي الإدارة أيضاً. ومع ذلك، فإن هذه القضايا لها خصائص وجوانب تاريخية متنوعة.

"على سبيل المثال، ليس هناك نموذج محدد لطريقة الانتخابات أو نظم الإدارة؛ وعندما نظر إلى التطور التاريخي للنظام الإسلامي للحكم، فقد تم انتخاب أبي بكر الصديق ﷺ من قبل جموع الناس، في حين تم انتخاب عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن رشحه أبو بكر الصديق ﷺ لشغل هذا المنصب؛ وتم انتخاب "عثمان بن عفان" ﷺ بعد أن أشار عمر بن الخطاب ﷺ إلى مجموعة العشرة المبشرين بالجنة (العشرة أشخاص الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة)، وكان من بينهم عثمان بن عفان ﷺ. وكانت هناك بعض المعارضة لانتخاب علي بن أبي طالب ﷺ،

إلى التطور السريع في عالمنا، هل تعتقد أنه يمكن تأسيس الخلافة من جديد؟ أم الخلافة أمر مثالي لا يمكن تحقيقه؟"

ورد كولن على ذلك قائلاً: "عندما أُلغيت مؤسسة الخلافة كانت هناك عديد من الآراء التي كانت تؤيد أو تعارض إلغاء الخلافة؛ فعالم الاجتماع التركي "ضياء كوك آلب" -في بداية أمره- وهؤلاء السالكون لخطه الفكري كان لديهم وجهة النظر التالية: "إن مؤسسة الخلافة تتمتع بمكانة كبيرة بين المسلمين. وإذا لم توجد مثل هذه المؤسسة فإن العالم الإسلامي سوف يكون أشبه بمسبحة بدون شاهد، وسوف تنفرط كل حبات الخرز منها".

"ويعتقد المفكرون مثل سيد بك (باحث إسلامي، عضو في البرلمان التركي خلال الفترة من ١٩٢٣ - ١٩٢٥، ووزير العدل التركي خلال الفترة من ١٩٢٤ - ١٩٢٣ أن "الخلافة لها غاية حكيمة، وأنها مسألة وُكل أمرها إلى الأمة، وأنها تنقاد لمتطلبات الزمن. فعندما مات النبي ﷺ لم يذكر أي شيء لأصحابه بشأن الخلافة، ولا توجد أي آية في القرآن الكريم تتعلق بهذه القضية". وأكد "سيد بك" على الشورى وطاعة الحكام، كما ذُكر في القرآن، ويؤكد على أهميتهما في الإدارة والسياسة. ويعتقد أن الخلافة الإسلامية قد انتهت بخلافة علي عليه السلام في السنة الثلاثين من الهجرة. ويستدل في هذا السياق بأراء بعض المجتهدين وعلماء الكلام، ويشير إلى تاريخية الخلافة بقوله: "إن ما ينبغي فعله هو التركيز على غاية الخلافة وما قصد منها، لا الخلافة

"الديمقراطية ذات البعد الروحي"، هي تلك الديمقراطية التي تتضمن احترام حقوق وحريات الإنسان وتكفل حرية الاعتقاد، وتهين في الوقت ذاته بيئة يمكن للناس فيها ممارسة معتقداتهم بحرية واختيار نمط حياتهم حسب ما تمليه عليهم ضمائرهم.

وتشكلت إدارة أخرى في دمشق عندما سنحت الفرصة أمام معاوية عليه السلام؛ وخلال العهد الأموي، بدأت قاعدة الحكم في الانتقال من الأب إلى الابن واستمرت هذه الممارسة خلال حكم العثمانيين. "كل هذا يدل على أن الدين له وصايا معينة منهجية محددة، ولا يتم المساس بها مطلقاً؛ وخلاف ذلك، هناك نطاق من الحقائق النسبية المفتوحة للتفسير (الاجتهاد) والاستدلال التقديري (الاستنباط) أمام الجميع، وبالتالي ينبغي تقييم ظروف واحتياجات كل عصر على النحو الواجب" (١٦ يناير ٢٠٠٥، ميليت).

هل يمكن أن تعود الخلافة من جديد؟

في عام ١٩٢٤ أصدر البرلمان التركي قانوناً يلغي مؤسسة الخلافة؛ ولكن من وقت لآخر يرد الحديث عنها ضمن مناقشات بشأن الإسلام والديمقراطية. وسُئل كولن في المقابلة التي نشرت في مجلة العالم الإسلامي عن الخلافة: "بعد إلغاء الخلافة في تركيا، نشأت العديد من الحركات الجديدة لاستعادة مؤسسة الخلافة من جديد ولا سيما في الهند؛ وبالنظر

يمكن أن يقول البعض إن التعصب قد ظهر في البلاد بعد فترة معينة؛ وولكن كما كان هناك أفراد شاركوا في التعصب الديني، كان هناك أيضًا أفراد شاركوا في أعمال التعصب ضد الدين.

www.nesemat.com

نفسها؛ فعهد الخلافة قد انقضى عنده بعد الخلفاء الأربعة، والذين جاؤوا من بعدهم ليسوا خلفاء حقيقيين، وإنما خلفاء في الشكل.

ثم أُلغيت الخلافة بحكم البرلمان التركي التالي: "لقد تم عزل الخليفة، وتم إلغاء مؤسسة الخلافة، لأنها مندرجة تحت مفهوم ومعنى الحكومة والجمهورية".

"وقبل فترة طويلة من ظهور هؤلاء العلماء، كتب ابن خلدون في مقدمته، الفكرة التالية: "فيما يتعلق بالخلافة هناك ثلاث وجهات نظر مختلفة حول هذه المسألة. الأولى هي أن الخلافة نظام إلهي وضروري؛ والثانية، أن الخلافة قائمة على الاحتياجات؛ والثالثة، كما زعم بعض الخوارج أنه ليس هناك حاجة إلى الخلافة".

وهؤلاء الذين يعتقدون في عصرنا الحالي أنه لا حاجة للخلافة يقولون هذا بسبب ظهور الدول القومية وتطور أفكار الاستقلال؛ ولهذه الأسباب، يعتقد بعض الناس أن الخلافة قد فقدت فعاليتها.

"ويؤمن آخرون بأن الخلافة ما زالت تحتفظ بحيويتها وتأثيرها؛ إذ هي وسيلة للوحدة بين المسلمين، كما أنها تيسر التعاون بين الدول الإسلامية من خلال تبادل المهارات والفرص، وأنه بمصطلح ديني مثل الخلافة يمكن للجماهير أن تتجمع تحت رايته".

"وإذا آل الأمر إلى هذا الحد فإنه قد يكون إحياء الخلافة غاية في الصعوبة، كما أن جعل المسلمين يقبلون بها قد يكون مستحيلًا. ومن جهة أخرى فإن

نظرة العالم المعاصر لمثل هذه المبادرة من الأهمية بمكان ويجب أن تؤخذ في الاعتبار. ومن المفيد أن ننظر إلى مفهوم الخلافة وحركات إحياء الخلافة في ضوء الأفكار والملاحظات السابق ذكرها.

وسُئل كولن خلال مقابلة نشرتها صحيفة ميليت في العام نفسه، "ما رأيك في موضوع إحياء الخلافة؟" وأجاب كولن: "عندما كان سيتم إلغاء الخلافة في عام ١٩٢٤، اعترض مصطفى عصمت إينونو (الرئيس التركي الثاني) على ذلك، في حين أن سيد بك، وهو عضو في البرلمان التركي من إزمير، ومعلم لمنهج الفقه الإسلامي لم يعترض على ذلك؛ حتى إن سيد بك قد أَلَّفَ كتيبًا يربط تاريخ الخلافة الإسلامية استنادًا إلى قول الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) في هذا الكتيب، أكد سيد بك على أن هذا اللقب قد منحه المسلمون لقائد الدولة؛ وبعد أن أكد على أن الخلفاء الراشدين (الخلفاء الأربعة الأوائل) قد تم انتخابهم بطرق مختلفة، وأثبت كيف أنه سيكون من المستحيل تحويل طريقة الانتخابات مرة أخرى إلى نظام واحد. وقد أطلق عليهم اسم "الخلفاء الحقيقيون"، لأنهم

وليس من الصواب التركيز على الموضوعات التاريخية ذات الأهمية الثانوية من أجل إثارة الجدل. وهذه المسائل متاحة دائماً للنقاش؛ وإذا ركز بعض الإخوة من المسلمين على هذه المسألة، فإنني لا أعلم من يحرضهم على ذلك.

www.iesemat.com

على الموضوعات التاريخية ذات الأهمية الثانوية من أجل إثارة الجدل. وهذه المسائل متاحة دائماً للنقاش؛ وإذا ركز بعض الأخوة من المسلمين على هذه المسألة، فإنني لا أعلم من يحرضهم على ذلك. هل يمكنك القول بأنه قد كان هناك خلافة بمعناها الحقيقي خلال عهد الأمويين والعباسيين؟ هل كان يزيد أو الوليد يمثلان الخلافة بشكل صحيح بحيث يتم المطالبة بتطبيقها في الوقت الراهن؟ هل إثارة مثل هذه المناقشات، سواء كانت متعمدة أو غير ذلك، يمكن أن تكون شيئاً يقوم به أولئك الأشخاص الذين لا يطبقون الإسلام من أجل إخفاء نقائصهم وعيوبهم؟

وأضاف "إذا طرحت هذه المسألة (الخلافة) وطبقت في تركيا، وباكستان، واندونيسيا أو دولة أخرى، فسوف تعارضها الدول الأخرى؛ ويرجع السبب في ذلك إلى تأسيس الدول القومية وقد أعلنت كل هذه الدول استقلالها" (صحيفة ميليت، ٢٤ يناير ٢٠٠٥).

الأصولية والتعصب الديني والتعصب العلماني

يعد مفهوم الأصولية من المفاهيم الأخرى التي تميز المناقشات حول الإسلام والديمقراطية. في مقابلة أجراها كولن مع مراسل صحيفة لوموند الفرنسية نيكول بوب في عام ١٩٩٨، يربط كولن الأصولية في الدين بالأشكال الأخرى للاضمحلال والتدهور في المجتمع: "عندما كانت الإمبراطورية الرومانية في مرحلة تدهور وأقول، كان للمؤسسات الأخرى، مثل الطرق الصوفية ومقرات الدراويش والمدارس الدينية، نصيبها من هذا التدهور والاضمحلال

قاموا بواجباتهم في إطار معايير العدل والتقوى." وقال سيد بك إن الخلافة الحقيقية كانت ممثلة من جانب هؤلاء الخلفاء؛ وبالتالي، وبطريقة ما قال سيد بك إن الذين تبعوهم من الخلفاء يمكن أن يطلق عليهم اسم "الخلافة نسبية"، كما قال النبي ﷺ "الخلافة من بعدي ثلاثون سنة." (أخرجه أبو دواد) وقد انتهت مدة خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ والتي استمرت لمدة ستة أشهر. وفي رواية أخرى ضعيفة "إذا كنتم على الطريق المستقيم فإن الخلافة ستستمر لمدة ٧٠ سنة. ومن ثم قال النبي ﷺ "ثم يكون بعد ذلك ملك ومملكة" ثم قال "ثم تكون ملكاً عضواً". وبعبارة أخرى، ما قاله سيد بك إنه: إذا لم يكن هناك خليفة يتم انتخابه بأغلبية أو من قبل أصحاب الرأي ومن يحافظ على المثل العليا للخلافة والوفاء والقيام بواجبات الخليفة الحقيقي، ثم ما إذا كان أو لم يكن هناك خلافة فهذا أمر نسبي. "لقد ألغيت الخلافة، وكان يُنظر إليها على أنه يتم الحفاظ عليها في ظل وجود البرلمان؛ ولم يعترض أحد على هذا الادعاء. ما يهم هو الممارسة الدقيقة لتعاليم الإسلام ومبادئه؛ وليس من الصواب التركيز

من المؤلم أن نرى في العالم الإسلامي وخاصة في بلدي تركيا- أفرادًا يتحدثون عن الإسلام والديمقراطية ويزعمون أنهم ينطقون ويتحدثون باسم الدين قد وصلوا إلى فهم يفيد بأن الإسلام والديمقراطية لا يمكن التوفيق بينهما.

www.nesemat.com

تلك الديمقراطية التي تتضمن احترام حقوق وحرية الإنسان وتكفل حرية الاعتقاد، وتهيئ في الوقت ذاته بيئة يمكن للناس فيها ممارسة معتقداتهم بحرية واختيار فط حياتهم حسب ما تمليه عليهم ضمائرهم." "وعلاوة على ذلك، فهذا يعني تلك الديمقراطية التي تساعد الناس على إشباع رغباتهم فيما يتعلق بالحياة الأبدية في الآخرة؛ وينبغي أن نبحث عن سبل لتوسيع آفاق الديمقراطية وإضفاء الطابع الإنساني عليها بهذه الطرق. وينبغي أن تتعهد الديمقراطية المثالية والحقيقية بتلبية احتياجات الإنسان التي تتعلق بالخلود والأبدية بقدر ما تتعهد بحل مشاكل الحاضر والمستقبل. إن ديمقراطية من هذا القبيل وحدها هي التي يمكن أن تتطور إلى ديمقراطية مثالية، ولكن للأسف لم تصل البشرية إلى هذا الأفق حتى الآن" (مقابلة أجراها مراسل صحيفة نيويورك تايمز براين نولتون، وتم نشر جزء من هذه المقابلة في الصحيفة بتاريخ ١٢ يونيو ٢٠١٠). ■

الهوامش

(١) الترجمة عن الإنجليزية: د. بدران حامد.

أيضًا؛ فقد أصبحت هذه الجماعات عاجزة عن أداء مهامها الحقيقية. كما حدث نفس الشيء في الجيش أيضًا كما تعامل الإنكشاريون مع كافة الابتكارات والإصلاحات، بل وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون المدارس الدينية في طريقهم؛ وباختصار، كان لكافة المؤسسات نصيبها من حالة التدهور العام الذي حدث للعثمانيين: الجيش، والأكاديميين، والجماعات الدينية التي كانت في السابق هي القوى الدافعة وراء نشأة وازدهار الدولة. يمكن أن يحدث الشيء نفسه في الوقت الراهن، وبما أن التدهور والاضمحلال قد حل بالطرق الصوفية، وكما نشهد في الوقت الحالي، يمكن أن يحدث في مدارس الخدمة المدنية وفي بعض المؤسسات الحيوية الأخرى.

وفي سياق تأكيده على الأصولية الدينية، يشير كولن أيضًا إلى وجود التعصب ضد الدين: "يمكن أن يقول البعض إن التعصب قد ظهر في البلاد بعد فترة معينة؛ وكما كان هناك أفراد شاركوا في التعصب الديني، كان هناك أيضًا أفراد شاركوا في أعمال التعصب ضد الدين" (يني يوزيل، ٢١ يوليو ١٩٩٧). وأخيرًا، دعونا نلقي نظرة على رد كولن على سؤال هام يتعلق بتركيا خلال مقابلة أجراها مع صحيفة نيويورك تايمز في عام ٢٠١٠: "ينبغي أيضًا مناقشة مسألة تأسيس الديمقراطية التي تستجيب للاحتياجات الروحية للإنسان، وهي تلك الروح التي لن ترضى وتشعر بالنعيم إلا برضا الله ﷻ ووعد الحياة الأبدية في الآخرة؛ ويمكنك إن شئت أن تطلق عليها "الديمقراطية ذات البعد الروحي"، ويعني ذلك أنها

نسمات

إصدارة ورقية بحثية متخصصة

نسمات إصدارة ورقية بحثية متخصصة في الدراسات الاجتماعية والحضارية في إطار مجموعة من المحاور المتعلقة بمشروعات الإصلاح وقضايا التجديد وحوار الأديان والثقافات والحضارات وقيم نشر التسامح والعيش المشترك والسلام العالمي، ومشروعات التربية والتعليم والتنمية المستدامة، ونبذ العنف والتطرف والإرهاب.

وتسلط الإصدارة الضوء في هذه المرحلة على دراسة مشروع الخدمة والرؤية الإصلاحية للأستاذ فتح الله كولن في أبعادها الفكرية وتجلياتها التطبيقية، باعتباره نموذجاً حضارياً معاصراً في رؤى الإصلاح والبناء والتغيير.

شروط النشر

- أن تكون المشاركة جديدة لم يسبق نشرها.
- أن تكون دراسة متصلة بمشروع الخدمة وفكر الأستاذ فتح الله كولن.
- أن تكون المشاركة إسهاماً إيجابياً مثرياً، تشكل إضافة نوعية في القراءة والنقد والتحليل وتتوافق مع المعايير العلمية المعروفة.
- ألا تقل عن ١٥٠٠ كلمة وألا تزيد على ٧٠٠٠ كلمة.
- أن يرسل الباحث ملخصاً لمشاركته في حدود ٢٥٠ كلمة.
- تخضع المشاركات المعروضة للنشر لموافقة لجنة استشارية علمية، وللجنة العلمية أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل على المشاركة قبل إجازتها للنشر.
- هيئة التحرير تلتزم بإبلاغ أصحاب المشاركات بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ هيئة التحرير بحقها في نشر المشاركات وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- المشاركات التي تنشر في نسمات تعبر عن آراء كتابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- لـ"نسمات" حق إعادة نشر المشاركات منفصلة أو ضمن مجموعة من الأبحاث، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أي لغة أخرى دون حاجة إلى استئذان صاحبها.
- نسمات لا تمنع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى من الباحث أن يرفق مع المشاركة نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية مع صورة واضحة مناسبة للنشر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى العنوان الآتي: nesemat@yahoo.com

نسمات

للدراسات الاجتماعية والحضارية

إصدارة ورقية بحثية متخصصة
تصدر عن دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع
www.nesemat.com

Copyright©2017 Dar al-Inbiath

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وإشراف
صابر المشرفي

تحرير وتصحيح
هيئة النشر

اللجنة الاستشارية العلمية

- د. محمد إقبال عروي
- د. محمد جكيب
- د. سعيد بوزيزي
- د. محمد باباعمي
- د. أبو زيد عبد الرحيم
- د. هدى درويش
- د. سليمان الدقور
- د. باسم عيتاني
- د. جمال السفرتي
- د. فؤاد البنا
- د. عبد الله الدعجاني

تصميم فني

نور الدين محمد صواش

غلاف
محمد أشرف

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع

دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع، مصر

Mobile: 002 01000780841

002 01067251063

العنوان: 22 ج جنوب الأكاديمية، شارع
التسعين الشمالي، القاهرة الجديدة

التقييم الدولي

978-977-6704-00-8

رقم الإيداع
2019/2078

رقم النشر
011

القاهرة - مصر

- بيان القلب الساحر بلا حروف أو كلمات..
- صوت الصمت المدوي في عصر الصخب والضجيج.
- كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن..

كتاب جديد

للأستاذ فتح الله كولن



00201023201002 | daralinbiath@gmail.com | مركز التوزيع: دار الانبعاث

www.souq.com | مركز البيع الإلكتروني:

01115534566 | دار أصول الدين: 01275470090 | مركز البيع المجلد العربي:

@daralinbiath | @daralinbiath | 01150726663 | جوامع الكلم:

لا يمكن لقلوبٍ مينةٍ لم تكتوٍ بالابتلاء، ولا لأرواحٍ جامدةٍ لم تذوق مرارة الامتحان قط، أن ترتقي إلى أي أفقٍ إنساني، ولا أن تمنح مجتمعا أي عطاءٍ إنساني.

ما يريده فتح الله كولين هو أن تجد الأمة قدوة سامية تسترشد بها وهي تشق طريق التجدد، ليس بإعادة إنتاج ذلك الماضي، بل بالاهتداء بمعالمه وركائزه وعمقه الفكري والوجداني في بناء خصوصية الحاضر.

إن المبادئ التي تُشكل أساس الديمقراطية متوافقة مع القيم الإسلامية؛ ويمكن الاستشهاد بمبادئ الشورى، وحرية الاعتقاد وغيرها أمثلة على المبادئ التي يعتنقها الإسلام والديمقراطية على حد سواء.